من تاريخ بلاد النوبة

تاريخ دولة الكنوز الإسلامية

تأليف

الدكتور عطية القوصى

الطبعة الثانية

١٩٨١

دار المعارف بمصر



الفهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شبه الجزيرة العربية مستودع بشرى هائل ، خرجت منه جماعات عربية كثيرة على مدى التاريخ الطويل . وكانت الأحوال الاقتصادية السيئة التى تعرضت لها شبه الجزيرة من وقت لآخر ، بسبب الجفاف وبسبب قسوة الظروف الطبيعية ، هى العامل الرئيسى فى تفسير هذه الظاهرة التاريخية الكبرى . ونتيجة لهذه الظروف الاقتصادية السيئة كانت تخرج من شبه الجزيرة من وقت لآخر موجات متتابعة من المهاجرين العرب وتتجه إلى بلاد الخصب والنماء المحيطة بها ، وهى : منطقة الهلال الخصيب ووادى النيل .

ومع قيام الدعوة الإسلامية استجد عامل آخر من عوامل هجرة القبائل العربية إلى هذه المناطق الخصبة المجاورة . وتمثل هذا العامل أولا فى حركة الفتوح العربية التى دفعت بالعرب خارج شبه الجزيرة العربية مجاهدين فى سبيل الله ومن أجل نشر رسالة الإسلام السامية فى مختلف بقاع الأرض ، وفيما ترتب على ذلك من استقرار الجند العرب فى كل مصر من الأمصار التى قاموا بفتحها ، ثم ما لحق ذلك من هجرات عربية إلى هذه الأمصار .

وفيما يختص بمنطقة وادى النيل ، فقد سلكت الجماعات العربية المهاجرة إليه ثلاثة طرق : عبر سيناء ، وعبر البحر الأحمر ، وعبر باب المندب .

وقبل الفتح العربى لمصر بزمن طويل شهدت أرض مصر وفود جماعات عربية إليها من شبه الجزيرة العربية ، جاء معظمها تحت تأثير الأحوال السيئة ، وجاء الباقون من أجل التجارة وآثر بعض الذين جاءوا البقاء على أرض النيل زاهدين فى حياة الصحراء القاسية .

أما بعد الفتح فقد ازدادت أعداد الجماعات العربية التى وفدت على مصر ، وجاءت مجاهدة فى سبيل الله ، واستقرت هذه الجماعات على أرض وادى النيل لتحقيق الرسالة التى خرجوا من أجلها . وفضلا عن الجند العرب الذين فتحوا مصر واستقروا بها فإن جماعات

أخرى من قبائل العربية تبعتهم فيما بعد وهاجرت إلى مصر ، إما بدافع القرابة التى تربطهم بهؤلاء الجند أو رغبة فى الاستقرار على أرض النيل . كما أن بعض الولاة كان يفد ومعه جماعات من رجال قبيلته وعشيرته لتكون له فى البلاد سنداً وعوناً .

وفى سنة ٢١٩ هـ أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء . وأدى ذلك إلى ترك العرب الجندية واستقرارهم فى الأرض وزراعتها ، وترتب على ذلك تنشيط حركة التعريب وحركة انتشار الإسلام بين المصريين .

وقبيلة ربيعة — التى كانت تسكن اليمامة — واحدة من هذه القبائل العربية التى هاجرت إلى مصر ، وأسهمت فى تعريب أهالى البلاد التى نزلت بها ، ففى عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) ، وعلى وجه التحديد بعد سنة ٢٤٠ هـ ، قدمت أعداد كبيرة من ربيعة إلى مصر واستقرت فى أنحاء كثيرة منها . فنزلت طائفة منهم بالحوف الشرقى عند بلبيس ، ونزلت طائفة ثانية بأعالى الصعيد وحدود بلاد النوبة الشمالية ، كما نزلت طائفة أخرى منهم بين قبائل البجة فى الصحراء الشرقية . واختلط أبناء ربيعة مع أهالى تلك البلاد التى نزلوا فيها وصاهروهم واندمجوا معهم اندماجاً تاماً . بل إن الفرع الذى نزل بوادى العلاّقى فى الصحراء الشرقية استطاع أن يستفيد من نظام الوراثة عند قبائل البجة ، ونجح فى نهاية الأمر فى أن يقيم إمارة حاكمة له هناك . ثم مالبث أبناؤه أن نقلوا مركز هذه الإمارة من العلاقى إلى مدينة أسوان ؛ التى شهدت عصرها الذهبى أيامهم .

• • •

وقد قمت فى بحثى هذا بدراسة تاريخية لبنى الكنز ، وقسمته إلى أربعـــة أبواب :

الباب الأول : وفيه تحدثت عن هجرة القبائل العربية إلى مصر عامة ومناطق استقرار هذه القبائل . ثم عرضت لقبيلة ربيعة ولهجرات بطونها إلى مصر ومناطق استقرارها ، خاصة بين قبائل البجة التى كانت تسكن جنوبى صحراء مصر الشرقية . وهذا اقتضى التحدث عن علاقة البجة بمصر قبل الفتح الإسلامى وبعده ثم علاقتها بربيعة . وفى هذه الدراسة تبين لنا كيف سيطرت ربيعة على البجة وكيف نجحت فى إقامة امارتها العربية الأولى فى بلادهم . كما كانت لربيعة علاقة بأهالى المنطقة عنـــد أسوان وما جاورها من بلاد النوبة الشمالية ، وقد انتهت أيضاً هذه العلاقة بسيطرة ربيعة على تلك المنطقة .

لذلك تحدثت فى الباب الثانى عن بلاد النوبة الشمالية وصلتها بالتاريخ الإسلامى وعلاقة ربيعة بها ، وكيف نجحت إمارة ربيعة فى نقل مركزها من منطقة العلاقى بالصحراء إلى مدينة أسوان فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى . ثم تحدثت عن الدور الهام الذى قام به شيخ ربيعة « أبو المكارم هبة الله » فى القبض على « أبى ركوه » الثائر الأموى ضد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٧ هـ . وفى هذا الباب عالجت ظروف تلقيب بنى ربيعة ببنى الكنز كما تناولت بالدراسة علاقة بنى الكنز بالخلفاء الفاطميين بعد الخليفة الحاكم بأمر الله . ومن هذه الدراسة اتضح لنا أنها كانت علاقة إخلاص وولاء . وأن هذا الولاء انقلب إلى عداء للدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) . وعلى وجه التحديد فى سنة ٤٦٣ هـ . فقد استغل أمير بنى الكنز حالة الضعف التى تعرضت لها البلاد فى أعقاب الشدة المستنصرية (٤٤٧ — ٤٥٤هـ) وأعلن استقلال إمارته التام عن الخلافة الفاطمية . غير أنه ما كادت الأمور تستقر فى البلاد بعد مقدم بدر الجمالى إليها . حتى قضى على هذه المحاولة الاستقلالية سنة ٤٦٩ هـ . وبعدها عادت العلاقات بين بنى الكنز والخلفاء الفاطميين إلى ما كانت عليه من قبل ، كما عاد لبنى الكنز نفوذهم ثانية عند أسوان بسبب وساطة ملك النوبة لهم عند بدر الجمالى غير أن المصادر التاريخية صمتت عن ذكر أية أخبار عن بنى الكنز وعلاقتهم بالفاطميين فى الفترة الأخيرة للخلافة الفاطمية . وعلى الرغم من هذا القصور ، فقد حاولت بحث العلاقات بينهم وبين الفاطميين فى هذه الفترة ، وما يحتمل أن تكون عليه .

وفى الباب الثالث : تحدثت عن علاقة بنى الكنز بالأيوبيين والمماليك بادئاً ببيان علاقتهم بالسلطان صلاح الدين وتطور هذه العلاقة التى انتهت بالصدام والحرب بينهما . وفى هذا الصدد تحدثت عن محاولة بنى الكنز إعادة الخلافة الفاطمية وعن الأسباب الحقيقية لهذه المحاولة التى أدت إلى قيام الحرب بين بنى الكنز وبين صلاح الدين ، والتى انتهت بهزيمة بنى الكنز وبنهاية إمارتهم الأولى عند أسوان . وهذا أدى إلى رحيلهم إلى بلاد النوبة الشمالية واندماجهم هناك اندماجاً تاماً مع أهلها . وكانت نتيجة ذلك الاندماج أن وصل بنو الكنز إلى عرش دنقلة ، بعد أن سقطت مملكة مقرة المسيحية ، مستفيدين فى تحقيق ذلك من نظام الوراثة عند النوبيين وقد عارض سلاطين المماليك وصول بنى الكنز إلى عرش دنقلة ، وأرسلوا الحملات لإقصائهم عن هذا العرش ، ودخلوا معهم فى حروب

متصلة أدت في النهاية إلى ضعف بني الكنز وسقوط دولتهم سنة ٨١٥ هـ . وفي نهاية هذا الباب أشرت إلى الفوضى التي عمت صعيد مصر في بداية القرن التاسع الهجري بسبب هجرة القبائل العربية إليه ، كما أشرت إلى دور هذه القبائل في القضاء على إمارة بني الكنز . وأخيراً تحدثت في شيء من الإيجاز عن حالة بني الكنز بعد سقوط دولتهم حتى الفتح العثماني لمصر .

وفي الباب الرابع : تحدثت عن مآثر بني الكنز . وفي هذا البحث حاولت جهدي أن أجمع كل أسماء حكام بني الكنز وأن أضع قائمة بأسمائهم وسني حكم كل منهم وأهم أعمالهم ، غير أن جميع المصادر التي في متناول يدي لم تساعدني على تحقيق ذلك . وذلك لغلبة لقب « كنز الدولة » على كل منهم واكتفاء معظم المؤرخين بذكر اللقب دون الاسم . هذا فضلا عن أن تاريخ بني الكنز لم يجتذب إلى دراسته — حتى الآن — القدر الكافي من اهتمام المؤرخين لذلك جاءت هذه القائمة ناقصة . وآمل أن يتم من يبحث بعدي في تاريخ بني الكنز هذه القائمة إذا ما حالفه الحظ يوماً ما في التوصل إلى مصادر جديدة توضح الثغرات الغامضة في تاريخ بني الكنز وتاريخ إمارتهم .

وفي نهاية هذا الباب أوجزت الحديث عن عادات بني الكنز وتقاليدهم .

هذا وأرجو أن أكون قد وفقت في كتابة هذا البحث وإخراجه على هذا النحو ، مع تقديمي بوافر الشكر والعرفان لكل من قدم لي يد العون في إنجازه وأخص بالذكر أستاذي الدكتور أحمد السيد دراج رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة .

والله ولي التوفيق

عطية القوصي

عرض لأهم المصادر التى اعتمدت عليها فى هذا البحث

اعتمدت فى بحثى هذا على عدد وافر من مصادر التاريخ الإسلامى ، المخطوطة كما اعتمدت أيضاً على عدد كبير من المراجع الحديثة ، العربية والأوربية . وسأقتصر فى هذا العرض على أهم المصادر والمراجع التى تتصل اتصالا مباشراً بموضوع البحث ، والتى برزت أهميتها من خلال معالجتى لهذه الدراسة . ويأتى على رأسها المصادر الخطية ، وفيما يلى عرض لكل منها :

١ — الجزء الذى ما زال مخطوطاً من كتاب « سير الآباء البطاركة » ، المعروف « بسير البيعة المقدسة » المؤلفة أسقف الأشمونين ، ساويرس بن المقفع ، المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

وتظهر أهمية هذا الكتاب بالنسبة لبحثى فى الجزء الذى أورده عن الولاة والأمراء الذين حكموا مصر حتى زمن الدولة الفاطمية ، وما كان من علاقة البطاركة بهم وبالنوبة والحبشة حتى زمن الخليفة الآمر بأحكام الله .

٢ — كتاب « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » لمؤلفه سبط ابن الجوزى ، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ . وتأتى أهمية هذا الكتاب فى الجزء الأخير منه لتناوله الحديث عما وقع فى الفترة ما بين سنتى ٤٩٥ و ٦٥٤ هـ وهى فترة هامة فى تاريخ إمارة بنى الكنز الأولى وتاريخ علاقتها بالدولة الفاطمية فى أواخر أيامها وبالدولة الأيوبية .

٣ — كتاب « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » لمؤلفه بيبرس الدوادار ، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ . والجزء الوحيد ، الموجود بمصر ، من هذا الكتاب هو الجزء التاسع الذى يتناول الأحداث التاريخية فى الفترة ما بين سنتى ٦٥٦ و ٧٠٩ هـ ، ويبدأ بالكلام عن سلطنة الظاهر بيبرس وينتهى بالحديث عند أوائل سلطنة الملك الناصر محمد الثالثة . وهذه المخطوطة على جانب كبير من الأهمية ، نظراً لأن مؤلفها كان شاهداً عياناً للأحداث التى أوردها فى كتابه ، وكان يعمل فى ديوان الإنشاء .

٤ — الأجزاء التى ما زالت مخطوطة من كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » لمؤلفه

النويرى الذى توفى سنة ٧٣٣ هـ . وتأتى أهمية هذا الكتاب فى الجزء الخاص بعصر دولة المماليك ، وخاصة عصر الملك الناصر محمد ، ذلك لمعاصرته له وتوليه كثيراً من المناصب فى عهده . وقد حدثنا النويرى فى كتابه هذا عن النوبة وعن تاريخها وعن بنى الكنز وعلاقتهم بالدولة المملوكية فى مصر .

٥ ــ كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . والكتاب يقع فى ١٦ جزءاً ، لم يحقق منه إلا الجزء الأول حتى الآن . وتأتى أهمية ماكتبه العمرى لما كان عليه من مكانة سامية فى عهد السلطان الملك الناصر محمد . فقد كان يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات إلى سنة ٧٣٢ هـ ، وكان يساعد والده فى رئاسة ديوان الإنشاء حتى سنة ٧٣٨ هـ . وفى كتابه هذا حدد لنا العمرى طبيعة العلاقة بين بنى الكنز ، فى عهد إمارتهم الثانية ، وبين السلطنة المملوكية فى عهد الملك الناصر محمد .

وأما المصادر المطبوعة فيأتى فى مقدمتها بالنسبة لموضوع البحث :

أولاً ــ كتب الرحلات :

١ ــ ومن أهمها كتاب « البلدان » لليعقوبى ، المتوفى سنة ٢٩٢ هـ والذى أفادنى كثيرا بحديثه عن البجة وعن مواضع الذهب والزمرد فى بلادهم .

٢ ــ كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى ، المتوفى سنة ٣٤٦هـ ــ والمسعودى استقى معلومات كتابه من مشاهداته خلال أسفاره العديده ، فقد كان يكثر خلالها الاستقصاء والبحث فجمع الحقائق التاريخية والجغرافية مالم يسبقه إليه أحد .

وتأتى أهمية كتاب المسعودى بالنسبة لبحثى ، فى أنه كان معاصراً لبشر بن إسحق مؤسس إمارة بنى الكنز الأولى فى وادى العلاقى وأنه تحدث فى إسهاب عن ظروف نشأة هذه الإمارة وقيامها فى أراضى البجة بالصحراء الشرقية .

٣ ــ ويستوى فى الأهمية مع مروج الذهب ، كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل ، الذى عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى وكان معاصراً للمسعودى ومعاصراً لقيام إمارة بنى الكنز الأولى فى وادى العلاقى . وكان ابن حوقل من كبار الرحالة العرب

الذين جابوا الأمصار الإسلامية . واستمر فى تجواله ثلاثين عاماً ، وأمدنا بمعلومات شيقة وهامة عن الشعوب التى زار بلادها . كما أمدنا بمعلومات طيبة عن قبائل البجه وعن ظروف اختلاط قبيلة ربيعة بها وكيفية وصولهم إلى رئاستها .

٤ — ويأتى بعد ذلك كتاب « سفرنامه » لمؤلفه الرحالة الفارسى ناصرى خسرو ، المتوفى سنة ٤٧٦ هـ . وقد جاب ناصرى خسرو كثيراً من البلاد الإسلامية وخاصة الشام وفلسطين ومصر والحجاز ، وأودع كتابه هذا كل ما شاهده فى تلك البلاد . وكانت زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ فى أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، واستمرت هذه الزيارة لمدة ، سنتين استطاع خلالهما التعرف على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمصر فى عهد هذا الخليفة .

هذا وقد زار ناصرى خسرو أسوان وعيذاب وقدّم لنا وصفاً طيباً لهما فى عهد ازدهار إمارة بنى الكنز الأولى .

٥ — وتلى رحلة ناصرى خسرو فى الأهمية « رحلة ابن جبير » ، الذى رحل إلى مصر من الأندلس ثلاث مرات ، ثم أدركته الوفاة بالإسكندرية سنة ٦٠٤ هـ ، أثناء رحلته الثالثة . وقد زار ابن جبير الوجه القبلى فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وسافر من قوص إلى عيذاب بطريق الصحراء ومن عيذاب ركب البحر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج .

وأمدنا ابن جبير بمعلومات هامة عن عيذاب وعن أهميتها بالنسبة للتجارة والحج ، كما أمدنا بمعلومات هامة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مصر زمن صلاح الدين وحدثنا أيضاً عن قبائل البجة فى الصحراء الشرقية وفى ثغر عيذاب .

٦ — ومن الرحالة الذين حدثونا عن حالة مصر السيئة فى عهد السلطان الأيوبى الملك العادل ، الرحالة عبد اللطيف البغدادى ، المتوفى سنة ٦٢٩ هـ والذى وصف لنا الفترة السيئة التى مرت بمصر بين سنتى ٥٩٥ — ٥٩٧ هـ . وأفادنا عن نضوب معادن الذهب والزمرد فى الصحراء الشرقية فى أوائل العهد الأيوبى ، الأمر الذى شجع بنى الكنز على الرحيل من منطقة العلاقى والمجرة إلى بلاد النوبة الشمالية .

٧ — أما الرحالة ابن بطوطة ، المتوفى سنة ٧٧٩ هـ ، فيعتبر من أعظم الرحالة المسلمين ومن أكثرهم طوافاً فى الآفاق . وقد وصف لنا ابن بطوطة فى رحلته ، مشاهداته أثناء

رحلاته الثلاثة وقد أتيح له وصف مشاهداته عن قبائل البجة وعيذاب ، أثناء رحلته الأولى سنة ٧٢٦ هـ ، ورحلته الثانية سنة ٧٤٩ هـ [١] .

ثانياً – المصادر التاريخية المطبوعة :

١ – فمن المصادر الأصلية التى أفدت منها فى بحثى هذا ، كتاب « كنائس وأديرة مصر » المعروف بتاريخ أبو صالح الأرمنى ، المتوفى سنة ٦٠٦ هـ . وقد زار أبو صالح مصر بعد سقوط دولة الفاطميين بقليل وشاهد أديرتها وكنائسها ووقف على أخبار الدولة الفاطمية فى أواخر أيامها عن طريق ما سمعه من الرهبان والقسس وما شاهده هو بنفسه أثناء زياراته . ويعتبر تاريخ أبو صالح أيضاً من أهم مصادر تاريخ النوبة المسيحية وتاريخ علاقتها بالدولة الفاطمية والأيوبية ، كذلك يعتبر من أهم مصادر تاريخ إمارة بنى الكنز الأولى نظراً لأنه كان معاصراً لهذه الإمارة فى أواخر أيامها .

ولما تناولت فى بحثى هذا علاقة بنى الكنز بدولة الأيوبيين كان لزاماً علىّ أن أرجع لأهم مصادر التاريخ الإسلامى المعاصرة للأيوبيين . وأعنى بهؤلاء المؤرخين كل من : ابن الأثير ، وابن شداد ، وأبى شامة ، وابن واصل .

وفى حديثى ، فى الباب الثالث ، عن علاقة بنى الكنز بدولة المماليك اعتمدت على ، مصادر هذا العصر الأصلية المعاصرة ، فرجعت إلى ما كتبه كل من : ابن فضل الله العمرى وابن خلدون ، والقلقشندى ، والمقريزى ، وابن حجر ، والعينى ، وأبى المحاسن ، والسخاوى والسيوطى ، وابن إياس .

ولا يفوتنى أن أشير إلى مؤلفات المقريزى – على وجه التخصيص – الكبيرة منها منها والصغيرة . فقد استفدت منها جميعها ، وفى مقدمتها كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر

(١) خرج ابن بطوطه فى أول رحلة له من بلده طنجة سنة ٧٢٥ هـ واتجه إلى مصر ، ووصل إلى عيذاب فى منتصف شعبان سنة ٧٢٦ هـ قاصداً أداء فريضة الحج لكنه لم يكمل رحلته منها إلى الحجاز وعاد أدراجه إلى قوص ومنها إلى الشام . عاد ابن بطوطة إلى مصر عن طريق الشام سنة ٧٤٩هـ فى رحلته الثانية واتجه إلى عيذاب ونجح فى هذه المرة فى الوصول إلى جده عبر البحر الأحمر ، وأدى فريضة الحج . وقام ابن بطوطة برحلته الثالثة إلى مصر فى أوائل سنة ٧٥٠ هـ وتركها فى نفس العام عائداً إلى بلاده .

الخطط والآثار ، نظراً لأهمية ما جاء به عن بلاد النوبة وقبائل البجه نقلا عن كتاب « أخبار النوبة والمقرّة وعلوه والبجة والنيل » لمؤلفه ابن سليم الأسوانى ، المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . فهذا الكتاب المفقود الذى لم يعثر على نسخة منه بعد ، يعتبر من أهم الكتب التى كتبت عن تاريخ النوبة والبجة . وكان ابن سليم قد كتبه بعد سفارة قام بها إلى بلاد النوبة بتكليف من القائد الفاطمى جوهر الصقلى إلى ملكها جورج الثانى ، واستقى معظم المعلومات التى دوّنها به عن النوبة من سيمون ولى عهد النوبة آنذاك . وقد أهدى ابن سليم هذا الكتاب ، بعد الفراغ منه ، إلى الخليفة الفاطمى العزيز بالله .

وفيما يختص بالباب الرابع ، الذى تحدثت فيه عن مآثر بنى الكنز ، فقد اطلعت على كتاب « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » الذى كتبه عماد الدين الأصفهانى ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . وكتاب الخريدة يحوى تراجم مستفيضة للشعراء ورجال الأدب الذين عاشوا فى أواخر العهد الفاطمى وأوائل عهد الأيوبيين . ومما يجعل لهذه التراجم أهمية خاصة أن الأصفهانى قابل معظم هؤلاء الأدباء والشعراء وأخذ عنهم تاريخ حياتهم وشيئاً كثيراً من أشعارهم ، ويهمنا الجزء الخاص بشعراء مصر .

وكذلك كتاب « الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد » للأدفوى ، المتوفى سنة ٧٤٨هـ . وهذا الكتاب تحدث عن مآثر بعض أمراء بنى الكنز المعاصرين له ، وعن صدى هذه المآثر فى أشعار عدد كبير من الشعراء الذين مدحوا بنى الكنز .

هذا ويجب أن نشير — ونحن فى صدد حديثنا عن المراجع الحديثة التى أفدت منها فى بحثى — إلى ما كتبه المستشرقون عن بلاد النوبة والسودان عموماً ، وأشاروا خلال كتاباتهم عن هذه البلاد إلى تاريخ بنى الكنز . ويأتى فى مقدمة هؤلاء المستشرق ماك مايكل : Mac Michael, H. A., الذى قدم لنا أهم الكتب الحديثة التى كتبت عن تاريخ السودان وهو كتاب :

— تاريخ العرب فى السودان

A History of the Arabs in the Sudan

وأهمية هذا الكتاب مستمدة من أن مؤلفه استقى معلوماته من كتب الأنساب التى وجدها فى السودان وبلاد النوبة ، ذلك لأن ماك مايكل عاش فى السودان مدة طويلة كان

يشغل خلالها وظيفة حكومية هامة سهلت له الاطلاع على المصادر النـادرة ويسرت له الاتصال بكبار رجال القبائل الذين زودوه بأهم المعلومات عن تاريخ النوبة والسودان . هذا فضلا عما قام به ماك مايكل من دراسة دقيقة لمصادر التاريخ الإسلامى متبعاً فى هذه الدراسة أدق أساليب البحث العلمى .

ويأتى بعد ماك مايكل فى الأهمية كل من : آركل Arkell ، وبدج Budge ، وهاميلتون Hamilton ، وبول Paul وكترمير ,Quatremére ، فقد انصبت دراساتهم بصفة أصلية على ميدان البحث .

وأما عن المراجع العربية الحديثة التى استفدت منها فى دراستى هذه ، فيأتى على رأسها ما كتبه السادة الأساتذة الأفاضل : نعوم شقير ، والدكتور محمد عوض محمد ، والدكتور مصطفى محمد مسعد .

الباب الأول

بنو الكنز وسياستهم فى إقامة دولتهم

١ – الهجرات العربية إلى مصر .

٢ – قبيلة ربيعة وهجرتها إلى مصر .

٣ – اختلاط ربيعة بقبائل البجة .

٤ – إمارة ربيعة الأولى فى وادى العلاقى .

١ – الهجرات العربية إلى مصر

عرف العرب منذ القدم ، الطريق إلى مصر وإلى وادى النيل طلباً للتجارة عبر مسالك سيناء ودروبها ، أو عبر البحر الأحمر . كما تسببت الأحوال الاقتصادية السيئة التى تعرضت لها شبه جزيرة العرب من وقت لآخر طوال حقب التاريخ المختلفة ، فى دفع أعداد من سكانها على الهجرة إلى وادى النيل سالكين الطرق ذاتها . وقد تمت هذه الهجرات بأعداد متفاوته وعلى مراحل متباعدة عبر القرون . غير أن هذه الهجرات التى ترجع إلى عصور التاريخ القديمة لم يترتب عليها تغيير جذرى فى تكوين شعب وادى النيل مثلما حدث بعد الفتح العربى لمصر . ويكفى – فى هذا المجال – أن نشير إلى ما تمخض عنه هذا التغير الجذرى من تعريب مصر واعتناق الغالبية الغالبة من أهلها الإسلام .

فبعد أن تم للعرب فتح مصر سنة ٢٠ هـ ، استقرت القوات الفاتحة فيها ، كما تلتها قوات أخرى بعد الفتح [١]. وكان الجند العرب الذين استقروا فى مصر عقب الفتح ينتسبون إلى قبائل مختلفة ، قحطانية وعدنانية . هذا ويتعذر على الباحث معرفة أسماء القبائل العربية التى ينتسب إليها هؤلاء الجند الذين اشتركوا فى فتح مصر ، وذلك نظراً لاختلاف الروايات بين من أرّخ للفتح من المؤرخين العرب [٢] . غير أن الباحث يمكنه أن يخرج –على الرغم من هذا الاختلاف فى الروايات – بحقيقة هامة ، وهى أن معظم القبائل التى اشتركت فى الفتح أو هاجرت إلى مصر فى أعقابه ، كانت قبائل ،

---

(١) كان عدد قوات حملة عمرو الأولى يتراوح ما بين ٣٥٠٠، ٤٠٠٠ رجل ولحقت بهم بعد ذلك قوة بقيادة الزبير بن العوام قوامها ٤٠٠٠ رجل ، وإن كان هناك من يذكر أنها ١٢,٠٠٠ رجل (ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، نشر تشارلزتورى ، ليدن ١٩٢٠ ، ص ٥٦).

(٢) يقول ماكايكل فى كتابه (A History of the Arabs in the Sudan, ed New York 1967, Vol., P. 152. أن أول من كتب عن الفتح العربى لمصر كانوا كتاباً من الأقباط ، وأن العرب لم يكتبوا عن الفتح إلا فى القرن الثالث الهجرى ولم يعتمدوا فى كتاباتهم على ما كتبه الأقباط وذلك لشكهم فى هذه الكتابات . وأن كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح البلدان للبلاذرى هما السجلان الوحيدان القديمان عن الحملة ، وأن هذين السجلين يختلفان بعض الاختلاف فى ذكر أسماء وأعداد القبائل التى اشتركت فى الحملة . وبرغم هذا الاختلاف فقد اعتمد المقريزى عليهما فى كتابه « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » الذى يعالج موضوع القبائل العربية فى مصر .

قحطانية [1] . ويأتى على رأس هذه القبائل :

١ ــ **قبيلة بلى :** وكانت فى الجاهلية تستقر بالشام وجاءت إلى مصر وقت الفتح بأمر الخليفة عمر بن الخطاب [2] وعند مقدمهم إلى مصر حدث خلاف كبير بينهم وبين أقربائهم من جهينة ، وتم أخيراً الاتفاق بينهما على أن تستقر بلى فى منطقة ميناء عيذاب على البحر الأحمر .

٢ ــ **جهينة :** قبل أن تهاجر جهينة إلى أفريقية ، كانت تسكن الحجاز جنوبى ينبع . وكان رجالها من أوائل البدو الذين دخلوا فى الإسلام وأوائل من هاجروا إلى مصر واستقروا فى أعالى الصعيد [3] .

٣ ــ **عك :** وبلادهم تهامة اليمن جنوبى الجزيرة العربية . اشتركوا فى فتح مصر وكانوا يمثلون جزءاً كبيراً من جيش عمرو بن العاص [4] .

٤ ــ **همدان :** كانت تسكن مكة وشهدت فتح مصر وبذل رجالها جهداً كبيراً فى فتح حصن بابليون [5]

٥ ــ **كنده :** كانت قبل الإسلام تسكن غربى حضرموت وشهد عدد كبير منها فتح مصر [6].

٦ ــ **لخم :** كانت قبائل منها تقيم عند العريش وقت أن سار عمرو إلى مصر ، وانضمت أعداد منها إلى جيشه ودخلت معه مصر واستقرت فيها بعد الفتح [7] .

وهناك أسماء قبائل أخرى قحطانية دخلت مصر مع الفتح ، من بينها : الأزد ،

---

(١) عن عرب الجنوب وأشهر قبائلهم انظر : البكرى ، معجم ما استعجم ، نشر مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥ ص ١٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، نشر هنرى ماسيه ، ليدن ١٩٢٠ ، ص ١١١ .

(٣) المقريزى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، نشر عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٢ .

(٤) ابن عبد الحكم : نفس المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٥) ابن عبد الحكم : نفس المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٦) الكندى : ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ٧٠ .

(٧) ابن عبد الحكم : نفس المصدر السابق ، ص ٥٨ .

جذام . خولان ، تنوخ ، مذحج ، وكندة [١] .

ونركز استقرار هذه القبائل بعد الفتح فى منطقة الحوف الشرقى ، فى بلاد : أهناس طحا . وسيم ، ببا ، بوصير ، أتريب ، طربيه ، وقربيط . هذا فضلا عن استقرار البعض منها فى بلاد أخرى مثل : منف ، منوف ، ببا ، عين شمس ، الفيوم ، البهنسا القيس . سخا ، وخربتا [٢] .

وتشير الروايات إلى أن أعداد قليلة من القبائل العدنانية اشتركت فى حملات الفتح [٣] ، وكانت من قريش أهم بطون كنانة ، وخاصة من بنى مخزوم وبنى أمية [٤] . كذلك اشتركت أعداد من فهم وعدوان [٥] . وازدادت أعداد القبائل العدنانية القادمة إلى مصر فى العهد الأموى ، ابتداء من عهد عبد العزيز بن مروان الذى استقدم سنة ٦٥ هـ أعداداً كبيرة منها [٦] .

كذلك نقلت أعداد من القبائل القيسية إلى مصر فى عهد ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى على مصر (١٠٩ ط ١١١ هـ) [٧] من قبل أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك . وكان ذلك حين وفد عبيدالله بن الحبحاب — متولى خراج مصر — على هشام وسأله أن ينقل إلى مصر أبياتاً منها . فأذن له الخليفة فى إلحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر على ألا ينزلهم الفسطاط . فقدم ابن الحبحاب بألف وخمسمائة بيت وأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه . وقد تم هذا فى فترات تقع ما بين أعوام ١٠٩ و ١١٤ هـ [٨] . واكتمل العدد الذى

---

(١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر السابق ، ص ١٠٨ — ١٣٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) عن القبائل العدنانية وبطونها انظر : محمد الخضرى : محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ، القاهرة ١٩٢٢ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٣٣٠ .

(٥) الكندى : ولاة مصر ، ص ٩٨ .

(٦) الكندى : ولاة مصر ، ص ٦٩ .

(٧) تولى الوليد بن رفاعة الفهمى على مصر من سنة ١٠٩ — ١١١هـ ، وتوفى سنة ١١٧ هـ (زامباور معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة وتحقيق : زكى حسن وحسن أحمد محمود ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٣٨ .

(٨) مات هشام وببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس — انظر : الكندى ، ولاة مصر ص ٦٨ .

أمر به الخليفة هشام سنة ١٣١ هـ فى عهد ولاية الحوثرة بن سهيل الباهلى ، من قبل الخليفة مروان بن محمد . ويوم أن مات مروان كان فى الحوف ثلاثة آلاف أسرة من قيس كانت غالبيتها من فزارة وبنى هلال وبنى سليم ومضر وهوازن [١] .

ولم يستمر استقرار هذه القبائل فى الحوف الشرقى ، فقد تحركت أعداد منها واتجهت إلى صعيد مصر . وجاوز بعضها الصعيد إلى بلاد النوبة ، كما واصل البعض الآخر المسيرة إلى السودان ؛ وكان ذلك نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية تعرضت لها مصر . وقد تمثلت هذه العوامل فى إلزام العرب بدفع الخراج عن الأرض الزراعية التى سمح لهم فى العهد الأموى بملكيتها وزراعتها ، ثم ازدياد حصة هذا الخراج فى العهد العباسى وتعنت الولاة فى جمعه ؛ الأمر الذى دفع عرب الحوف إلى الثورة لرفع الغبن عنهم . فثار عرب الحوف سنة ١٦٨ هـ فى عهد الخليفة المهدى ، ضد الوالى موسى بن مصعب الخثعمى ، لتشدده معهم فى جباية الخراج . كذلك ثاروا عدة مرات فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، فى سنة ١٧٨ هـ أيام ولاية إسحاق بن سليمان ، وفى سنة ١٨٢ هـ أيام ولاية الليث بن الفضل ، وفى سنة ١٩٠ هـ أيام ولاية الحسين بن جميل . وثاروا أيضاً فى عهد الخليفة المأمون ، فى سنة ٢١٢ هـ أيام ولاية عيسى بن يزيد الجلودى ، وفى سنة ٢١٦ هـ أيام ولاية عيسى بن منصور [٢] .

ولم تنجح كل هذه الثورات فى تحقيق أغراضها ، بل إنها زادت من تعنت الولاة مع العرب . لذا لم يكن أمام العرب إلا أن يهجروا أرض الحوف ويبحثوا لهم عن مورد آخر للرزق، فاتجهت أعداد كبيرة منهم إلى الصعيد وإلى الصحراء الشرقية بحثاً عن المعادن .

وازداد انتشار هذه القبائل فى صعيد مصر وازداد اختلاطها بأهالى البلاد المصريين فى عهد الخليفة المعتصم بالله العباسى (٢١٨ – ٢٢٧هـ) بسبب قراره الخاص بإسقاط العرب من الديوان ، وحرمانهم من العطاء المقرر لهم ولأسرهم ، والذى نفذه فى مصر واليه كيدر بن نصر الصفدى [٣] . ونتيجة لهذا القرار فقد العرب مورد رزقهم فانتشروا فى

---

(١) الكندى : نفس المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٢) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٢٥٣ – ٢٥٦ .

(٣) كانت ولاية كيدر على مصر من سنة ٢١٧ حتى سنة ٢١٩ هـ (سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٨٢ .

أنحاء مصر يسعون وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب : فاحترفوا ، الزراعة والتجارة وغيرها من الحرف التى كان العربى يترفع عن العمل بها . وأدى ذلك إلى اختلاطهم بالمصريين ونشر الإسلام بينهم ومصاهرتهم ، وأدى اعتناق المصريين للإسلام إلى اندماجهم التام مع العرب وإلى تعريب بلادهم [1] .

---

(١) يقول المقريزى (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، جـ ١ ، ص ٨١):
« إن العرب منذ أن نزلوا ريف مصر واستوطنوا فيه هم وأهاليهم اتخذوا الزرع معاشاً وكسباً واختلطوا بالأقباط وتزوجوا من بناتهم فانقاد الرجال من الأقباط إلى إظهار الإسلام ليتزوجوا من المسلمات، فاختلطت بذلك أنسابهم بأنساب المسلمين » .

٢ ـ قبيلة ربيعة وهجرتها إلى مصر

وقبيلة ربيعة واحدة من هذه القبائل التى هاجرت إلى مصر وشقت طريقها إلى منطقة وادى حوف بالصحراء الشرقية ، ثم اتجهت بعد ذلك إلى وادى العلاّقى جنوبى هذه الصحراء . وتعد هذه القبيلة من أكبر القبائل العدنانية ؛ فهى تنتسب مع قبائل مضر ، وأنمار ، وإياد ، إلى نزار بن معد بن عدنان (١) .

وكانت مساكن ربيعة الأولى تمتد من مرتفعات نجد من مهبط الجبل إلى الغور من تهامه (٢) ومن بطونها : أسد ، وتغلب ، وشيبان ، وحنيفة ، وعنزة ، ولجيم ، وعبد القيس والنمر ، وزحل ، وبنى يونس (٣) .

وقد ظلت هذه البطون تقيم فى بلادها حتى وقعت الحرب بينها بسبب مقتل « جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان كلب بن ربيعة » ، وهى الحرب التى استمرت بينهم فترة طويلة انتهت بانتصار بكر على تغلب ، فى واقعة يوم التحالق (٤) .

وبسبب هذه الحرب تشتتت بطون ربيعة وانتشرت فى البلاد (٥) . فانتشرت بكر بن وائل وعنزة وضبيعة فى اليمامة ؛ فيما بينها وبين البحرين إلى أطراف سواد العراق ، واتجهت تغلب من نجد إلى إقليم الجزيرة فى الشمال الغربى . وسارت عبد القيس مع بكر من تهامة شرقاً إلى البحرين ، هذا وكانت قبيلة ربيعة تعتنق المسيحية حتى مطلع القرن السابع

---

(١) تنسب قبيلة ربيعة إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وكان يعرف بربيعة الفرس . (ابن عبد ربه : العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٥٣ ، جـ ٢٣ ، ص ٢٥٧ – البكرى : معجم ما استعجم ، جـ ١ ، ص ٥) .

(٢) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، طبعة دمشق ١٩٤٩ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

(٣) ابن الحنبلى : الآثار الرفيعة فى مآثر بنى ربيعة ، مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ، رقم ٢ ، ورقة ٢ ، ٣ .

– ابن أبكار الأرمنى : نهاية الأرب فى أخبار العرب ، مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٤٩٠ ح ، ورقة ١

(٤) يقول البكرى عن ربيعة (معجم ما استعجم ، جـ ١ ، ص ٨٥) : « ولم تزل (الحرب) تنقلهم من بلد إلى بلد وتنفيهم من أرض إلى أرض ، وفى النهاية انتصرت بكر على تغلب فى واقعة يوم التحالق » .

(٥) ابن الحنبلى : نفس المصدر ، ورقة ٤ .

الميلادى ثم تحولت بعد ذلك إلى الإسلام [١] .

وجاءت أعداد قليلة من بطون ربيعة إلى مصر ، ضمن الجيش العربى الفاتح ، كما تلاهم فى القدوم إلى مصر إخوة لهم فى أعقاب الفتح . غير أن هجرة بنى ربيعة إلى مصر فى أعداد كبيرة لم تحدث إلا فى عهد الدولة العباسية. فإن ابن عبد الحكم يذكر أنه كان لعنزة — وهى إحدى بطون ربيعة — بفسطاط مصر نحو من عشر دور مجتمعة ، ومسجد فى أصل العقبة عند دار ابن صامت [٢] .

ثم تمضى فترة طويلة لا تحدثنا فيها المراجع عن قبيلة ربيعة إلى أن تأتى سنة ٢٠٧ هـ . فى هذه السنة يحدثنا الكندى عن مجىء جيش من بطن بنى شيبان من ربيعة مع خالد ابن يزيد الشيبانى . الذى ولاه الخليفة المأمون ولاية مصر سنة ٢٠٦ هـ ، وبعثه على رأس هذا الجيش من ربيعة ومن انضم إليه من جماعات أخرى ليقضى على عبيد الله بن السرى . والى مصر [٣] . وكان الجند فى مصر قد بايعوا ابن السرّى بالولاية (يوم الثلاثاء التاسع من شعبان سنة ٢٠ هـ) دون الرجوع إلى الخليفة [٤] . وجرت حروب بين قوات خالد من ربيعة وقوات ابن السرّى ، انتهت بهزيمة قوات ربيعة ووقوع خالد أسيراً فى يد القوات المنتصرة (٥ شوال سنة ٢٠٧ هـ) . إلا أن ابن السرّى عفى عن خالد ، وعوضه عما فقده ، وخيره بين المقام عنده أو الذهاب أنىّ شاء . فاختار خالد الرحيل وركب البحر من القلزم إلى مكة . وأما جنده من بنى ربيعة فقد آثروا البقاء فى مصر وطاب لهم المقام بها [٥] .

وفى خلافة المتوكل على الله العباسى ، وعلى وجه التحديد سنة ٢٣٨ هـ ، هاجرت أعداد كبيرة من ربيعة ، من بنى حنيفة وبنى يونس ، ومعهما أعداد من مضر بعيالهم

---

(١) — Mac Michael: A History of the Arabs in the Sudan, Vol. I, P. 148.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٣) ولى عبيد الله بن السرى مصر من سنة ٢٠٦ هـ إلى سنة ٢١١ هـ (٨٢١ —٨٢٦ م) (سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ٣٨٠) .

(٤) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٩٨ .

(٥) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٩ — ٢٠١ .

— المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

وذريتهم من اليمامة إلى مصر [١]. وكان ذلك بسبب نزول بنى الأخيضر بها [٢]. ونزلت أعداد بنى حنيفة وادى العلاقى، فى الصحراء الشرقية بين النيل وبحر القلزم، وابتنوا هنالك أكثر من بلدة لهم. واستقر بنو يونس فى ثغر عيذاب [٣]. كما نزلت جماعة أخرى من بنى حنيفة بأسوان. وابتنوا لهم بظاهرها بلدة أخرى عرفت بالمحدثه [٤].

• • •

---

(١) يذكر اليعقوبى (البلدان، طبعة ليدن ١٨٩١، ص ٣٣٤) أن هجرة ربيعة الكبرى إلى مصر كانت سنة ٢٣٨ هـ.

- وابن حوقل (صورة الأرض، نشر كرامرز، ليدن ١٩٣٨، ص ٥٣) يذكر نفس تاريخ اليعقوبى.
- بينما يذكر المقريزى (البيان والأعراب) أن هجرة ربيعة الكبرى كانت فى أعوام بضع وأربعين ومائتين.
- ونحن نرجح رأى اليعقوبى وابن حوقل لقرب عهدهما للأحداث التى ذكروها.

(٢) بنو الأخيضر نسبة إلى محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب، الذى نجح فى أن يقيم باليمامة دولة علوية عرفت باسم دولة بنى الأخيضر، استقل بها عن الخلافة العباسية، ولم يزل بنو الأخيضر يتولون الملك باليمامة حتى طمع قرامطة البحرين فى بسط سلطانهم على جزيرة العرب، فتغلبوا على اليمامة فى أوائل القرن الرابع الهجرى، وبذلك زالت دولة بنى الأخيضر (محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧، ص ٥٥، ٥٦).

(٣) المقريزى: البيان والإعراب، ص ٤٤ (يقول المقريزى إن بنى يونس وهم بطن من ربيعة ظلوا فى ثغر عيذاب حتى طردهم منه بنو حنيفة فى مطلع القرن الرابع الهجرى، ومن ثم رحل بنو يونس من الثغر إلى الحجاز).

(٤) يقول ابن حوقل (صورة الأرض، ص ٣١، ٥٤) «كانت اليمامة قرارا لربيعة ومضر، فلما نزل عليها بنو الأخيضر حلت العرب منها إلى جزيرة مصر فسكنوا بين النيل والقلزم، وقرت ربيعة ومضر هناك وصارت لهم ولتميم كالدار التى لم يزالوا بها، وابتنوا بها غير منبر كالمحدثة التى بظاهر أسوان»، ويضيف ابن حوقل تعريفاً لهذه المحدثة بقوله «وهى المدينة التى لربيعة محاذة لأسوان».

٣ - اختلاط ربيعة بقبائل البجة

البجة قبائل حامية كانت تسكن الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر [١] ، وقد عرفها المؤرخون المسلمون الأول وتحدثوا عنها . فاليعقوبى يذكر أن للبجة عدة ممالك لكل مملكة منها ملك مستقل ، وأن أول هذه الممالك من جهة مصر تبدأ من حد أسوان إلى حد بركات ، وأن شعبها من الجنس الذى يقال له نقيس . وعاصمة هذه المملكة بلدة هجر . ويضيف اليعقوبى أن للبجة بطوناً وقبائل كما تكون للعرب ، ومن هذه البطون : الحدرات . وحجاب . والعماثر ، وكرفر ، ومناسه . ورسغه ، وعريربعه ، والزنافج [٢] .

ويذكر الأصطخرى أن بوادى العلاقى خلقاً كثيراً من البجة ، وأنه مجتمع أهلها ومقصد التجار منها . وإلى هذا الوادى يند أهل الصعيد وسائر البجة ، وهو لهم كالقرية الجامعة [٣] .

ويحدد المقريزى أول بلاد البجة بقرية تعرف بالخربة ، وهى معدن الزمرد فى صحراء قوص ، وآخر بلادهم أول بلاد الحبشة [٤] .

وينتمى هؤلاء البجه إلى جماعات حامية سكنت الصحراء الشرقية من قديم الزمن . وتم اختلاطها على مراحل طويلة مع جماعات عربية من قبيلة بلى ، كانت قد هاجرت إلى

---

(١) تمتد أوطان البجة الحالية من محافظة أسوان فى الشمال إلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة فى الجنوب ، ومن البحر الأحمر فى الشرق إلى النيل ونهر عطبرة . وهم ينقسمون فى الوقت الحاضر إلى أربع قبائل كبيرة هى : البشاريون فى الشمال ، يليهم جنوباً الأمرار ، ثم الهدندوة ، ثم بنو عامر . وتوجد بالإضافة إلى ذلك قبائل صغيرة مثل . الأشراف والأرتيقا ، الحالنقا ، وغيرهم وكلهم يدينون بالإسلام ، ولم يبق من يتسمى الآن بالبجة إلا طائفة صغيرة محتقرة فى الصحراء الشرقية فى بنى عامر (نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، القاهرة ١٩٠٣ ، جـ ٢ ، ص ٦٧) .

- محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢٦ - ٢٦ - ٢٧) .

(٢) تاريخ اليعقوبى : طبعة بيروت ١٩٦٠ ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .

(٣) مسالك الممالك : نشردى خويه ، ليدن ١٩٣٧ ، ص ٥٤ .

(٤) الخطط ، نشر جاستون فييت ، القاهرة ١٩٢٢ ، الجزء الثالث ، القسم الثانى ص ٢٦٧ .

تلك المنطقة . واستطاعت هذه الجماعات العربية المهاجرة ، التى أصبحت تعرف باسم البليميين أو البليين ، أن تسيطر على البجة وأن تتبوأ مركز الزعامة فيهم[١] .

ومن عادات البجة أنهم لا يورثون البنات ، إنما يورثون ابن الأخت وابن البنت دون ولد الصلب[٢] . وقد ذكر ذلك عنهم ابن بطوطة ، الرحالة العربى ، الذى مر ببلادهم أثناء رحلته الأولى فى سنة ٧٢٦ هـ ورحلته الثانية سنة ٧٤٩ . فهم يقولون « إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح وأن يكون من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال[٣] » — ومن ثم فإن شأن الفتى يعلو عندهم بعلو شأن خاله[٤] .

وذكر المقريزى الشىء الكثير عن حياة البجة وعن عاداتهم وتقاليدهم ، وذكر أيضاً أنهم كانوا يقومون بنقل الحجاج من ثغر عيذاب إلى مكة المكرمة عبر البحر الأحمر[٥] وأنهم كانوا يستخدمون فى ذلك (الجلاب) التى كانوا يصنعونها بأيديهم[٦] .

ولبلاد البجة أهمية كبرى نظراً لوجود المعادن بأرضها وخاصة معدن الذهب ؛ فضلا عن وجود الأحجار الكريمة بها ، وخاصة أحجار الزمرد[٧] .

هذا عن البجة . أما عن علاقتهم بالعرب ، فلقد هاجر العرب إلى بلادهم قبل الإسلام وبعده ؛ غير أن هجرتهم إليها بعد الإسلام كانت أعم وأشمل . والأمر الذى

---

(١) الراجح أن هؤلاء البلميين طبقة أرستقراطية عربية استطاعت بما لديها من خبرات آلية وصفات حربية ممتازة أن تسيطر على مجموعة كبيرة من البجة الشماليين مدة ثمانية قرون على الأقل وأن تستعين بهم على تحقيق مصالحها الاقتصادية والحربية التوسعية زمن البطالمة والرومان . ولما تخلخل سلطان هذه الطبقة الحاكمة فى القرن السادس الميلادى عاد اسم البجة القديم إلى هذه القبائل وبه عرفوا فيما بعد (مصطفى محمد مسعد : البجه والعرب فى العصور الوسطى ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ٢١ — العدد الثانى — ديسمبر ١٩٥٩ ، ص ٧)

(٢) يقول ابن حوقل (صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ٥٧) « ومن سنة جميع السودان إذا هلك الملك أن يقعد ابن أخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل » .

(٣) رحلة ابن بطوطة ، طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

(٤) محمد عوض محمد ، السودان الشمالى ، ص ٤٤ .

(٥) الخطط ، نشر فييت ، القسم الثانى — الجزء الثالث ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٦) الجلاب ومفردها جلبة ، وهى سفن صغيرة كان يستخدمها البجة فى نقل الحجاج من ميناء عيذاب إلى ميناء جدة عبر البحر الأحمر ، ولقد وصف لنا الرحالة ابن جبير طريقة عمل هذه الجلاب ، ولمعرفة هذه الطريقة انظر : رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٦٨ .

(٧) سنورد الكلام عن معادن البجة فى والباب الرابع من هذا البحث .

لا شك فيه هو أن عرب ربيعه وغيرهم من النازحين من الجزيرة العربية إلى تلك البلاد بعد الإسلام قد استفادوا من خبرات من سبقهم إليها ، وبمعرفتهم بأحوالها وبمعالمها وبأخلاق أهلها .

فقد كانت قبيلة بلى اليمنية مختلطة بالبجة أيام حكم البطالمة لمصر ، وكان البطالمة يعتمدون عليها فى مشروعاتهم التجارية عبر البحر الأحمر . كما كان رجالها يقومون ، بنقل المتاجر من شاطئه الأسيوى إلى شاطئه الأفريقى ويحمون التجارة من غارات قبائل البجه . ويبدو أن أعدادا من قبيلة بلى تركت الاشتغال بالتجارة وآثرت الاستقرار فى بلاد البجه ، ثم اختلطوا بأهلها وتصاهروا معهم . كما استفادوا من نظام الوراثة عند البجة كما أسلفنا ، وكونوا من أنفسهم طبقة حاكمة لهم . وكان عرب بلى من القوة والكثرة العددية بمكانة حتى أن اسمهم غدا فى لغة البجة الأصلية (التبداوية) مرادفاً للفظ عرب أو عربى [١] .

ومما يدل على أن هناك انتقالات من بلاد العرب إلى مصر قبل الإسلام ، تلك الأخبار التى وردت فى القصص العربى القديم ، عن قيام الحميريين بحملات عسكرية فى وادى النيل الأوسط وشمال أفريقية . وأن هذه الحملات تركت وراءها جماعات استقرت فى بلاد النوبة وأوطان البجة وشمال أفريقية [٢] .

كذلك تلك الرواية التى أوردها ابن خلدون عن حملة قادها «أبرهة ذى المنار ابن ذى القرنين الحميرى» على السودان وبلاد النوبة ، حوالى أوائل القرن الأول ، الميلادى [٣] .

وهنالك أيضاً رواية تحكى قصة حملة أرسلت إلى بلاد البجة فى القرن الأول الميلادى بقيادة رجل يدعى «أبو مالك» ، ذكر بأنه آخر الملوك الحميريين وأن هذه الحملة جاءت للبحث عن الزمرد فى صحراء البجة ، ولكن أفرادها ماتوا عطشاً بعد أن ضلوا الطريق فى الصحراء [٤] .

---

(١) مصطفى مسعد : البجة فى العصور الوسطى ، ص ١٣ (نقلا عن ابن خلدون) .

(٢) مصطفى مسعد : البجة والعرب فى العصور الوسطى ، ص ١١ .

(٣) مصطفى مسعد : نفس المصدر السابق ، ص ١١ (نقلا عن ابن خلدون) .

(٤) — Mac Michael: Op. Cit., Vol. I, P. 9;

(يذكر ماكمايكل أن أبا مالك هذا ولد سنة ٣١ م وأن اسمه بالكامل هو : أبو مالك بن شمس برعش الحميرى .

أما عن علاقة العرب بالبجة بعد الإسلام ، فمن الثابت أن جماعة من عرب هوازن عبرت البحر الأحمر فى أعقاب فتح مصر واستقرت فى أرض البجة وعرفوا هنالك باسم « الحلانقة » وأن هؤلاء الحلانقة أول من استقر من العرب المسلمين فى الوطن البجاوى [١] . وتلت هذه الجماعة جماعة أخرى قدمت من حضرموت أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى ، سنة ٧٣هـ [٢]. واستقرت هذه الجماعة بين البجة وأصبحت جزءاً منهم وعرفت باسم « الحداربة » [٣]. أو « الحدارب » [٤].

كما أن جماعات من الأمويين لجأت إلى بلاد البجة فى منتصف القرن الثانى الهجرى هرباً من مذابح العباسيين ، واستقر عدد منهم فى ميناء باضع (جزيرة الريح) [٥] .

وعلى الرغم من استقرار بعض جماعات من العرب فى أرض البجة بعد الفتح العربى لمصر ، فإن علاقة البجة بولاة مصر الإسلامية كانت تتسم بالعداء . ذلك لأن

---

(١) المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، القسم الثانى ، الجزء الثالث ، ص ٢٧ .

(٢) — Mac Michael: Op. Cit., Vol., II, P. 105.

يعتمد ماكمايكل فى إيراد ذلك على ما وجده فى كتاب النسبة الذى يمتلكه « الشيخ إسحق محمد شداد » وهو من أهالى كردفان ، نقلا عن كتاب النسبة الذى كتبه « الشيخ عودة شكل الكارح » الذى عاش قرب دنقله فى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م) ونقله عن كتاب السمرقندى. وهو يقول : « سمعت من الشيخ عبد الله بن الوزير الحضرمى أن الحداربة جاءوا من حضرموت وهاجروا وتركوا ديارهم أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى ، وأنهم استقروا مع البجة حتى أصبحوا جزءاً منهم » .

(٣) تحدث القلقشندى عن الحداربة فى كتاب (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب ١٩١٥ ، جـ ٥ ، ص ٢٧٣) . وذكر أنهم عرب كانوا يملكون ميناء سواكن ، وكان لرئيسهم مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

كذلك أورد المقريزى فى كتاب خططه (نشر فييت ، الجزء الثالث — القسم الثانى ، ص ٢٧٢) أنهم شوكة القوم فى أرض المعدن ووجوههم ، وأنهم يرأسون من لم يسلم من البجة .

(٤) يقول الشيخ أحمد بن الفقى معروف فى كتاب النسبة الذى كتبه سنة ١٢٧٧ هـ : « لقد أخبرنى سيدى عبد الله بو عزيز الحضرمى ، أن الحدارب جاءوا من حضرموت وهاجروا إلى السودان أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى وأنهم استقروا عند ميناء سواكن ، وذكر أنهم كانوا يسمون الحضارم ولكنهم قلبوا الضاد دالا والميم باءا فأصبحوا يسمون الحدارب . (Mac Michael. Op. Cit., Vol. II, P. 349).

(٥) المسعودى : التنبيه والإشراف ، نشر دى خويه ، ليدن ١٨٩٧ ، ص ٣٠

— Bloss, J. F. E.,: The Story of Suakin, S.N.R., XIX, II, 1936, P. 279.

يذكر بلوس فى مقاله أنه عثر فى ميناء باضع على مقابر للأمويين أثناء قيامه بحفريات هنالك) .

البجة بطبيعتها الصحراوية الجافة كانت عنصراً من عناصر التمرد ضد مصر . فكثير ما كانت تغير على جنوب البلاد وتقوم بالنهب والإفساد ؛ الأمر الذى أدى إلى أن يجرد إليهم ولاة مصر الحملات لردعهم [١] .

هذا وقد اشترك بنو ربيعة فى إحدى هذه الحملات بأعداد كبيرة ، وكان اشتراكهم فيها فرصة لهم استغلوها فى الوصول إلى بلاد البجة والاستقرار فيها .

وقاد هذه الحملة « عبد الله بن الجهم » سنة ٢١٦ هـ ، بأمر الخليفة المأمون لتأديب البجة بسبب هجومهم على أسوان . وبعد أن نجحت هذه الحملة فى مهمتها عقد ابن الجهم مع « كنون بن عبد العزيز » رئيس البجة معاهدة تعهد فيها بوقف غاراتهم على جنوب البلاد . وتعهد أيضاً بالسماح للعرب بالعمل فى المناجم على أن يقاسم البجة من يعملون فى المعادن ما يحصلون عليه ، بشرط أن يؤدوا إلى عامل مصر عن معادنهم فى كل عام أربعمائة مثقال تبر [٢] .

وآثر بنو ربيعة الذين اشتركوا فى الحملة البقاء فى العلاقى والعمل فى مناجم الذهب الذى بهرهم بريقه . وفى سنة ٢٣٨ هـ لحقت بهم أعداد كبيرة من إخوانهم من سكان اليمامة ، ومعهم جماعات من عرب جهينة [٣] .

وفى نفس هذا العام رفض البجه دفع الجزية المقررة عليهم ، وهاجموا الصعيد عند مدينتى إسنا وإدفو ونهبوهما وطردوا أهلهما منهما . فكتب بذلك « عنبسة بن إسحق الضبي » والى مصر آنذاك [٤] ، إلى الخليفة المتوكل على الله العباسى — ولما تفاقم

---

(١) فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥–١٢٥هـ) أغارت البجة على جنوب البلاد ، فأرسل هشام لحربهم «عبيد الله الحبحاب السلولى» الذى انتصر عليهم وعقد هدنة معهم (عن هذه الحملة وشروط الهدنة – انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٨٩) .

– وفى سنة ٢٠٤ هـ عاودت البجة الهجوم على أسوان وقفط فسيرت إليهم حملة بقيادة « الحكم النابغى » انتصرت عليهم (عن هذه الحملة – انظر : ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٥١ ، ٥٢) .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، (مخطوطة) مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٧ ، جـ٤ ، ورقة ١٨١ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٥٣ .

(٤) ولى عنبسه بن إسحق مصر ، سنة ٢٣٨ هـ حتى سنة ٢٤٢هـ ، وكان آخر الولاة العرب على مصر . (سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ٣٨٤) .

أمرهم وزاد ضررهم على أهل الصعيد أرسل الخليفة إليهم حملة كبيرة بقيادة « عبدالله القمى » ، والى أسوان وقفط وإسنا فى ذلك الوقت . وكان عدد قوات القمى عشرين ألف رجل ، وانضم إليها ثلاثة آلاف رجل أخرى من العرب العاملين فى المعادن من ربيعة ومضر واليمن ، من كل بطن ألف رجل [١] . وكان عدد قوات البجة مائتى ألف رجل ، وكان معها ثمانون ألف نجيب [٢] .

واستطاع القمى ، باستخدامه الحيلة ، أن يوقع الهزيمة بقوات البجة وأن يقتل أعداداً كبيرة منها [٣] ، وقتل فى المعركة كبيرهم « على بابا » ، فبعث ابن أخته ، الذى حل محله ، بطلب الهدنة والصلح على أن يدفع الخراج عن المدة التى فاتته وأن ينتظم فى دفع الإتاوة والبقط مستقبلا [٤] . فصالحهم القمى بعد أن أدى كبيرهم خراج أربع سنين ، وبعد أن قبل شرطه بأن يطأ بساط أمير المؤمنين ، وسار إلى بغداد وقدم على الخليفة المتوكل على الله بسامرا سنة ٢٤١ هـ ، فصولح على أداء الإتاوة والبقط ، وأشترط على البجه ألا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن [٥] .

وولّى الخليفة المتوكل سعد الخادم الإيتاخى على بلاد البجة ، وقد استناب سعد بدوره القمى عليها . وقام القمى بمصادرة « أشهب » رئيس ربيعة ، وجرده من ساطته بالعلاّقى ، وحبسه بعد ذلك وقتاً طويلا ثم أطلق سراحه [٦] . فأحفظ هذا العمل قلب أشهب ضده ، وأوعز رجال ربيعة إليه بقتل القمى . فقتله سنة ٢٤٥ هـ ، مستنداً فى ذلك إلى قوة قبيلته وعلى ازدياد نفوذها فى المنطقة [٧] .

---

(١) ابن حوقل : نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ جـ ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٣) وضع القمى الأجراس التى كانت فى أعناق إبل العسكر فى رقاب الخيل وحمل على البجة فلما سمعت الإبل أصوات الأجراس فزعت وهرولت فى الأودية والجبال فركب المسلمون أقفيتهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة (البلاذرى : فتوح البلدان) طبعة القاهرة ١٩٠١ ، ص ٢٤٧ .

(٤) سنوضح المراد من كلمة البقط فى الباب الثانى .

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، مخطوطة ، جـ ٤ ، ورقة ١٨٢ .

(٦) هو أشهب بن ربيعة بن حنيفة بن جليم بن صعب ، ظل رئيسا لربيعة حتى قتله عبد الرحمن العمرى سنة ٢٥٥ هـ تقريباً .

(المقريزى : التاريخ المفى ، تحقيق خليل عساكر ومصطفى مسعد ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٦ ، ١٩) .

(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٥٤ .

أما عن البجة فإن الصلح الذى عقده معهم القمى كفل وقف غاراتهم على الصعيد فترة من الوقت استطاع العرب خلالها مواصلة العمل فى مناجم الذهب، ومعادن الزمرد دون خوف من تعرض البجة لهم . واجتذب هذا السلام جماعات عربية أخرى جاءت تبحث عن الثروة ، الأمر الذى انتهى بمخالطتهم البجة وإسلام عدد كبير من رجال البجة ، والتزاوج منهم [1].

هذا ومن جهة أخرى فقد ساعدت الأحوال الداخلية فى مصر على نزوح القبائل العربية المقيمة بها على الهجرة إلى المناطق النائية بالبلاد ؛ ومن هذه المناطق النائية التى هاجروا إليها بلاد البجه . فنزحت أعداد كبيرة من القبائل العربية إلى الصعيد وإلى بلاد البجة ، بسبب الإتاوات والضرائب التى فرضها « ابن المدبر » وإلى الخراج فى مصر فى عهد الخليفة العباسى المعتصم بالله (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) [2] .

غير أن أكبر الهجرات العربية إلى بلاد البجة كانت تلك التى حدثت عقب تأسيس الدولة الطولونية فى مصر على يد أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ . وكانت هذه الهجرة بقيادة « أبى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى [3] » . وقد اتخذت هذه الهجرة مظهراً عسكرياً ، فى بادئ أمرها ، لأن ابن طولون أعلن عن عزمه على إرسال حملة عسكرية إلى بلاد النوبة والبجة يكون جنودها من أعداد القبائل العربية التى تريد الهجرة إلى تلك البلاد . وكان يهدف من وراء إعداد هذه الحملة على هذا النحو تحقيق هدفين :

= (عثرت بعثة المعهد العلمى الفرنسى ، أثناء قيامها بإجراء حفريات فى جبانة أسوان سنة ١٩٠٢ ، على شاهد قبر ابنة القمى هذا وكانت تسمى عائشة ، وورد فى هذا الشاهد أنها توفيت سنة ٢٤٧ هـ ، أى بعد وفاة والدها بعامين .

— Georges Salmon: Notes D'Epigraphie. Arabe, II, Les Stélés funéraires D'Assouan, Le Cairo (1902) PP. 5-6.

(١) المقريزى : الخطط (نشر فييت) ، جـ ٣ ، القسم الثانى ، ص ٢١٢ .

(٢) من هذه الضرائب التى ابتدعها ابن المدبر ، ضريبة المواشى وضريبة الصيد (سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام ، ص ٥٨) .

(٣) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الله الناسك بن عبد العزيز بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ولد بالمدينة ونشأ بها ، وقدم مصر وسمع الناس منه الحديث ثم مضى إلى إبراهيم بن الأغلب بالقيروان ، وعاد فى سنة ٢٤١ هـ إلى مصر ، وبلغه خبر المعدن وإثارة الناس التبر ، فاشترى عبيد العمل فى المعدن وسار إلى أسوان (المقريزى : المقفى ، ص ٤) .

أولهما التخلص من عدد كبير من هذه القبائل وإبعادها إلى تلك البلاد النائية وثانيهما ، تأديب النوبة والبجة وكف هجومهم على بلاد المسلمين . وكانت البجة قد أقبلت يوم عيد يقودهم رجل أعور مارد زاكبين النجب وكبسوا الناس فى مصلاهم عند بلدة إسنا وقتلوا أعداداً منهم ونهبوهم [١] .

وفى هذه الحملة اشتركت أعداد كبيرة من قبيلة ربيعة وجهينة ، وكانوا يرغبون فى الهجرة إلى أرض المعادن أملا فى الاستقرار بها وفى الحصول على المزيد من ثروتها [٢] وسار العمرى بجيشه سنة ٢٥٥ هـ إلى بلاد النوبة أولا حتى وصل إلى إقليم شنقير – ما بين أبى حمد وبربر – وتغلب هنالك على قوات « جورج الأول » ملك النوبة ، وسبى من النوبيين سبياً كثيراً [٣] .

وبعد نجاح حملات العمرى فى بلاد النوبة سار إلى بلاد البجة وتغلب عليها ، وجعل لنفسه نفوذاً عظيما فيها ، حتى إنه بعد انتصاره على البجة كتب إلى أسوان يسأل التجار الخروج إليه بالجهاز والمئونة فخرج إليه رجل يعرف بعثمان بن حنجاة التميمى فى ألفى راحلة محملة بالزاد والطعام . هذا وقد ازداد العمران ببلاد البجة بعد مقدم العمرى إليها حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب [٤] .

وكان من أهم النتائج التى ترتبت على نجاح حملات العمرى وسيطرته على البجة أن تمت اتفاقات بين عرب ربيعة وجهينة من جهة، ورؤساء البجة من جهة أخرى، أعطت الحق للقبائل العربية النازحة فى الاستقرار الدائم بين البجة وسمحت لهم بالزواج منهم .

---

(١) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، نشر محمد كرد على ، طبعة دمشق ١٣٥٨ هـ ، ص ٦٤ .

(٢) يوسف فضل : المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان ، مقال فى المجلد الثالث عشر من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١١٦ .

(٣) عن الأعداد الكبيرة التى سباها العمرى من النوبيين فى هذه الحملة ، انظر :

– البلوى : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

– المقريزى : المقفى ، ص ٧ .

(٤) المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، القسم الثانى – الجزء الثالث ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، نقلا عن ابن سليم الأسوانى .

ومن أهم هذه الزيجات التي تمت نتيجة لهذه الإتفاقات تزوج رؤساء ربيعة من بنات رؤساء البجة [١] .

ويروى المسعودى ، وهو مؤرخ معاصر لهذه الأحداث قصة اندماج ربيعة بالبجة . فيذكر أنه لما سكن عرب ربيعة ديار البجة اشتدت شوكتهم وتزوجوا من بنات الحدارية . فقويت الحدارية بهم على سائر قبائل البجة الأخرى ، كما قويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من عرب قحطان وغيرهم من مضر الذين سكنوا ديار البجه [٢] .

وكانت نتيجة هذه المصاهرة هامة بالنسبة لمصر ، فقد أدت إلى وقف الهجمات المستمرة من البجه على حدود مصر الجنوبية . وكانت نتيجتها هامة أيضاً بالنسبة لربيعة ، فقد أدت إلى اتساع نفوذها وزيادة ثروتها . كما صارت لهم ببلاد البجة مرافق . واختطوا لهم بها قرية تعرف « بالنامس » حفروا بها آباراً [٣] .

ولعل أهم نتائج هذه المصاهرة هو إقبال البجة على اعتناق الإسلام وعلى التزود بالثقافة العربية . بل ترتب على هذه النتيجة نتيجة أخرى سياسية أهم . ألا وهى سيطرة من أسلم من البجة ، وهم الحدارب ، على غيرهم ممن لم يسلم من سائر البجة . وهم الزنافج [٤] . فأصبح الحدارب شوكة القوم ووجوهم ، وأصبح الزنافج تبعاً لهم وخفراءهم يحمونهم ويرعون لهم المواشى ، بعد أن كانوا أسياداً عليهم . وتملك كل رئيس من الحدارب قوماً من الزنافج ، وصاروا يتوارثونهم كالعبيد [٥] .

وعلى الرغم من هذه النتائج الطيبة التى حققها العمرى على أثر نجاح حملاته فى بلاد البجة ، فإن ابن طولون بدأت تساوره المخاوف والشكوك من جهة العمرى بعد أن ذاع صيته فى صعيد مصر وبلاد البجة وخاف أن يدفع به طموحه إلى الاستقلال عن

---

(١) المقريزى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ .

(٣) المقريزى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٤ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٧٣ .

(٥) المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، القسم الثانى – الجزء الثالث ، ص ٢٧٢ .

الدولة ؛ خاصة وهو يملك أدوات التمرد وهى المال والرجال . فهو صاحب مناجم الذهب وقائد عناصر عربية ساخطة ، وعناصر بجاوية تهوى القتال .

وازداد خوف ابن طولون حين بلغه أن قوات العمرى تزيد عن مائة ألف رجل من رجال القبائل المختلفة ، من ربيعة وبنى بكر وائل وجهينة[1] . لذلك صمم على القضاء عليه قبل أن يستفحل أمره. فأرسل لقتاله جيشاً بقيادة «صباح بن حركام البابكى» ، غير أن قوات العمرى تمكنت من أن تلحق بهذا الجيش هزيمة قاسية[2] . وتقدم العمرى بقواته لمواصلة الانتصار ، فسار شمالا حتى وصل إلى القرب من قوص ، ولكنه عاد إلى المعادن دون أن يستغل ثمرة نصره على ابن طولون .

ولو تساءلنا عن سبب إحجام العمرى عن مواصلة الحرب ، نجد لذلك سببين هما :

أولاً : خوف العمرى من هزيمة قواته أمام قوات ابن طولون آخر الأمر ، خاصة وأنه كان يعلم أن ابن طولون لم يستخدم ضده كل قواته .

ثانياً : خوف العمرى من غدر القبائل التى معه ، وخاصة ربيعة أقوى هذه القبائل وكان العمرى يعلم طموح هذه القبائل ورغبتها الشديدة فى تملك مناجم العلاقى .

وقد تحققت مخاوف العمرى حين خرجت عن طاعته قبيلة ربيعة بمجرد عودته إلى العلاقى ، وأعلنت أنها فقدت الثقة فى قيادته لعدم مواصلته الحرب ضد قوات ابن طولون . ومن ثم وقعت الحرب بينهما ، وفى هذه الحرب انضمت أعداد من قبائل مضر وتميم للعمرى بينما انضمت البجة إلى ربيعة[3] . وجرت بين الفريقين موقعتان شهيرتان فى موضعين

---

(١) كان يرأس قوات ربيعة رجلان هما : أشهب بن ربيعة بن حنيفة بن لجيم بن صعب وإياس بن روح . وكان على بنى قيس بن ثعلبة بن بكر وائل وحلفائهم : محمد بن صريح . وكان على الجهنيين رجل يعرف بعثمان ابن سمدان . وكان على الشاميين رجل من سعد العشيرة ، ورؤساء دون هؤلاء (المقريزى : المقفى ، ص ١٦) .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ .

– المقريزى : المقفى ، ص ١٤ (يذكر المقريزى أن اسمه شعبة بن حركام البابكى) .

(٣) يذكر المقريزى (ص ١٦ ، ١٧) سبب هذه الحرب وهو أن البجة قتلت أخا للعمرى من أمه يعرف بإبراهيم المخزومى عند عيذاب ، فطلب العمرى من ربيعة أن تسلمه قاتل أخيه من البجة ، فرفضت ربيعة ، فوقعت لذلك الحرب بينهما .

يعرف أحدهما باسم « ميزح » ، والآخر باسم « بكيا » (١) . وقتل فى المعركتين ألوف من الفريقين . وانتهت الحرب بهزيمة حلف ربيعة والبجة .

كما وقع بعد المعركة خلاف بين أبناء ربيعة . واستغل العمرى هذا الخلاف لصالحه ، فقام بقتل أشهب شيخ ربيعة. غير أن العمرى لقى حتفه غيلة على يد محمد بن هارون ، رئيس مضر بعد وقت قليل من قتله لأشهب ، ومن ثم تفرق الجمع الذى كان مع العمرى (٢).

وبعد موت العمرى دخلت ربيعة فى حرب مع جهينة ومع غيرها من القبائل النازحة هناك . وفى هذه الحرب انتصرت ربيعة لاعتمادها على البجة الذين تصاهروا معهما . وكانت صلتها بالبجة قد توثقت إلى حد كبير بحيث أصبحت هى والبجة كالشىء الواحد (٣). وما إن تحقق لربيعة انتصارها على هذه القبائل القاطنة معها أرض البجة حتى قامت بطردهم من وادى العلاقى . وبذلك تحققت لها السيادة عليها (٤) .

وبعد أن انفرد بنو ربيعة بالأمر فى وادى العلاقى ، أقاموا لهم هنالك إمارة عربية كانوا سادتها . وكانت رعيتها قبائل البجة الذين ارتضوا ذلك عن طيب خاطر (٥) .

---

(١) لم يستدل على موقع هذين المكانين بالضبط بعد .

(٢) رسم ابن طولون لمقتل العمرى ، ذلك المغامر العربى الجرىء الذى حاول أن يقيم أول إمارة عربية مستقلة فى بلاد البجة . ولكن العمر لم يمتد به لتحقيق ذلك. غير أن ابن طولون حزن لموته وعاقب من جاءوا برأسه (ابن سعيد الأندلسى : المغرب فى حلى المغرب) تحقيق زكى حسن وسيدة كاشف ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٩٤) .

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة ، القسم الثانى من الجزء الخامس عشر ، ورقة ٤١٩ .

(٤) لما قتل العمرى استولت ربيعة على وادى العلاقى وساعدهم البجة فى ذلك، وقامت بعد ذلك ربيعة بطرد من خالفها من القبائل ومن بينها بنى يونس ، وكانوا أحد بطونها بعيذاب طردتهم منها فساروا إلى الحجاز .
(انظر : — المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، القسم الثانى ، الجزء الثانى ص ٢٧٧ .
المقريزى : البيان والأعراب ، ص ٤٤) .

(٥) — Mac Michael: Op. Cit., Vol. I, P. 149.

— Arkell: A History of the Sudan from the earliest time to 1821, London, 1961, P. 189.

(يقول أركل أن الحفريات التى أجريت عند منطقة الريح Airi على البحر الأحمر كشفت عن أربع شواهد قبور من الحجر لحكام ربيعة ، مكتوبة بالخط الكوفى ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع الهجرى ، وهذه الشواهد محفوظة الآن فى متحف الخرطوم) .

إمارة ربيعة الأولى فى وادى العلاّقى

استفادت ربيعة من نظام الوراثة عند البجة ونجحت فى السيطرة عليهم وعلى أرض المعادن . وقد تم لها ذلك حين تزوج أمراؤها من بنات حكام البجة فأنجبوا أبناء ورثوا الإمارة عن أخوالهم . ويذكر ابن حوقل ، أن فى زمنه – أى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى كان يرأس الحدارب أجمع رئيسان هما : كوك ، وعبدك . ويعرف كوك بأنه خال أبى القاسم حسين بن على بن بشر ، وأما عبدك فهوخال إسحق بن بشر ، صاحب العلاّقى [1]. ثم آلت إلى إسحاق بن بشر رئاسة الإمارة التى جمعت بين ربيعة والحداربة . وذلك عن طريق وراثته لها من خاله عبدك . هذا وتتفق معظم المصادر على أن رئاسة الإمارات آلت إليه دون غيره . فيذكر كل من ابن حوقل ، والنويرى . أن صاحب المعدن سنة ٣٣٢ هـ هو « أبو مروان إسحاق بن بشر » ، الذى استمر حاكماً لأمارة ربيعة فى العلاّقى مدة إلى أن قتل نتيجة لنزاع نشب بين رجالها [2] .

أما المسعودى ، فإنه على الرغم من كونه معاصراً لهذه الشخصية . وعلى الرغم من زيارته لمصر فى ذلك الوقت – أيام حكم الأخشيد [3] ، فقد اختلط الأمر عليه وذكر أن « صاحب المعدن فى وقتنا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة بشر بن مروان بن إسحاق ،

---

(١) صورة الأرض ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) انظر : – ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٥٥ .
– النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القاهرة ١٩٢٣ ، جـ ١ من ص ٣٢٨ إلى ص ٣٣٢ .
– المقريزى : البيان والإعراب ، ص ٤٥ ، ٤٦ .
– وانظر أيضاً الملحق رقم (١) .

(٣) ولى محمد بن طغج الأخشيد مصر لأول مرة من قبل الخليفة القاهر (يوم الأحد ٧ من شهر رمضان سنة ٣٢١ هـ) ، وكان فى ذلك الوقت مقيماً بدمشق ، ولم تستمر هذه الولاية سوى اثنين وثلاثين يوماً ، ثم وليها ثانية من قبل الخليفة الراضى بالله (يوم الخميس ٢٤ رمضان سنة ٣٢٣ هـ ، وظل والياً عليها حتى وفاته بدمشق فى ١٢ ذى الحجة سنة ٣٢٤ هـ (سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٦٩ ، ٧٤) .
– توفى المسعودى سنة ٣٤٦ هـ .

وهو من ربيعة يركب في ثلاثة ألف حراب من البجة ، وهم كلهم من الحدارب وهم مسلمون»[١].

وظل إسحاق بن بشر رئيساً لربيعة مدة إلى أن خرج عليه بعض أهله . ووقعت حروب بين بني بشر قتل فيها إسحاق . هذا ولم تحدثنا المصادر عن أسباب هذا الخلاف الذي وقع بين رجال ربيعة وأدى إلى مقتله . وبعد مقتل إسحاق اختارت القبيلة ابن عمه . الشيخ أبا عبد الله محمد بن على بن يوسف ، المعروف بأبي يزيد بن إسحق الذي يرجع نسبه إلى مسروق بن معدى كرب بن ربيعة . وأبو يزيد بن إسحق هذا من فرع ربيعة الأول الذي كان قد نزل بالحوف الشرقي عند بلبيس[٢] .

وبهذا الإجراء لم تعط قبيلة ربيعة فرصة للأحداث أن توسّع الخلاف بين أبنائها مما يقضى على نفوذ القبيلة ويطمع فيها أعداءها . وهذا يثبت لنا مدى ترابط القبيلة برغم عوارض النزاع بينها ومدى حرصها على الاستمساك بحكم قبائل البجة .

وجاء أبو يزيد إسحاق من بلبيس إلى العلاّقى لرئاسة الإمارة . ويبدو من اختيار القبيلة له أنه كان يتمتع بشخصية قوية حازمة . وكانت القبيلة في ذلك الوقت في حاجة إلى تلك الشخصية القوية التي تحفظ للإمارة وحدتها وقوتها .

وقد آثر أبو يزيد أن ينقل مقر رئاسة ربيعة إلى مدينة أسوان ، وهناك عظم مركزها وزادت ثروتها . كما أصبح لإمارة بني ربيعة دور ممتاز في ميدان السياسة والاقتصاد . وفي ميدان العلاقات بين بلاد النوبة المسيحية وبين مصر الفاطمية[٣] .

(١) مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ .
(٢) المقريزى : البيان والإعراب ، ص ٤٤ ، ٤٥ .
(٣) انظر فيما بعد .

الباب الثانى

علاقة بنى الكنز بمصر الفاطمية

١ – بلاد النوبة كما عرفها المؤرخون المسلمون – صلة النوبيين بالعرب .

٢ – علاقة ربيعة بالنوبة – بنو ربيعة والفاطميون – ثورة أبى ركوه – لقب كنز الدولة .

٣ – علاقة بنى الكنز بالخلفاء الفاطميين بعد الخليفة الحاكم بأمر الله .

٤ – موقف بنى الكنز من ثورة مؤتمن الخلافة وثورة السودان ضد صلاح الدين .

١ – بلاد النوبة كما عرفها المؤرخون المسلمون

أطلق المؤرخون المسلمون اسم النوبة على أرض وادى النيل الممتدة على جانبى هذا النهر العظيم بين مدينتى أسوان والخرطوم الحالية على وجه التقريب [١] . وعرفوا بلادها من ناحية مصر باسم « القصر » ،وهى تبعد عن أسوان خمسة أميال إلى الجنوب وميلا واحداً من جزيرة بلاق(فيله) [٢]. هذا وينسب الطبرى تسمية النوبة إلى نوبة بن حام بن نوح عليه السلام [٣] ، بينما يرجع الأستاذ بيكيت Beckett هذه التسمية إلى أصلها المصرى القديم الذى يعنى أرض الذهب ، ذلك أن لفظة « نوب » فى اللغة المصرية القديمة تعنى الذهب [٤] .

وقبل الفتح العربى لمصر كانت تقوم فى بلاد النوبة مملكتان مسيحيتان ، تعرف الشمالية منهما باسم مملكة « مقرة » ، وتعرف الجنوبية باسم مملكة « عاوة » .

وكانت مقرة تمتد من حدود مصر الجنوبية حتى بلدة الأبواب (كبوشية الحالية) ؛ وأما عاصمتها فهى مدينة دنقلة أودمقلة [٥] . وكانت مقرة تنقسم بدورها إلى أقاليم يحكم كل إقليم منها وال من قبل ملك النوبة . وكان أرفع هؤلاء الولاة شأناً صاحب الجبل [٦] الذى كان يحكم المنطقة المعروفة باسم « مريس » [٧] ، وهى تشمل المنطقة الشمالية

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، طبعة بيروت ، ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ١٩١ .
– المقريزى : الخطط ، نشر فييت، ج ٣ ، القسم الثانى، ص ٢٥٨ (نقلا عن ابن سليم الأسوانى) .
(٢) المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، ج ٣ ، القسم الثانى ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، نشردى جويه ، الجز الأول – القسم الأول ،ص ٢١٦ .
(٤) M Beckett: Nubia and the Berberine, Cairo Scientific Journal, August 1911, P. 195.
(٥) تقع دنقلة القديمة إلى الشمال من دنقلة الحالية بنحو مائة ميل تقريباً ، كما تقع على الضفة الشرقية للنيل بعكس دنقلة الحالية ، وللتمييز بين دنقلة القديمة ودنقلة الحالية أطلق على الأولى اسم دنقلة العجوز (نعوم شقير : السودان القديم والحديث وجغرافيته ، القاهرة ١٩٠٣ ، ج ٢ ، ص ٥٥) .
(٦) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .
(كان يطلق عليه أيضاً صاحب الخيل) .
(٧) المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ١٨٩ .
– معنى مريس فى اللغة القبطية : الجنوب ، وإلى مريس تنسب الرياح المريسية ، وهى الرياح الجنوبية =

الممتدة من القصر على بعد خمسة أميال جنوبي أسوان حتى المقس الأعلى (عكاشة) . وأما عاصمة منطقة المريس فهى مدينة « بجراش » أو « نجراش » ، كما تعتبر مدينة « أبريم » التى تقع جنوبى أسوان بنحو مائتى كيلومتر من أهم مدنها ، وكذلك مدينة « الدر » التى كانت توجد بها قلعة « الدو » الحصينه [١] .

أما مملكة علوة [٢] . فقد اتفق المؤرخون العرب على أن حدها الشمالى يبدأ عند منطقة الأبواب (كبوشيه الحالية) [٣] . غير أنهم أغفلوا ذكر بقية حدودها [٤] ، وإن كان ابن سليم الأسوانى قد انفرد دونهم بقوله إن أول بلاد الحبشة هو حد علوة الشرقى [٥] . ولعل الأبحاث الأثرية التى تمت فى منطقة النيل الأوسط ، حيث قامت مملكة علوة المسيحية ، تعطينا صورة أدق لحدود هذه المملكة . والراجح أنها كانت تمتد من الأبواب شمالا إلى القطينة على النيل الأبيض جنوبًا ، وأنها شملت جهات العطبرة والنيل الأزرق حتى حدود الحبشة شرقًا وبعض جهات دارفور وكردفان غربًا . وأما عاصمة هذه المملكة فهى مدينة « سوبه » أو « سوبا » ، التى كانت تقع شرقى مدينة الخرطوم الحالية بنحو خمسة عشر ميلا [٦] .

= الباردة التى تهب على مصر فى فصل الشتاء (ابن الفقيه الهمدانى : البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩١ ، ص ٧٤ ، ٧٥) .

(١) ذكر ابن سليم الأسوانى أن الحد الجنوبى لمريس يقع عند المقس الأعلى وآخر قراه من ناحية مقره قرية تعرف باسم بيستو .

(المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، جـ ٣ ، القسم الثانى ، ص ٢٥٣ .

– تقع بيستو شمالى دنقلة الأوردى بحوالى ٢٧ ميلا عند أبى فاطمة .

(٢) يقول ميلهام إن كلمة علوة فى اللغة القبطية القديمة تعنى أنهار النيل السبعة .

— Mileham, S. Geoffrey: Churches in Lower Nubia, Philadelphia (1910, P. 3).

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى : ، جـ ١ ، ص ١٩١ .

– ياقوت : معجم البلدان ، طبعة بيروت ١٩٥٧ ، المجلد الخامس ص ٣٠٨ .

– المقريزى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

(٤) قدر اليعقوبى طول مملكة علوة بثلاثة أشهر ، وقدر ياقوت المسافة بين عاصمة مقرة إلى حدود علوة بثلاثة أشهر .

انظر – تاريخ اليعقوبى : جـ ١ ، ص ١٩١ .

– ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ٣٠٨ .

(٥) المقريزى : الخطط ، القسم الثانى ، جـ ٣ ، ص ٢٨٦ – نقلا عن ابن سليم .

(٦) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٧٩ .

وتنقسم علوة ، بدورها مثل مقرة ، إلى ولايات صغيرة ، تسمى كل منها مملكة ويحكمها نائب عن الملك . وأهم هذه الولايات : مملكة « الأبواب » ، وكان لصاحبها من المكانة فى ولايته ما كان لصاحب الجبل فى مملكة مقرة ؛ وذلك بسبب متاخمة ولايته لحدود مملكة مقرة المعادية [١] . وكانت مملكة علوة أعظم خطراً من مقرة ، لأنها كانت أكثر اتساعاً وأكثر ثروة ، وبالتالى أعظم قوة [٢] .

صلة النوبيين بالعرب :

صلة النوبيين بالعرب قديمة يرجع تاريخها إلى أقدم العصور . وكانت التجارة أهم عوامل هذه الصلة ، ذلك أن السفن كانت تردد بصورة منتظمة بين شواطئ شبه الجزيرة العربية وموانئ مصر والسودان والحبشة وهى تنقل العاج والصمغ واللبان والذهب والرقيق . ومن هذه الموانئ التجارية الواقعة على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر توغل العرب فى وادى النيل وفى قلب أفريقية حاملين سلعهم وبضائعهم [٣] .

كما أخذت الجماعات العربية تهاجر إلى وادى النيل بسبب ازدياد نشاط التجار العرب زمن البطالمة والرومان . واستقرت هذه الجماعات فى أجزاء مختلفة من حوض النيل ، ثم لحقت بها أعداد من أهاليهم وأقاربهم. وفى القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من أهالى اليمن مضيق باب المندب ، واستقر بعضهم فى الحبشة ،وسار البعض الآخر مع النيل حتى وصلوا بلاد النوبة [٤] . كما يشير ابن خلدون إلى استقرار أعداد كبيرة من عرب اليمن فى بلاد النوبة والسودان حوالى أوائل القرن الأول قبل الميلاد . وهذه الأعداد الكبيرة كانت قد اشتركت فى الحملة التى قادها « أبرهة ذى المنار بن ذى القرنين الحميرى » على السودان وبلاد النوبة ، وقد آثرت البقاء فى بلاد النوبة بعد انتهاء أمر الحملة [٥] .

غير أن التدفق الكبير لهجرات العربية إلى بلاد النوبة إنما حدث بعد الإسلام ؛ وذلك بعد محاولة العرب الثانية لغزوها بعد فتحهم مصر واستقرارهم بها [٦] . وهذه المحاولة هى التى

(١) يظهر هذا العداء فى عدم تقدم مملكة علوة بأية مساعدة لمملكة مقرة حين تعرضت لخطر الغزو العسكرى من جانب مصر كما سنرى فيما بعد .

(٢) تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ، ص ١٩١ .

— Quatremére: Mémoires Geographiques et Historiques Sur L'Egypte, Paris 1811, T. II, P. 7.

(٣) — Mac Michael: A History of the Arabs in the Sudan, Vol. I, PP. 3-4.

(٤) — Hamilton, The Anglo, Egyptian Sudan from Withen, London 1935, P. 42.

(٥) ابن خلدون : العبر ، جـ ١ ، ص ١٧٦ .

(٦) سبقت هذه المحاولة محاولة أولى قام بها عقبة بن نافع فى عهد ولاية عمرو بن العاص (٢١-٢٥هـ) ، =

قادها والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١ هـ / ٦٥١ م وهزم فيها ، قليدروث ، ملك النوبة [١] ، وقد حدث هذا التدفق عبر السنين خلال العلاقات المستمرة بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية . هذا ويجدر بنا أن ننوه أن هذه العلاقات التى تقلبت بين الصفاء والعداء عبر حقب التاريخ كانت تتحكم فى تقريرها ثلاثة عوامل :

أولاً — اتفاق البقط ونقض هذا الاتفاق من وقت لآخر [٢] :

ذلك أن ملوك النوبة التزموا بعد حملة ابن أبى سرح بدفع البقط لمصر ، وباحترام عهد الأمان الذى عقده لهم . غير أن الأمر لم يسلم ، من وقت لآخر ، من نقض بعض ملوكهم لهذا العهد وامتناعهم عن تقديم البقط . فالبقط فضلا عن أنه عبء ثقيل عليهم فإنه كان يحرمهم من أفضل عناصرهم العاملة فى الجيش والأرض ، والتى كانت تذهب للخدمة فى بلاط الخليفة أو الوالى فى مصر [٣] . وكان توقف ملوك النوبة عن دفع البقط يستدعى قيام ولاة مصر بإرسال وفود من قبلهم لتأخذ تعهدا عليهم بدفعه واستمرار تقديمه [٤] . وفى أحيان أخرى — وعلى وجه التخصيص أيام حكم المماليك — كان الأمر يقتضى إرسال تجريدة عسكرية لإرغامهم على دفعه. ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض المشتركين فى هذه التجريدات العسكرية كان يؤثر البقاء فى بلاد النوبة والإقامة فيها .

= وكان عدد المسلمين فيها قليلا وكانت خسائرهم كبيرة لشدة المقاومة التى أبداها النوبيون (ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٦٩ الكندى : ولاة مصر ، ص ٣٦) .

(١) Budge, E.A.W.,:The Egyptian Sudan, Its History and Monuments, London 1907, — vol. Iè,P. 185.

(٢) لفظ البقط يعنى — حسب اجتهاد الباحثين — إما الاتفاق والموادعة أو الضريبة التى تدفع عينا ، وأصل التفسير الأول من كلمة Pactum اللاتينية ، وأما التفسير الثانى فيرجع إلى أصله المصرى القديم (Budge: Op. Cit, II, P. 185) — هذا وقد فسر المقريزى البقط فى خططه (طبعة بولاق ، جـ١ ، ص١١٩) بأنه ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم ، ويقول إن معنى هذه الكلمة إن كانت عربية يكون : نبذه من المال وذلك بقولهم فى الأرض بقط من بقل وعشب أى نبذ من مرعى ، وكذلك قولهم فى بنى تميم بقطا من ربيعة أى فرقة أو قطعة فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه .

(٣) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص ١٢٠ .

(٤) مثال ذلك ما حدث سنة ٣٧٠ هـ حين أرسل قائد الفاطميين ، جوهر الصقلى ، بعثة إلى ملك النوبة جورج الثانى ، وكانت هذه البعثة برئاسة ابن سليم الأسوانى لتطلب منه التعهد باستمرار دفع البقط . وقد نجحت هذه البعثة فى مهمتها وأخذت تعهدا بذلك من ملك النوبة (المقريزى : المقفى ، ص ٧) .

ثانياً – الأحوال الداخلية فى كل من الدولتين قوة وضعفاً :

فقد كان ملوك النوبة يقومون بتقصى الأخبار عن حالة مصر قوة وضعفاً باستمرار قبل القيام بأى هجوم على أراضيها [١] ، فإذا ما وجدوا الظروف فى صالحهم امتنعوا عن دفع البقط وهاجموا البلاد متهزين فرصة ضعفها . وكان ذلك غالباً ما يحدث فى أوقات الاضطرابات وفى فترات الضعف التى كانت تتعرض لها مصر من وقت لآخر [٢] . غير أن حكام مصر سرعان ما كانوا يردون على هذه الغارات بغارات مماثلة على بلاد النوبة عندما كانت تتهيأ لهم ظروف الاستقرار الداخلى فى البلاد [٣] .

ثالثاً – معاملة المسيحيين فى مصر :

وكان ملوك النوبة يتأثرون لمعاملة بعض حكام مصر السيئة للمسيحيين فى مصر . فكانت تدفعهم عاطفة الأخوة الدينية إلى مساعدة المسيحيين فى مصر فى رفع ماكانوا يتعرضون له من مظالم ؛ وذلك إما عن طريق الوساطة الدبلوماسية لدى حكام مصر أو عن طريق الإغارة على حدود مصر الجنوبية إذا ما لزم الأمر [٤] .

---

(١) مثال ذلك ما حدث سنة ٢١٨ هـ حين أرسل ملك النوبة زكريا ابنه جورج (قيرقى) إلى بلاد المسلمين للتجسس على أحوالها والوقوف على مدى قوتها واستعدادها . وقد عاد جورج مقتنعاً بقوة المسلمين وصرف عن ذهنه فكرة الامتناع عن دفع البقط والهجوم على مصر (المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق جـ ١ ، ص ٢٠١) .

(٢) حدث ذلك سنة ٣٤٤هـ فى أيام الحكم الإخشيدى بمصر ، حين علم ملك النوبة باضطراب الأحوال فى مصر ، فقامت قواته بمهاجمة مدينة أسوان وقتلت جماعة من المسلمين ، فخرج إليهم سنة ٣٤٥هـ محمد عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل أنوجور الإخشيدى وهزمهم وتعقب قواتهم حتى أبريم .

– كذلك تجددت هجمات النوبة فى عهد كافور الإخشيدى (٣٥٥ – ٣٥٧ هـ) على صعيد مصر منتهزين فرصة اضطراب أحوال البلاد بسبب تعرضها لخطر القرامطة (سيدة كاشف : مصر فى عهد الإخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٥٨) .

(٣) انظر فيما بعد .

(٤) مثال ذلك ما قام به كرياكوس ملك النوبة سنة ١٢١هـ من وساطة لدى الخليفة هشام بن عبد الملك لرفع ما قام به فى مصر الوالى عبيد الله بن الحبحاب من اضطهاد للمسيحيين وطلبه الإفراج عن بطريركهم ، وإعداده فى نفس الوقت جيشاً قوامه ١٠٠ ألف رجل لغزو مصر إذا لم تنفع الوساطة . لكن هذا الغزو لم يتم بسبب استجابة الخليفة لمطالب ملك النوبة .

– ومثال ذلك أيضاً ما قام به سنة ٦٧١ هـ « داود » ملك النوبة من هجوم على عيذاب وأسوان بسبب تعرض الأقباط فى مصر لحوادث الاضطهاد على عهد السلطان الظاهر بيبرس ، لاتهامهم بحرق بعض أحياء القاهرة .
(المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، جـ ٣ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٧) .

ومن خلال هذه العلاقات المتقلبة بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية ، هاجرت أعداد كبيرة من القبائل العربية إلى بلاد النوبة ، زمن الأمويين والعباسيين الأوائل . واستقرت فى هذه البلاد ، وهناك اشتغلت بالزراعة وأدى ذلك إلى تملكها للأراضى الزراعية وتوريثها لأبنائهم من بعدهم [١] . وترتب على ذلك أن خالط العرب المهاجرون أهالى النوبة وتزوجوا منهم واستفادوا من نظام الوراثة عندهم ، وهو نفس نظام الوراثة عند البجة الذى يعطى حق الإرث لابن البنت أو ابن الأخت دون ولد الصلب [٢] .

ومع مطلع القرن الثالث الهجرى أصبح العرب فى بلاد المريس يمثلون الطبقة الحاكمة ، فالحفريات الأثرية التى تمت فى منطقة مريس دلت على وجود جاليات عربية إسلامية مستترة فى هذه المنطقة فى هذه الفترة . فقد عثر فى غير قليل من الأماكن بأرض مريس على عدد من شواهد القبور المكتوبة بالخط العربى والتى تحمل أسماء لشخصيات عربية لها مكانة مرموقة فى المجتمع المريسى فى ذلك الوقت ، ومن هذه الشواهد ما يرجع تاريخه إلى مطلع ذلك القرن ، كتلك التى عثر عليها فى تافه » (مؤرخة سنة ٢١٧ هـ) [٣] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ٥٧ .

(٣) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص ١٣٠ .

(ومن هذه الشواهد ما عثر عليه فى كلابشه والتى يرجع تاريخها إلى سنة ٣١٧ هـ) .

علاقة ربيعة بالنوبة

تركزت ربيعة فى منطقة أسوان وما حولها . وبعد أن ازدادت أعدادها ابتنت لها مدينة خاصة بظاهر أسوان ، عند حدها الجنوبى ، وهذه المدينة هى « المحدثة »[١] . ولما لم تتسع المحدثة للأعداد الكبيرة التى كانت تفد تباعاً من ربيعة استقرت بعض هذه الأعداد فى مدينة أسوان نفسها حتى عمرتها ، ثم جاوزتها إلى منطقة مريس ببلاد النوبة . وما أن حل منتصف القرن الرابع الهجرى حتى كانت قبيلة ربيعة قد فرضت نفوذها على هذه المنطقة واختلطت مع أهلها النوبيين . وبمضى الزمن اندمجوا معهم اندماجاً تاماً وأصبحوا يتكلمون مثلهم بلهجتهم النوبية[٢] .

وقد تمت هذه السيطرة لربيعة على أهالى النوبة فى منطقة مريس فى نفس الوقت الذى تمت فيه سيطرة فرعهم الآخر على البجة فى وادى العلاقى والصحراء الشرقية . واستفاد بنو ربيعة فى كل من المنطقتين من نظام الوراثة المتشابه عند أهالى تلك البلاد ، وأصبح لهم بيت حاكم فى منطقة مريس وبيت حاكم آخر فى بلاد البجة .

ثم أدت تطورات الأحداث إلى اتحاد هاتين الإمارتين فى إمارة واحدة ، واختيار مدينة أسوان لتكون مركزاً لرئاسة هذه الإمارة المتحدة . وقد تم ذلك على يد « أبى يزيد بن اسحاق » أمير ربيعة المنتخب ، فهو الذى نقل مقر رئاسة الإمارة من العلاقى إلى أسوان[٣] . ونحن لا ندرى سبب إقدام أبى يزيد على هذا الأمر وتفضيله أسوان على قلب منطقة المعادن . لعل الدافع إلى ذلك أنه أدرك ببعد نظره أهمية موقع أسوان فى الإشراف على الإمارة المتحدة ؛ فضلا عن أهمية

---

(١) يقول ابن حوقل (صورة الأرض ، ص ٣١) « كانت اليمامة قرارا لربيعة ومضر ، فلما نزل عليها بنو الأخيضر حلت العرب منها إلى جزيرة مصر فسكنوا بين النيل وبحر القلزم وقرت ربيعة ومضر هناك وصارت لهم ولتميم كالدار التى لم يزالوا بها وأبتنوا بها غير منبر كالمحدثة التى بظاهر أسوان »

— ويضيف ابن حوقل فى مكان آخر (صورة الأرض ، ص ٥٠) قائلا : « أتى القمى العلاق وكان قد خلف عليها أشهب بن ربيعة وهو جد أبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى يزيد بن بشر صاحب المحدثة ، وهى المدينة التى لربيعة محادة لأسوان » .

(٢) يقول فى ذلك المقريزى — نقلا عن ابن سليم الأسوانى (الخطط ، طبعة بولاق ، جـ ١ ، ص ١٩٠) : وفى مريس جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم بالعربية » .

(٣) انظر الباب الأول ، ص ٣٦ .

أسوان التجارية فى ذلك الوقت لتحكمها فى طرق التجارة بين مصر والسودان . كما أن أبا يزيد لابد وأن يكون قد أدرك أن الإمارة فى إمكانها أن توسع رقعتها على حساب بلاد النوبة الشمالية وذلك خير لها من التوسع فى داخل الصحراء .

ومهما كانت الأسباب التى دفعت إلى ذلك فقد تم نقل مركز رئاسة الإمارة من العلاقى إلى أسوان . ولم يكن ذلك يعنى أن بنى ربيعة تخلوا عن منطقة العلاقى وتركوها نهائياً ، فإن أعداداً كبيرة منهم ظلت تقيم فى الصحراء الشرقية تشرف على المناجم وتنوب عنهم فى حكم البجة وتحمى تجارة ثغر عيذاب .

ومن أسوان ظل أبو يزيد يحكم الإمارة إلى أن وافته المنية [١] ، فقام بالرئاسة بعده ابنه « أبو المكارم هبة الله » ، الذى كان يعرف بالأهوج المطاع . ويعتبر أبو المكارم المؤسس الحقيقى لإمارة ربيعة الكبرى فى مصر [٢] ، تلك الإمارة التى اتسعت أطرافها أيام رئاسته وأصبحت تضم صعيد مصر الجنوبى من قوص إلى أسوان ، مضافاً إليه منطقة مريس من بلاد النوبة الشمالية ووادى العلاقى بالصحراء الشرقية ، وليس ثمة شك أن هذا الاتساع أمدها بأسباب الثروة والقوة . ولما تأكد للخلفاء الفاطميين ولاء أمراء هذه الإمارة وإخلاصهم لهم اعترفوا بإمارتهم ومنحوهم استقلالا شبه تام فى إدارة شئونها . كما أنعموا بلقب « كنز الدولة » على كل أمير من أمرائهم تقديراً لمكانتهم ورفعة لشأنهم بين رجال دولتهم [٣] .

ورأى الخلفاء الفاطميون فى تقوية هذه الإمارة تأميناً لحدود البلاد الجنوبية من غارات النوبة المتكررة عليها ، وذلك على الرغم من أن العلاقات بينهم وبين ملوك النوبة كانت تتسم بحسن الجوار والمسالمة فى الفترة التى تلت بعثة ابن سليم الأسوانى إلى جورج الثانى ملك النوبة سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م . فعلى الرغم من ذلك كان الفاطميون يشكون فى إخلاص ملوك النوبة وفى احترامهم لعهودهم ، كما كانوا يعرفون أن تاريخ النوبيين مع مصر ملىء بالسوابق الكبيرة

---

(١) لم تشر المصادر إلى تاريخ وفاة أبى يزيد .

(٢) هو أبو المكارم هبة الله بن الشيخ أبى يزيد عبد الله محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مسروق بن معدى كرب بن الحارث ، وينتهى نسبه إلى ربيعة الفرس ، وكان يعرف بالأهوج المطاع .
(المقريزى : البيان والإعراب ، ص ٤٥ ، ٤٦) .

(٣) عن لقب كنز الدولة — انظر فيما بعد .

فى نقض العهود وأنهم طالما هاجموا حدود مصر الجنوبية حينما كانت تواتيهم الفرصة المناسبة لذلك .

ويرجع المؤرخون توثق العلاقات بين إمارة بنى ربيعة الناشئة والدولة الفاطمية إلى ذلك الدور الهام الذى قام به أبو المكارم هبة الله أمير ربيعة ضد الثورة التى قادها رجل من بنى أمية يدعى « أبو ركوه » ضد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٧ هـ [1] .

ولكى نتعرف على هذا الدور الذى قام به شيخ ربيعة حيال هذه الثورة ، وعلى نتائجه بالنسبة لإمارة بنى ربيعة وعلاقتها بالدولة الفاطمية ، يتعين علينا أن نستعرض أحداث هذه الثورة التى كانت من أكبر الأخطار التى هددت كيان الخلافة الفاطمية فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله [2] .

فهذه الثورة قام بها أحد أمراء الأمويين يدعى « الوليد » ، وهو من ولد هشام بن عبد الملك ابن عبد الرحمن الداخل [3] . وقد سمى أبو ركوه لأنه كان يحمل فى أسفاره ركوه (أبريق ماء من جلد) على عادة الصوفيين [4] . وهو أحد أبناء عمومة « المؤيد هشام بن الحكم » الذى حكم الأندلس خلال المدة الممتدة من شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ حتى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ . وكان المؤيد هشام ملكاً ضعيفاً تحكم فيه وزيره المنصور بن أبى عامر وأخفاه عن الناس ، وتتبع أهله ومن يصلح منهم للملك ، وقتل البعض منهم . وأما من استطاع منهم النجاة من قبضة يده فقد فر من الأندلس [5] .

وكان أبو ركوه أحد هؤلاء الأمراء الهاربين ، وكان عمره حينئذ يزيد على العشرين بسنة واحدة . فقصد مصر ، ومنها رحل إلى الحجاز واليمن ، ثم إلى الشام ، ومنها عاد ثانية إلى مصر .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، طبعة مصر ١٣٠١ هـ ، جـ ٩ ، ص ٨٣ ، ٨٤ .
— ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٨٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٨٢ .
— ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٥٨ .

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، مخطوطه بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٢٧٦ ج ، جـ ٨ ، ص ١٤ .

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، مخطوطه مصورة بمكتب جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٢٦ ، جـ ٦ ، ورقة ٢٣٥ ب .

ومن مصر نزح إلى برقة واستقرهناك بين بطون «بنى قرة» أقوى قبائلها آنذاك [1] . ولما دعاهم للثورة ضد الخليفة الحاكم بأمر الله استجابوا له ، كما أستجابت له قبيلة «زناته» [2] . وكان سبب استجابتهم له هو موقف الخليفة الحاكم بأمر الله المتشدد مع أهل السنة واضطهاده لهم ، وإسرافه فى قتل القواد ورؤساء القبائل وحبسهم بعد أخذ أموالهم دون وجه حق . كما كانت سائر القبائل معه – على قول أحد المؤرخين – فى ضنك وضيق ، ولذلك كانوا يودون خروج الملك من يده [3] .

وكانت بنو قرة إحدى القبائل التى جرد ضدها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ حملة عسكرية لتمردها عليه . وقد عامل قائد هذه الحملة « أبو الفتيان التركى » من وقع فى قبضة يده من بنى قرة بغلظة بالغة . فضلا عن حبسه لجماعة من أعيانها ، فقد قتل بعض رجالها ثم أحرقهم بالنار [4] . ولكى يتمكن بنو قرة من الانتقام من الحاكم بأمر الله ، فقد تصالحوا مع قبيلة زناته ، وكان بينهم وبينها حروب ، ليكونوا يداً واحدة ضده [5] . كما انضم إليهم من قبيلة « مزاته » جمع كبير ، وبايعوا أبا ركوة بعد أن ذكر لهم أن عنده فى الكتب أنه يملك مصر وغيرها . وبعد أن وعدهم ومناهم بالثورة والسلطان التفوا حوله وخاطبوه بالإمام أمير المؤمنين ولقب أبو ركوة نفسه أيضاً « بالثائر بأمر الله » ، و « المنتصر من أعداء الله » [6] .

فلما سمع الوالى ببرقة خبرهم كتب إلى الحاكم بأمر الله يستأذنه فى قصدهم . ولما أذن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٨٢ .

– المقريزى : البيان والإعراب ، ص ١٣ (بنوقرة فخذ من جذام كانوا بالبحيرة)

(٢) زناته من قبائل البربر ، وقبائل البربر هى : ضريسه ، وصنهاجه ، وهواره ، وكتامه ، ولواته ، ومزاته وزناته (الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، طبعة ليدن ١٨٦٦ ، ص ٥٧).

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، مخطوطة ، جـ ٦ ، ورقة ٢٩٣ .

(٤) – سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ١٥ .

– ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ٥٨ .

– النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩ معارف عامة ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٤ .

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٦ ، ورقة ٢٩٣ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٨٢ .

– سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ١٦ .

– النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٤

له بنلك وخرج لقتالهم هزمته قوات أبوركوة . وقد قوى أمر أبي ركوة بعد هذا الانتصار بما وقع في يده من أموال وسلاح وغيره ، فملك برقة وضرب السكة باسمه ولعن الحاكم وآباءه فوق المنابر[١] .

ولما وصل خبر الهزيمة إلى الحاكم بأمر الله عظم عليه الأمر ، وعزّت عليه نفسه . وعاود الإحسان إلى الناس ، وكف عن أذاهم . أما أبو ركوة فقد جرد ضده جيشاً يقرب من خمسة آلاف فارس ، معظمهم من رجال كتامه ، وولى قيادتهم لقائد تركي اسمه « ينال الطويل » غير أن قوات ينال هزمت هزيمة ساحقة عند منطقة « ذات الحمّام » التي تبعد قليلا عن برقة[٢] . وكان من أهم أسباب هزيمة ينال انصراف رجال كتامه عنه لكراهيتهم له ، لأنه كان قد قتل رؤساءهم بأمر من الحاكم بأمر الله[٣] .

وكان لنتيجة هذه المعركة أثر كبير على كل من الحاكم بأمر الله وأبي ركوة . فهذا النصر الثاني أسكر أبا ركوة ودفعه إلى مواصلة مسيره إلى مصر ، وظن أن أمر انتزاع الحكم من الحاكم بأمر الله أصبح أمراً يسيراً بعد أن هزمت قواته على يديه مرتين ، وأن الدولة الفاطمية لا محالة مقضي عليها . ومن ثم أخذت سرايا أبي ركوة تتردد على الصعيد وعلى مختلف بلاد مصر .

أما الخليفة الحاكم بأمر الله فقد أسقط في يده واشتد قلقه وخاصة عندما علم فرح جند مصر وأعيانها بهذه الهزيمة ، فندم على ما فرط وأظهر الاعتذار عن الذي فعله[٤] . وازداد قلقه حين علم أن الناس قد كاتبوا أبا ركوة ، وأن ممّن كاتبه قائد قواده الحسين بن جوهر[٥] .

(١) سبط ابن الجوزي : نفس المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ١٧ .

– أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٣ ، جـ ٤ ، ص ٢١٥ .

(٢) هي قرية قديمة غربي الإسكندرية في طريق برقة ، وهي تعرف الآن باسم الحمّام فقط ، وتقع على السكة الحديدية الموصلة بين الإسكندرية ومرسى مطروح وبها محطة تقع على بعد ٧٤ كيلومتراً من مدينة الإسكندرية (محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، القسم الثاني البلاد الحالية ، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٤٩ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٤١ .

(٥) ابن الأثير : نفس المصدر ونفس الصفحة .

– بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ ٦ ، ورقة ٢٩٤ أ .

ولذلك اشتد خوفه على نفسه وعلى ملكه حين علم بتقدم قوات أبى ركوة من برقة إلى الصعيد فأمر بإغلاق أبواب القاهرة [١].

وإزاء هذا الخطر عقد الحاكم مجلساً عسكريًّا جمع فيه كل قواده وشاورهم فى الأمر ، وفى كيفية مواجهة هذا الخطر .فأشاروا عليه أن يسحب قواته التى فى الشام لتعينه على حرب أبى ركوة فأذعن لرأيهم واستدعاها [٢] . ولما اكتمل عسكره ، وقد بلغ عددهم حوالى اثنى عشر ألف رجل بين فارس وراجل ، عدا من انضم إليهم من عرب القبائل . ولّى قيادتهم للفضل ابن عبد الله [٣]. واستطاع الفضل بن عبد الله أن يستميل إلى جانبه أحد رجال أبى ركوة ويعرف « بالماضى » ، وهو من قواد بنى قرة ، ليطلعه على أسرار جيش أبى ركوة وقد تمكن الفضل بن عبد الله بفضل تواطؤ الماضى معه من إنزال الهزيمة ، آخر الأمر ، بأبى ركوة .

وعند منطقة « كوم شريك » [٤] بالبحيرة دار القتال بين الفريقين . فى هذا القتال انتصر أبو ركوة على قوات الحاكم بأمر الله للمرة الثالثة . ثم دار قتال آخر عند الجيزة قتل فيه نحو ألف من الجانبين . وقبل نشوب هذه المعركة حاول بنو قرة استمالة العرب الذين كانوا يقاتلون مع عسكر الحاكم بأمر الله ، فأرسلوا إليهم يذكرونهم بأعمال الحاكم التعسفية ضدهم فأجابوهم إلى ذلك . واستقر الأمر بينهم على أن يكون الشام للعرب ويصير لأبى ركوة ومن معه مصر ، وتواعدوا ليلة يسير فيها أبو ركوة إلى الفضل . فإذا وصل إليه يتظاهر العرب بالهزيمة ويفتحون ثغرة فى قوات الخليفة الحاكم تنفذ منها قوات أبى ركوة .

لكن هذا الأمر لم يتم حسبما اتفق عليه ، لأن الماضى أرسل للفضل بتفاصيل هذا الاتفاق . وعمل الفضل على إفساده ، فجمع ليلة الميعاد رؤساء العرب ليفطروا عنده وأظهر أنه صائم وطاولهم الحديث ، ثم تركهم فى خيمة وسار بقواته لملاقاة جيش أبى ركوة . فحاربت

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢١٥ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٠ .

– ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٥٩ معارف عامة ، القسم الأول – جـ ١٦ ، ص ١٤٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٨٣ .

(٤) كوم شريك : قرية من القرى القديمة ، ورد ذكرها فى كتاب المسالك لابن خرداذبه أنها فى الطريق بين الفسطاط والإسكندرية . وفى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشاد أنه من أعمال حوف رمسيس ، وفى التحفة السنية أنها من أعمال البحيرة . وهى حاليا من أعمال البحيرة .

(محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى – الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٣٩) .

العرب معه ضد قوات أبى ركوة ولم يكن عندهم علم بما فعل رؤساؤهم. وبذلك استطاع الفضل أن يفسد الخطة المدبرة وأن يمنع الهزيمة التى كادت تحدق بقواته .

وأما المعركة الفاصلة التى انتهت بهزيمة أبى ركوة فقد لعب الحظ دوراً فيها — وقد دارت هذه المعركة عند موضع يعرف « بالسبخة » أو « رأس البركة » ، بعد نصف مرحلة من مدينة الفيوم [١]. وفى هذه المعركة قتل حوالى ثلاثين ألفاً من أتباعه [٢].

وكانت خطة أبى ركوة فى هذه المعركة هى أن يكمن بجزء من جيشه لجيش الفضل ويبرز له بعدد من قواته ، وعندما يتقابل الجيشان تتظاهر هذه القوات بالهزيمة وتتقهقر مستدرجة جيش الفضل إلى الكمين. ولكن حينما تم اللقاء بين الجيشين و بدأت قوات أبى ركوة الظاهرة تنفذ الخطة المتفق عليها وبدأت فى التقهقر ظن من فى الكمين أن الهزيمة لحقت بقواتهم ، فتركوا أماكنهم وهربوا يتبعون أصحابهم المتقهقرين . فاقتفى أثرهم رجال الفضل وقتلوا منهم ألوفاً كثيرة [٣].

ولمّا رأى بنو قرة الهزيمة تلحق بأبى ركوة تخلوا عن مواصلة القتال معه وطلبوا منه أن ينجو بنفسه ويهرب إلى بلاد النوبة ، فوافق على ذلك ، وهرب إلى بلاد النوبة . وأما بنو قرة فقد عادوا إلى مساكنهم بالبحيرة [٤].

هذا ويذكر ابن الأثير أنه كان هناك اتفاق بين أبى ركوة وملك النوبة على أن يمده بقوات من عنده لمواصلة القتال ضد أعدائه [٥]. وكان ملك النوبة قد أرسل بعض قوات له انضمت لقوات أبى ركوة واشتركت فى المعركة التى دارت عند الجيزه [٦] غير أن حاكم النوبة لم يرسل له قوات أخرى بعد هذه المعركة . ولمّا حلت الهزيمة الأخيرة بأبى ركوة وانفض

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٤ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢١ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٦٦ .

(٤) بعد هزيمة أبى ركوة، عاد بنو قرة إلى مساكنهم بالبحيرة واستمروا بها حتى طردوا منها فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٤٣ هـ بعد أن هزمتهم جموع طيىء وكلب ، وأنسحبوا إلى الصعيد وسكنوا قرى أسيوط (المقريزى : البيان والإعراب ، ص ١١٧) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٨٤ .

(٦) — Budge, E.A. Wallis: A History of Eithiopia, Nubia and Abyssinia, London 1928, vol. I, P. 105.

عنه أتباعه ولجأ إلى بلاد النوبة ، رأى ملك النوبة أن يتدارك الأمر حتى لا ينكشف تواطؤه مع أبي ركوة وتسوء العلاقة بينه وبين الحاكم بأمر الله . ولذلك قبض عليه وسلّمه لنائب الخليفة ، الذى أرسله بدوره إلى القاهرة ليشنق هناك ويصلب جسده .

وقد أجمعت المصادر العربية على ما ذكره ابن الأثير من أن أبا ركوة قبض عليه آخر الأمر فى بلاد النوبة ، وأن من قبض عليه سلّمه إلى نائب الخليفة . غير أن هذه المصادر اختلفت فى ذكر اسم من قبض على أبى ركوة : فمنها من أطلق عليه : صاحب النوبة دون تحديد ، ومنها من ذكر صراحة أنه ملك النوبة ، ومنها من أخبر بأنه نائب الملك صاحب حصن الجبل [1] .

وفى هذا الصدد يقول أبو صالح الأرمنى فى تاريخه : « قبض على أبى ركوة عند مدينة من بلاد مقره تعرف باسم بوسقا ، وكان بها مقام صاحب الجبل وبها دير أبو شنودة . وكان ذلك سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة للعرب ، وكان ملك النوبة آنذاك يدعى « روفائيل » [2] .

وقد زاد ابن خلدون الأمر إيضاحاً ، فذكر لنا أن الذى قبض على أبى ركوة هو « شجرة ابن مينا » قائد الخيل بالثغر (صاحب الجبل) [3] .

ولدينا بجانب ما ذكرته المصادر التى وردت الإشارة اليها عن دور صاحب الجبل فى القبض على أبى ركوة نصان آخران : أحدهما عن النويرى والآخر عن المقريزى . الأول يوضح أن أبا المكارم هبة الله شيخ ربيعة ساعد فى القبض على أبى ركوة ، والثانى يذكر أنه هو الذى ظفر بأبى ركوة .

فالنويرى يقول « انهزم أبو ركوة إلى بلاد النوبة وتبعه الفضل إلى الأعمال القوصية ، فكتب الحاكم إلى متملكها يقول إن عدو أمير المؤمنين الحاكم فى بلادك . وكتب إلى صاحب

---

(١) انظر – ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٨٤ ، ٨٥ .
– ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٤ ، ٦٥ .
– سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٣ .

(٢) تاريخ أبى صالح الأرمنى (كنائس وأديرة مصر) ، نشر ايفيتس ، أكسفورد ١٨٩٥ ، ص١١٩–١٢١ .

(٣) العبر : جـ ٤ ، ص ٥٩ .
– كان صاحب الجبل يعرف أيضاً بقائد الخيل بالثغر (المسعودى : مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٢٤٥
– وكان من ألقابه أيضاً « صاحب الخيل » – انظر نص النويرى بالمتن .

الخيل ، وهو نائب صاحب دنقلة ومقره ببلد ألدو ، فيما بين دنقله وأسوان ، وندب الفضل من العسكر من توجه لقبضه . وكان المساعد على مسكه الشيخ أبو المكارم هبة الله ، شيخ بنى ربيعة . وقيل إن أباركوة وجد فى دير يعرف بدير أبى شنودة فى أطراف النوبة فمسك ، وكان الطعن به فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وثلثمائة »[1].

وأما المقريزى فيذكر لنا . فى صدد حديثه عن قبيلة ربيعة – أن أبا يزيد ظل رئيساً عليها حتى مات ، وخلفه ابنه أبو المكارم هبة الله . وعن أبى المكارم هبة الله يقول . « فقام برياستهم بعده ولده أبو المكارم هبة الله بن الشيخ أبى عبد الله محمد ويعرف (بالأهوج المطاع) ، وهو الذى ظفر بأبى ركوة الخارج على الحاكم بأمر الله وقبض عليه . فأكرمه الحاكم إكراماً عظيما ولقبه كنز الدولة ، وهو أول من لقب بذلك منهم ، ولم تزل الإمارة فيهم وكلهم يعرفون بكنز الدولة[2] » .

ونستخلص من هذين النصين أن الذى قام بالدور الرئيسى فى القبض على أبى ركوة هو أمير ربيعة ، وأن ربيعة بعد أن هاجرت إلى هذه المنطقة استطاعت السيطرة عليها واتسع بها نفوذها ، الأمر الذى جعل الخليفة الحاكم بأمر الله يشعر بقوتها وعظيم نفوذها فى أرض المريس – ولهذا عمل على تشجيعها على الاستقلال الفعلى فى المنطقة لكى تكون حاجزاً بين مصر وبين مملكة النوبة المسيحية .

ويبدو أن تلقيب أمير ربيعة بلقب كنز الدولة هذا لم يكن أمراً جديداً استحدثه الخليفة الحاكم . فقد سبق أن ذكر المقريزى نقلا عن ابن سليم الأسوانى جملة ذكر فيها أن أولاد كنز الدولة غلبوا على النوبة وملكوها . فى هذا الصدد يقول على لسان ابن سليم الأسوانى ، « قال مؤلفه رحمه الله : وقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من سنة . . . . »[3] .

هذا ومن المعروف أن ابن سليم الأسوانى توفى فى عهد خلافة العزيز بالله والد الخليفة الحاكم بأمر الله ، أى أنه مات قبل أن يشهد أحداث ثورة أبى ركوة .

ويبدو كذلك أن لفظة « الكنز » هذه لفظة قديمة يرجع إطلاقها إلى عهد قدماء المصريين

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، (مخطوطة) ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٤ .

(٢) المقريزى : البيان والإعراب ، ص ٤٤ – ٤٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .

فالأستاذ بيكيت Beckett يوضح لنا فى مقال له بمجلة المجمع العلمى المصرى أن لفظة « كنز » أو « تاكنز » TA KENE كانت تطلق فى العصر القديم على جزيرة فى النيل عند الشلال الأول ؛ وأن معنى هذه اللفظة فى اللغة المصرية القديمة « أرض القوس » وإن كل فرد من أهالى تلك الجزيرة ينسب إليها فيقال له « كنزى ». هذا وقد أشتهر سكان تلك المنطقة من قديم الزمن بمهارتهم فى رمى القوس، وعرف عنهم العرب هذه الحقيقة عند غزوهم للنوبة فى حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١ هـ ، فأطلقوا عليهم اسم « رماة الحدق »[1]. وقد اختلط عرب ربيعة بسكان تلك المنطقة منذ أن هاجروا إليها وامتزجوا بهم امتزاجاً تامًّا ، ومن ثم عرفوا ببنى الكنز تمييزاً لهم عن القبائل العربية الأخرى .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول إن بنى ربيعة كانوا يعرفون ببنى الكنز قبل حكم الفاطميين لمصر ، وأن الخليفة الفاطمى — سواء أكان الحاكم بأمر الله أم خليفة سابق عليه — أضاف لقب « الكنز » للدولة ، ومنح هذا اللقب الجديد لرئيس ربيعة . هذا ولم يكن التلقيب بالإضافة إلى (الدولة) جديداً على الفاطميين ، فقد شاع هذا النوع من الألقاب عندهم تقليداً للخلفاء العباسيين . فأضفوا هذه الألقاب على بعض الوزراء والكتاب والولاة من باب المكافأة والاعتراف لهم بخدماتهم الجليلة للدولة[2].

ومهما كان أمر اللقب فإن الذى نخلص إليه فى هذا الصدد أن الخليفة الحاكم بأمر الله قدّر مكانة ربيعة وقدّر قوتها فى هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة بين مصر وبلاد النوبة ؛ ولهذا عمل على تشجيعها على الاستقلال الفعلى بإمارتها . ومن ثم ، أصبح لإمارة بنى الكنز منذ ذلك الوقت ، وضع خاص فى جنوب البلاد حتى نهاية دولة الفاطميين .

---

(١) Beckett: Nubia and the Berberine,)Cairo Scientific Journal, August, 1911, P. 196). —

(٢) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

٣ ـ علاقة بنى الكنز بالخلفاء الفاطميين بعد الخليفة الحاكم بأمر الله

تصمت المصادر فى الفترة ما بين سنة ٣٩٧ هـ وسنة ٤٦٦ هـ عن ذكر أية علاقة بين بنى الكنز وبين الدولة الفاطمية . ومن الجائز أن يفسر هذا الصمت على أن استمرار العلاقات الطيبة بين الطرفين ، خاصة وأن الإمارة ما زالت ناشئة وهى تدين بوجودها للخليفة الحاكم بأمر الله وتعتمد على ولائها للدولة الفاطمية فى تثبيت مركزها . ودليل ذلك أن أمراء بنى الكنز بعد أن رسخت أقدامهم فى إمارتهم انتهزوا فرصة ضعف الخلافة الفاطمية ، زمن الشدة المستنصرية ، وأعلنوا استقلالهم عن الدولة . وبسبب هذه المحاولة عادت المصادر للحديث ثانية عن علاقة بنى الكنز بالدولة الفاطمية وأشارت إلى تغير هذه العلاقة.

ففى سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م . أعلن كنز الدولة محمد استقلال إمارته التام عن الدولة الفاطمية مستغلا فى ذلك ، شأنه شأن باقى أمراء النواحى ، حالة الفوضى التى حلت بالبلاد فى أعقاب الشدة المستنصرية التى نتجت عن الخراب والدمار الذى لحق بها لمدة سبع سنوات (٤٥٧ ـ ٤٦٤ هـ)[١] . فى هذا الصدد يقول المقريزى أن قبيلة لواته ملكت الريف وأن الصعيد أصبح فى يد بنى الكنز وأن الطرقات براً وبحراً قد قطعت[٢] .

هذا ولم تستمر حركة الاستقلال هذه سوى ثلاث سنوات ، وذلك بسبب مبادرة أمير الجيوش بدر الجمالى إلى القضاء عليها . وكان بدر الجمالى قد وفد إلى القاهرة سنة ٤٦٦ هـ بطلب من الخليفة المستنصر[٣] ، وبمجرد وصوله تمكن من القضاء على الفوضى

---

(١) ـ ابن ميسر : تاريخ مصر ، نشر هنرى ماسيه ، طبعة المعهد العلمى الفرنسى ، القاهرة ١٩١٩ ، ص ٢٤
ـ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٧٠ .
— Quatremére: Métmoirés Géographiques et Historiques Sur L'Egypt, II, Paris 1811, P. 87.

(٢) يقول المقريزى : « وملكت لواته الريف وأصبح الصعيد فى يد العبيد (وهو يقصد بالعبيد بنى الكنز) ، وانقطعت الطرقات براً وبحراً » الخطط ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ٣٨٠)

(٣) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٠٧ .

التى سادت البلاد وإعادة الأمن والرخاء إليها . فعادت الأمور إلى نصابها فى العاصمة والفسطاط ، وأخذ بعد ذلك فى العمل من أجل تدعيم سلطة الدولة والقضاء على ثورات الأقاليم والحركات الاستقلالية بها . فاتجه أولا إلى الوجه البحرى وأخضع بنى لواته وكان عددهم اثنى عشرة ألف رجل[١]. كما توجه إلى دمياط وقتل فيها جماعة من المفسدين من العرب[٢].

ولما اكتملت له السيطرة على الوجه البحرى سار سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م إلى الصعيد للقضاء على ثورات عرب جهينة والثعالبة والجعافرة ، فانقض فجأة عليهم وأفنى أكثرهم وغنم منهم كثيراً من الغنائم[٣]. كذلك اتجه لملاقاة قوات كنز الدولة التى تحركت من أسوان لقتال قوات الدولة الفاطمية ووصلت فى مسيرها قرب بلدة إسنا . وعند إسنا دارت معركة حامية بين الفريقين انتهت بهزيمة قوات كنز الدولة وإبادة معظمها وفرار من بقى منهم إلى أسوان ومعهم كنز الدولة نفسه[٤].

وتخليداً لذكرى انتصاره فى هذه المعركة ، وتعبيراً عن شكره لله الذى وفقه لهذا النصر ، أمر بدر الجمالى ، أبا الحسين على بن النضر ، قاضى إسنا ، ببناء جامع فى موقع المعركة التى هزم فيها كنز الدولة وأن يطلق عليه اسم جامع النصر[٥]. وهذا الجامع يعرف الآن باسم الجامع العتيق أو العمرى[٦] ، وهو يشبه فى طراز بنائه جوامع : الجيوشى ، والسبع بنات ، وجامع الحاكم بأمر الله[٧].

---

(١) — Wiet: L'Egypte Arabe, Paris 1937, P. 250.

(٢) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٠٩ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : نفس المصدر السابق والصفحة .

(٤) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٦٤٣٤ ح ، الجزء الثالث ، ورقة ٨٧ .

— Van Berchem: Matériaux Pour un Corpus Inscriptinum Arab icarum. Ire partie, Egypte, Le Caire 1903, P. 700.

(٥) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوطة ، ج ٢٦ ، ورقة ٧٠ .

(٦) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٤٦ ، ج١ ، ص٦٤ ، ٦٥ .

— Quatremére: Mémoires Sur L'Egypte, T. II, P. 87.

(٧) — Edmond Pauty: Notes Sur Quelques Monuments Musimans, etCoptes en Haute Egypte, Le Caire 1929, P. 7.

وتشير اللوحة التذكارية لإنشاء هذا الجامع ، المكتوبة بالخط الكوفى ، والتى وجدت على يمين محرابه إلى أن أساسه وضع فى منتصف ذى الحجة سنة ٤٦٩ هـ[١] وهذا التاريخ يوافق تاريخ هزيمة كنز الدولة على يد بدر الجمالى . وبهذا يؤكد لنا النقش الأثرى صحة هذه الحقيقة[٢].

وبعد أن وضع بدر الجمالى أساس جامع إسنا سار إلى أسوان مطارداً كنز الدولة . وعند منطقة الشلال ، جنوبى أسوان ، اشتبك معه فى معركة أخرى هزم فيها أيضاً كنز الدولة ، وولى بعدها هارباً إلى دنقلة ، وبهذا الانتصار أعاد بدر الجمالى نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلى حتّى أسوان[٣].

ويبدو أن بدر الجمالى أمر ببناء مسجد ، أو أكثر من مسجد . فى المنطقة التى هزم فيها كنز الدولة جنوبى أسوان على الضفة اليمنى للنيل تخليداً لانتصاره مثلما فعل عند إسنا . فى هذه المنطقة ، وفى قريتين من قراها قائمتين على سفح الجبل ، وهما قرية المشهد البحرى التى تعرف أيضاً بقرية « الباب » ، وقرية المشهد القبلى التى تعرف أيضاً بقرية « بلال » ، يوجد فى كل منهما مسجد تعلوه مئذنه[٤]. كما يوجد مسجد ثالث فى هذه المنطقة تعلوه مئذنة مشابهة للمئذنتين السابقتين . وهذه المآذن الثلاث التى يعرفها أهالى أسوان والشلال باسم « مآذن بلال » بنيت كلها وفق طراز معمارى واحد ، يشبه طراز مئذنة جامع الجيوشى الذى بناه بدر الجمالى فوق جبل المقطم . وقد أثبت المرحوم الأستاذ حسن الهوارى فى مقال له بمجلة المجمع المصرى أن تاريخ بناء هذه

---

(١) M Van Bercham: Op. Cit, I, P. 699.

كان الفراغ من عمل سقوف هذا المسجد سنة ٤٧٠ هـ، بإشراف القاضى أبى الحسين على بن النضر، واكتملت منارته سنة ٤٧٤هـ بأمر فخر الملك سعد الدولة أبى منصور سارتكين القواسى، ومازالت هذه المنارة باقية حتّى الآن وهى أهم ما بقى من أصل هذا الجامع ، وتعتبر على ما يبدو أقدم نموذج كامل للمنارات الإسلامية بمصر وعلى منوالها أنشئت المنارات فى الوجه القبلى . كما بقيت اللوحة التذكارية لإنشائها وهى مثبتة على يسار المحراب ومكتوبة بالخط الكوفى (حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، جـ ١ ، ص ٦٦) .

(٢) انظر نص اللوحة التذكارية لإنشاء هذا الجامع فى الملحق رقم (٢) ، ص ١٤٦ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية ، ص ١٠٩

(٤) يطلق على أحد هذه المساجد اسم « حنضل أسيو » (محمد كامل حته : أسوان فى الماضى والحاضر والمستقبل ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ٣٠) .

المساجد بمآذنها الثلاث إنما يرجع إلى حوالى سنة ٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢م ، أى إلى هذه الفترة المعاصرة لحملات بدر الجمالى فى أقصى الصعيد ضد كنز الدولة ، أو بعدها بقليل [١].

ويبدو أن بدر الجمالى أمر بدفن من قتل من رجاله فى المعركة الأخيرة ضد كنز الدولة فى جبانة أسوان القديمة ، والدليل على ذلك تلك القبور التى وجدت فى تلك الجبانة والتى يرجع تاريخ شواهدها إلى عهد الخليفة المستنصر بالله [٢].

وأما كنز الدولة فقد وقع فى قبضة يد ملك النوبة عندما فر إلى بلاده ، وكانت العلاقات وقتها طيبة بين ملك النوبة والخليفة الفاطمى [٣] ، فضلا عن صلة الولاء الدينى الذى يربط ملك النوبة ببطريرك الكنيسة القبطية. ومن ثم بادر بدر الجمالى بإرسال الشريف سيف الدولة ومعه الأسقف « مرقوره » Mercnre الذى يعرف بالوعواع [٤] والذى كان مزوداً بكتاب توصية من البطريرك القبطى إلى ملك النوبة ، يطلبان منه باسم الخليفة تسليم كنز الدولة إليهما . ولهذه الاعتبارات السياسية والدينية استجاب ملك النوبة لهذا الطلب فسلمهما كنز الدولة سنة ٤٧٤ هـ تقريباً . ولما وصل كنز الدولة إلى القاهرة فى السنة التالية قتله بدر الجمالى ثم صلب جثته على الباب الجديد [٥].

---

(١) — Hassan El Hawary: Trois Minarets Fatimides à la Frontiére Nubienne) Bulletin de L'Institute Egyptian, 4 Mars 1939, T. XVII, PP. 141, 153).

(٢) عبد الرحمن عبد التواب : يوميات حفائر جبانة أسوان ، حفريات مصلحة الآثار بأسوان الموسم الأول من ديسمبر ١٩٦٠ إلى فبراير ١٩٦١

(٣) كانت علاقة ملك النوبة مع الخليفة الفاطمى ، وكان ملك النوبة يرسل إليه الهدايا على الدوام (راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٣٥) .

(٤) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، مخطوطة ، جـ ٣ ، ورقة ٨٧ ب .

— Quatremére: Mémoires Sure L'Egypte T. II, P. 88.

(٥) ساويرس بن المقفع : نفس المصدر السابق ونفس الورقة .

— النويرى : نهاية الأرب ، مخطوطة ، جـ ٢٦ ، ورقة ٧٠ .

— الباب الجديد هو الباب الذى أنشأه بدر الجمالى فى سور القاهرة الشرقى، وعرف بهذا الإسم كما عرف أيضاً بباب التوفيق ، كما كان يوجد بالسور الشرقى للقاهرة ثلاثة أبواب أخرى وهى : باب البرقية ، وباب المحروق ، وباب الوزير — انظر :

— CRESWELL: The Muslim Architecture of Egypte, Vol. II, Oxford 1959, Chap. III, P. 59.

— WIET: Une Nouvelle inocription Fatimide au Cairo, JA, T. CCXLIX, année 1961, P. 13.

هذا وقد استغل بقيه أمراء بنى الكنز وساطة ملك النوبة لدى بدر الجمالى للصفح عنهم وإعادة نفوذهم السابق فى منطقة إمارتهم . فسار اثنان من إخوة كنز الدولة محمد ، بعد القبض عليه سنة ٤٧٤ ﻫ ، إلى ملك النوبة « سالمون » وطلبا منه التوسط لهما عند بدر الجمالى فى الصفح عنهما ، فأرسل ملك النوبة بدوره معهما رسولا من قبله إلى بدر الجمالى ومعه طلب العفو عن بنى الكنز . وتقديراً لموقف ملك النوبة الطيب مع بدر الجمالى ، قبل بدر الجمالى وساطته وعفا عن بنى الكنز ورضى بعودة نفوذهم فى منطقة إمارتهم عند أسوان [١] .

ويتفق كل من أسقف الأشمونين وأبو صالح الأرمنى على أن بدر الجمالى عين ابن أخ كنز الدولة محمد واليا على أسوان بعد قرار العفو عن بنى الكنز ، وذلك على وجه التقريب سنة ٤٧٤ ﻫ . وهذا الوالى الكنزى الجديد هو « سعد الدولة سارتكين القواسى » [٢] ، وهو الذى أتم بناء مئذنة جامع إسنا السابق الذكر ونقش اسمه على اللوحة التذكارية لإنشاء هذه المئذنة [٣] .

وظلت علاقة سعد الدولة طيبة بالخلافة الفاطمية ، سواء خلال السنوات المتبقية من خلافة المستنصر حتى وفاته سنة ٤٨٧ ﻫ ، أو خلال سنوات خلافة المستعلى بالله . والدليل على ذلك اشتراكه فى الحملة ضد الفرنج سنتى ٤٩٣ ، ٤٩٤ ﻫ بتكليف من الأفضل ابن بدر الجمالى ، ومقتله بعسقلان خلال إحدى المعارك الصليبية التى دارت هناك [٤] .

وسعد الدولة هذا هو آخر من استطعنا أن نتعرف عليه من ولاة بنى الكنز على أسوان فى العصر الفاطمى . فالمصادر التاريخية لا تمدنا بأية أخبار عن بنى الكنز بعد وفاته

---

(١) ساويرس بن المقفع : نفس المصدر السابق ، ورقة ٨٨ ب ، ٨٩ أ .

— Quatremére: Op. Cit, T. II, P. 88.

(٢) سير الآباء البطاركة ، مخطوطة ، ج ٣ ، ورقة ٩٠ أ .

– تاريخ أبى صالح الأرمنى ، ص ١٢٤ .

(٣) يتفق تاريخ بناء المئذنة (سنة ٤٧٤ ﻫ) مع تاريخ الأحداث التى ذكرناها كما هو ثابت بالنقش . وهذا النقش دليل مادى لا يرقى إليه الشك (انظر نص النقش فى الملحق رقم (٣) ، ص ١٤٧) .

(٤) العينى : عقد الجمان ، مخطوطة ، ج ١٧ ، ص ٤٣٩ .

– أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥٢ .

— WIET: Nouvelles èncriptions Fatimides,) Extrait du Bulletin de L'Institute d'Egypte, T. XXIV, —Session 1941 - 1942, pp. 146-147).

حتى أواخر أيام العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين ، ووزارة صلاح الدين . ومن ثم فنحن لانستطيع أن نتتبع طبيعة العلاقات بين بنى الكنز وبقية الخلفاء الفاطميين . وإذا كنا لانستطيع التعرف على ذلك بطريقة مباشرة إلا أن ما ذكره كل من أبى المحاسن والأدفوى عن وجود ولاة لأسوان — فى هذه الفترة — من غير بنى الكنز ، يجعلنا نستخلص أن العلاقة بين الطرفين لم تكن على ما يرام .

فأبو المحاسن عند حديثه عن طلائع بن رزيك سنة ٥٤٤ هـ يقول . إن خدام القصر كتبوا إلى طلائع بن رزيك ، وهو والى قوص وأسوان والصعيد، يخبرونه بقتل الظاهر »[1].

والأدفوى فى ترجمته للقاضى محمد بن إبراهيم بن أحمد بن نصر أبو الحسن الأسوانى يقول عنه ، « كان حاكماً بأسوان وكان خطيب بلده وحاكمها سنة ثلاث وستين وخمسمائة . وقفت على مكاتبته وكنيته رضى الدولة ، وكانت ولايته من جهة العاضد ، ولاه أسوان وإسنا وأرمنت ، ووقفت على مكتوب ولايته فى ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة »[2].

وفى ضوء هذين النصين يمكننا أن نستنتج أن العلاقات بين بنى الكنز والفاطميين قد ساءت — خلال هذه الفترة الأخيرة لسبب أو لآخر . ربما يكون بنو الكنز قد قاموا بمحاولة استقلالية أخرى غير تلك التى قاموا بها فى خلافة المستنصر بالله . وربما يكون ذلك بسبب تخوف خلفاء الفاطميين من أن يؤدى ازدياد نفوذ بنى الكنز فى جنوب البلاد إلى تفكيرهم مرة أخرى فى الاستقلال بإمارتهم . وهذا من شأنه أن يدفع الفاطميين إلى تنحية بنى الكنز عن ولاية أسوان وتعيين ولاة غيرهم عليها لايستندون إلى عصبية قبلية محلية كتلك التى يستند عليها بنو الكنز .

• • •

(١) النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٩٢ .

(٢) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

٤ – موقف بنى الكنز من ثورة مؤتمن الخلافة وثورة السودان ضد صلاح الدين

أدى تطور الأحداث فى مصر فى أواخر أيام الفاطميين إلى سقوط دولتهم ونهاية خلافتهم على يد صلاح الدين . هذا ومن المعروف أن صلاح الدين منذ أن وزر للخليفة الفاطمى العاضد (سنة ٥٦٧ هـ) ، أخذ يفكر فى الاستقلال بحكم مصر . ونطلب منه ذلك أن يدعم مركزه فى البلاد ويثبت أقدامه فيها فاستبد بالأمور دون الخليفة ومنعه من التصرف فى شيء وصادر ممتلكاته وزاد فى التضييق عليه وعلى رجال قصره فى الوقت الذى قام فيه بإقطاع أصحابه وقواد جيشه البلاد[1] .

وأثار ذلك الأمر أعوان الفاطميين وأتباعهم فحاولوا استعادة سلطانهم ونفوذهم فى البلاد. وكان على رأس هؤلاء الثائرين متحكم القصر « مؤتمن الخلافة نجاح » ، الذى دبر بالاتفاق مع الفرنج مؤامرة للتخلص من صلاح الدين والقضاء على نفوذ بنى أيوب فى مصر .

غير أن هذه المؤامرة لم يقدر لها النجاح ، فقد أدت المصادفة إلى اكتشافها ، وبالتالى إلى إحباطها[2] . ونجح صلاح الدين فى القبض على القائمين بها كما تخلص من مؤتمن الخلافة بأن أرسل إليه من قتله فى منطقة أقطاعه[3] .

وشدد صلاح الدين ، بعد إحباط هذه المؤامرة ، قبضته على قصر الخليفة . فعزل جميع الذين يتولون أمر القصر واستعمل عليه أحد رجاله وهو بهاء الدين قراقوش ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٦٦

— Casanova: Les Derniers Fatimides)Mémoires de la Mission d'Archealogique duCaire, Paris 1890, T. III, P. 415) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٥٥ .

(٣) – ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشر جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ، جـ ١ ، ص ١٧٦ .

– أبوشامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، طبعة بولاق ١٢٨٨ هـ ، جـ ١ ، ص ١٧٨ .

– كانت منطقة إقطاعه بقرية قرب قليوب تعرف بالخرقانية .

الذى تولى زمام القصر وقام بإذلال جميع من فيه [١].

ولما علم عبيد القصر والجند السودان بمقتل مؤتمن الخلافة تألموا لذلك كثيراً لأن حبهم له كان شديداً ، فثاروا ضد صلاح الدين وخرجوا فى عدد كبير يزيد عن الخمسين ألفاً وقصدوا حرب الأجناد الصلاحية [٢]. وكان جند السودان يمثلون فى الدولة الفاطمية قوة كبيرة مؤثرة فرضت نفوذها — ولا سيما فى الفترة الأخيرة من حكمها — على الوزراء [٣].

وانضم للسودان فى ثورتهم أعداد كبيرة من الأمراء والعامة ، وحملوا السلاح واتجهوا إلى دار الوزارة ، قرب باب النصر ، حيث يقيم صلاح الدين [٤]. وفى شوارع القاهرة دارت معركة عنيفة بين جنود صلاح الدين وبين الجند السودان وكاد السودان أن ينتصروا فى المعركة الكبيرة التى استمرت يومين عند بين القصرين، غير أنهم هزموا فى نهاية الأمر [٥] وبعد ذلك أخذوا ينسحبون إلى محلتهم التى كانت تعرف بالمنصورة [٦] ، وهناك لحقت بهم قوات صلاح الدين ، بقيادة أخيه توران شاه ، فقتلت عدداً وافراً منهم ، وأمر صلاح الدين بإحراق هذه المحلة على من فيها، فهرب من بقى بها من السودان إلى الجيزة . وتعقبتهم قوات توران شاه إلى هناك وقتلت عدداً آخر منهم .

وأما من نجا من القتل فقد فر إلى أقصى الصعيد حيث لجأ إلى إمارة بنى الكنز ، وقد رحب بهم بنو الكنز وأخذ الجميع يستعدون لحرب صلاح الدين والثأر منه . ونحن لا نعرف سبب ترحيب بنى الكنز بهؤلاء السودان ، ربما كان ذلك نوعاً من التعاطف معهم ، أو تعبيراً عن ولائهم للفاطميين أو أملا فى الاستفادة من هؤلاء السودان المدربين على الحرب إذا ما فكر صلاح الدين فى القضاء على إمارتهم واضطروا للدفاع عن كيانهم .

وكيفما كان الأمر فقد أدى ذلك إلى أن يضمر صلاح الدين لبنى الكنز العداء، وازداد عداؤه على مدى الأيام، مما أدى فى النهاية إلى محاربتهم والقضاء على إمارتهم .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٣) يقول أبو شامة (الروضتين ، ج ١ ص ١٧٨) : « كان السودان إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه » .

(٤) المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

— المقريزى : نفس المصدر السابق والصفحة .

(٦) يقول المقريزى إن المنصورة كانت تقع قرب بركة الفيل خارج باب زويلة (الخطط ، طبعة بولاق ، ج ٢ ص ١٨) .

الباب الثالث

علاقة بنى الكنز بالأيوبيين والمماليك

علاقة بنى الكنز بالأيوبيين وبالمماليك

(ا) علاقة بنى الكنز بالأيوبيين :

١ – علاقة بنى الكنز بالسلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب :

– إمارة بنى الكنز الأولى وقت أن تولى صلاح الدين حكم مصر .
– موقف بنى الكنز من سقوط الخلافة الفاطمية .
– تعاون بنى الكنز مع صلاح الدين فى بداية حكمه ودوافع هذا التعاون .
– العداء بين الطرفين وأسبابه .
– ثورة بنى الكنز .
– ثورة عباس بن شادى وعلاقتها بثورة بنى الكنز .
– هزيمة بنى الكنز على يد قوات صلاح الدين ونهاية إمارتهم الأولى عند أسوان .

٢ – علاقة بنى الكنز بسلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين :

– صمت المصادر التاريخية وعدم تعرضها لهذه العلاقة .
– تفسير هذا الصمت .

(ب) علاقة بنى الكنز بالمماليك :

١ – وضع بنى الكنز فى بلاد النوبة الشمالية مع بداية قيام دولة المماليك فى مصر .
٢ – بنو الكنز والحملات المملوكية على النوبة .
٣ – بنو الكنز يقيمون إمارتهم الثانية فى دنقلة ويرثون عرش مقرة سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م .
– سياسة الملك الناصر محمد بن قلاوون مع بنى الكنز .
– سياسة سلاطين المماليك بعد الناصر محمد مع بنى الكنز .
٤ – نهاية دولة بنى الكنز سنة ٨١٥ هـ /١٤١٢م .
– وضع بنى الكنز السياسى بعد هذا التاريخ .
– هجوم قبائل هواره وجهينه على الصعيد وأثر ذلك على بنى الكنز .
– بنو الكنز بعد الفتح العثمانى لمصر .

(ا) علاقة بنى الكنز بالأيوبيين

عاشت إمارة بنى الكنز الأولى عند أسوان عصرها الذهبي أيام دولة الفاطميين فى مصر ، وتمتع أمراؤها باستقلال ذاتى فى ظل رعاية خلفاء هذه الدولة . غير أن هذه الإمارة لم تحظ برعاية سلاطين الأيوبيين ، كما كانت نهايتها على يد صلاح الدين أول هؤلاء السلاطين .

١ ـ علاقة بنى الكنز بالسلطان الناصر صلاح الدين :

أقام بنو الكنز إمارتهم الأولى عند أسوان ، وكانت بمثابة « الإمارة الحاجزة » فى جنوبى البلاد ، بين دولة الخلافة وبين مملكة النوبة المسيحية. وقد أرتاح الخلفاء الفاطميون لوجود هذه الإمارة النوبية عند حدود البلاد الجنوبية بسبب ولاء أمرائها لهم . وأغلب الظن أن هذا الولاء كان ولاءا سياسيا ولم يكن ولاءا دينيا فما أوردته لنا المصادر — فى هذا الصدد — لا يفهم منه صراحة أن بنى الكنز أعتنقوا المذهب الشيعى . فابن خلدون — فى حديثه عن بنى الكنز — يذكرلنا « أنهم كانوا شيعة للعلويين بمصر » . والأرجح أن ابن خلدون يقصد بقوه هذا أنهم كانوا أشياعا للفاطميين وموالين لهم [١] . كما أن الأدفوى لم يحدثنا عن اعتناق بنى الكنز لهذا المذهب، وإن كان قد أشار فى حديثه عن مدينة أسوان زمن الفاطميين إلى انتشار التشيع بها [٢]. هذا ومن المعروف أن عامة المصريين لم يتحمسوا لمذهب التشيع ، ولهذا اندثر هذا المذهب بمجرد سقوط الدولة الفاطمية [٣]. وفضلا عن ذلك فإن مجريات الحوادث فى بداية العهد الأيوبى تجعلنا نرجح الرأى الأول [٤].

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٢٨٨ .

(٢) الادفوى : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، ص ٣٤ .

(٣) على الرغم من أن الخلافة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها الشيعى بين أهالى البلاد التى ضمت إلى حوزتها فأنها لم تنجح فى ذلك السبيل فظل المذهب السنى محتفظا بقوته رغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمى خوفا من تطبيق القوانين الجائرة التى فرضها الفاطميون على مخالفيهم فى المذهب . كذلك كان من الأسباب التى جعلت أهل السنة فى مصر يحتفظون بمذاهبهم وتقاليدهم تلك التشريعات التى ادخلها الفاطميون ، إذ رأوا فيها ما يتنافى مع ما نص عليه القرآن وما أثر عن السنة (محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ٨٤، ٨٥) .

(٤) أنظر فيما بعد .

ولهذا كان من الطبيعي أن يستمر ولاء بنى الكنز السياسى للفاطميين طالما ظلت دولتهم قائمة ، وأن يزول هذا الولاء بمجرد زوال دولتهم . ذلك أن وضع إمارتهم كان يقتضى منهم الحرص على بقاء إرتكازهم السياسى وصلاتهم الطبيعية بالدولة التى تقوم فى مصر ، أيا كان لونها السياسى والمذهبى . ومن ثم فإن سقوط الخلافة الفاطمية وغروب شمسها عن البلاد لم يدفع بنى الكنز إلى معاداة صلاح الدين وإلى المخاطرة بإمارتهم .

ومما يدعم ذلك الرأى أننا نجدهم يعرضون عن مساندة الحركات التى قام بها أشياع هذه الدولة المخلصون لإعادتها [١] ، كما نجدهم يثبتون عمليا رغبتهم فى التعاون مع صلاح الدين فى بداية حكمه . فقد اشتركوا مع قواته فى الدفاع عن جنوب البلاد حين تعرضت لغزو النوبة ، كما إشتركوا فى الحملة التى أرسلها لغزو النوبة حين فكر فى فتح هذه البلاد لتكون ملجأ له ولأسرته فى حالة تعرضه لهجوم من جانب سيده نور الدين محمود بن زنكى [٢] .

فأما عن التعاون الأول فيخبرنا أبو شامه — فى حديثه عن أحداث سنة ٥٦٨ هـ — أن الأمير كنز الدولة ، أمير أسوان ، هو الذى قام بالدفاع عنها عندما خرج النوبيون فى هذه السنة فى أعداد كبيره بقصد غزو مصر وهاجموا أسوان وحاصروها ونهبوا قراها . كما أن الأمير كنز الدولة طلب النجدة من صلاح الدين ليتمكن من الصمود أمام هذه القوات الغازية . وكانت محاولة النوبيين هذه واحدة من المحاولات الكثيرة التى كانوا يقومون بها بقصد نهب وتخريب صعيد مصر فى فترات الضعف التى تتعرض لها البلاد ، أو فى فترات الإنتقال من عهد إلى آخر والتى كانت تتسم عادة بالاضطرابات . وقد أسرع صلاح الدين بالعمل على إحباط هذه المحاولة فأرسل الشجاع البعلبكى على رأس قوة من جنده نجدة لكنز الدولة . وما أن وصلت هذه القوة إلى أسوان حتى وجدت النوبيين يولون الأدبار عائدين إلى بلادهم . وكاد الأمر

---

(١) من أبرز المحاولات التى تمت لإعادة الخلافة الفاطمية تلك المحاولة التى قام بها الشاعر عمارة اليمنى سنة ٥٦٩ هـ ، واشترك معه فيها جماعة من زعماء الشيعة والجند المصريين والسودان وجماعة من أمراء صلاح الدين وجنده . وحاول أقطاب هذه الحركة الاتصال بالفرنج وبالحشيشية الباطنية ، واستهدفت القضاء على صلاح الدين وعلى نفوذ بنى أيوب من مصر ومبايعة الأمير داود بن العاضد والدعوة له . غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل بسبب اكتشاف صلاح الدين أمرها قبل تنفيذها وقبضه على المتآمرين وشنقهم جميعا عند بين القصرين (ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٣١ ، ورقة ٢٢ ب — ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٧٩ — أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ج ١ ، ص ٢١٩ ، ٢٢١) .

(٢) أنظر فيما بعد .

يتوقف عند هذا الحد لولا أن قوات بنى الكنز ، التى أنضمت إليها ، شجعت أفراد هذه القوة على مطاردة النوبيين فى أرض مريس . وهناك اشتبكوا معهم فى معركة حامية ، ثم عادوا أدراجهم [١] .

كما أشترك بنو الكنز بأعداد كبيرة فى الحملة التى أرسلها صلاح الدين إلى بلاد النوبة بقيادة أخيه توران شاه [٢] . وتوغلت هذه القوات المشتركة فى بلاد النوبة حتى بلدة إبريم . واستولت عليها وأسرت عددا كبيرا من أهلها [٣] . غير أنها سرعان ما عادت أدراجها بعد أن رأى توران شاه فقر هذه البلاد وعدم صلاحيتها لتحقيق ما يصبو إليه أخوه صلاح الدين [٤] . وعلى الرغم من هذه النتيجة السلبية فقد حققت هذه الحملة نصراً سياسياً لا يقل أثراً عما كانت تهدف إليه من غزو هذه البلاد ، إذ أبرزت لمملكة النوبة مدى قوة الحكم الجديد الذى قام فى مصر وقدرته على ردع النوبيين إذا ما عادوا إلى مهاجمة صعيد مصر [٥] .

---

(١) الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ .

(٢) هو الأخ الأكبر لصلاح الدين ، توفى فى ثغر الأسكندرية فى الخامس من صفر سنة ٥٧٦ هـ (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٨ ، جـ ١ ، ص ٢٧٣) .

(٣) يبالغ ابو صالح الأرمنى فى تاريخه (ص ١٢٢) فى وصف ما فعله توران شاه بأهل إبريم ، فيذكر أنه قتل وأسر عددا كبيرا منهم ، كما ذكر أن عدد السبى منهم كان سبعمائة ألف من الرجال والنساء والفتيان الصغار . وذكر أنه خرب كنيسة العذراء مريم التى كانت هناك وحولها إلى مسجد بعد أن سجن أسقفها فى قلعة مهجورة هناك وذبح سبعمائة خنزير . عن هذه الحملة أنظر :

— Arkell: A History of the Sudan, P. 195:

— Budge, E.A. Wallis: A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, London 1928, vol. I, P. 105.

— Greener: High Dam Over Nubia, London 1962, P. 184.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٧٣ .

— ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ .

— ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، مخطوطة ، بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٥٩ معارف عامة ، القسم الثالث ، الجزء الثانى ، ورقة ٤٩٢ .

(٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ ، القسم الأول — الجزء الأول ، ص ٥١ .

معاداة صلاح الدين لبنى الكنز :

كانت إمارة بنى الكنز بمثابة إقطاع أقطعه لهم خلفاء الفاطميين . وقد تمتع بنو الكنز فى إقطاعهم هذا بجنوب البلاد بسلطة شبه تامة فى العهد الفاطمى ، وأصبحت لهم – تقريباً – كل السلطات الحكومية التى كان يتمتع بها المقطع والوالى فى ذلك العهد [١] . فلم يكن يربطهم بالخلافة الفاطمية سوى التزامهم بالاشتراك بقوة من رجالهم مع الجيش الفاطمى إذا ما دعا داعى الحرب ، والتزامهم بأن يدفعوا لها الضرائب المقررة على إقطاع إمارتهم [٢] . يضاف إلى ذلك أنهم أخذوا يوسعون نطاق إمارتهم بما كانوا يضمونه إليها من أراضٍ فى بلاد النوبة ، وأنهم أخذوا يستفيدون من خيرات هذه الأراضى ، الأمر الذى تسبب فى يسر حالهم وزيادة ثرائهم [٣] .

لذا لم يتقبل بنو الكنز الوضع الجديد الذى فرضه صلاح الدين على البلاد حين قام بإلغاء الإقطاعات القديمة ووضع يده على كل موارد البلاد ، وقام بتقسيمها إلى إقطاعات جديدة ، إدارية وحربية ، قصر توزيعها على أهل بيته وأقربائه وكبار قواد جيشه [٤] . وقد استن صلاح

---

(١) جرت الدولة أحياناً فى عهد الفاطميين على قاعدة أن الشخص الذى أحرز أرضاً تتفق مساحتها مع وحدة إدارية تصبح إقطاعاً له وتصبح له حقوق كل من المقطع والوالى على أن يضطلع بأعباء والتزامات كليهما ولاسيما فيما ينهم به من ضرائب الإقليم فى نفقات الإدارة والجيش (المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، جـ ١ ص ٩٦) .

(٢) عن مناشير الإقطاع فى العهد الفاطمى – انظر القلقشندى : صبح الأعشى ؛ جـ ١٣ ، ص ١٣١–١٣٨ .

(٣) كان الولاة فى العهد الفاطمى يحصلون فى الأقاليم التى يتولون إدارتها على إقطاعات تزيد من نفوذهم وسلطانهم الإقليمى ، وفى هذه الحالة صاروا يمارسون فى إقطاعهم كل ما للمقطع من سلطة مالية وجميع ما للوالى من سلطة إدارية ، فضلا عما لهم من سلطان على ضياعهم (السيد الباز العرينى : الإقطاع فى الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، فصله من حوليات كلية الآداب – جامعة القاهرة ، العدد الرابع – يناير ١٩٥٧ ، ص ١٣٣ ، ١٣٤) .

(٤) نقل صلاح الدين إلى البلاد ما هو معروف بالإقطاع السلجوقى والزنكى ، وهو نوعان : إقطاع إدارى اختص به الأمراء من الأسر الحاكمة وكبار الأمراء ، وتتفق هذه الإقطاعات عادة مع وحدة إقليمية إدارية وإقطاع حربى اقترن ما يؤديه المقطع من خدمات حربية وخضع لسيطرة الحكومة المركزية (الباز العرينى : الإقطاع فى الشرق الأوسط ، ص ١٣٤) .

الدين بذلك سنة سار عليها سلاطين مصر من بعده [1] . ومن ثم فقد ساءهم أن يقطع السلطان إمارتهم إلى أخيه توران شاه ، الذى أقطعها بدوره إلى « أخى أبى الهيجاء السمين » أحد كبار قواده [2] . وكان عليهم أن يختاروا أحد أمرين : إما أن يستسلموا لإرادة السلطان ويتخلوا عن الإمارة والنفوذ، وإما أن يتحدوا قرار السلطان ويرفضوا الإذعان لمشيئته ويقوموا بالثورة ضده . وقد اختار بنو الكنز الأمر الثانى للمحافظة على إمارتهم ومصالحهم ، ولهذا أعلنوا الثورة ضد صلاح الدين .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل أحداث هذه الثورة يحق لنا أن نتساءل عن السبب الذى دفع صلاح الدين إلى القضاء على حقوق بنى الكنز المكتسبة ، وإلى أن يسلبهم سلطتهم ونفوذهم على الرغم مما أبدوه من نية صادقة فى التعاون معه ، وعلى الرغم من استعدادهم فى الإستمرار فى هذا التعاون .

للإجابة على هذا السؤل يجب أن نضع نصب أعيننا :

(١) إن صلاح الدين حين عزم على الاستقلال بحكم مصر وضع لنفسه سياسة ترمى إلى إقامة دولة له ولأبنائه من بعده تكون له فيها كل السلطات ، وهذا يقتضى منه — فى المقام الأول — إلغاء جميع الامتيازات القديمة التى كانت لأتباع الفاطميين وأشياعهم ليتحقق له القضاء على بقايا النفوذ الفاطمى وبقايا نفوذ أشياعهم فى البلاد . ولهذا ألغى صلاح الدين الإقطاعات القديمة ، ووضع نظاما جديدا للإقطاع قصر توزيع الإقطاعات فيه على رجال أسرته وعلى كبار قواده .

(٢) كان صلاح الدين يخشى تمرد بنى الكنز عليه ، مستعينين فى ذلك بما تجمع لديهم من أعداد هائلة من فلول ثورتى مؤتمن الخلافة وعمارة اليمنى من الجند المصريين والسودان . وكان يهم صلاح الدين أن يدعم نفوذه فى جنوب البلاد ويقضى على أى خطر يتهدده هناك حتى يتفرغ لمواجهة الأخطار التى تعرضت لها البلاد من ناحية الصليبيين بالشام .

---

(١) يقول المقريزى معلقا على ذلك « منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده (الخطط ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ٩٦) .

(٢) أقطع صلاح الدين أخاه : قوص وأسوان وعيذاب ، وكانت عبرة هذا الإقطاع ٢٦٦ ألف دينار سنة ٥٦٥ هـ ، منها عبرة قوص وحدها مائة ألف دينار فى السنة (إبراهيم على طرخان : نظام الإقطاع الإسلامى فى العصور الوسطى إلى نهاية عصر الأيوبيين ، رسالة ماجستير محفوظة بجامعة القاهرة ، ص ٩١ ، ٩٢) .

(٣) وهناك أيضاً سبب هام دعى صلاح الدين إلى القضاء على نفوذ بنى الكنز ، وهذا السبب يرتبط بسياسته تجاه بلاد الحجاز. ففضلا عن أن صلاح الدين سار على نهج الفاطميين فى بسط سيادة مصر على بلاد الحجاز [١] ، فإن هذه السيادة على بلاد الحجاز كانت تدعم مركزه الدينى فى معركة الجهاد ضد الصليبيين فى العالم الإسلامى [٢]. وقد تحقق لصلاح الدين السيادة على بلاد الحجاز سنة ٥٧٢هـ ، كما تلقب بلقب « خادم الحرمين الشريفين » وخطب له على منابرها [٣]. وتأكيدا لهذه السياسة الدينية عمل صلاح الدين على رفع المظالم المالية التى كان يتعرض لها الحجاج المسلمون عند مرورهم بمصر ، وعند نزولهم بجدة . وأثناء وجودهم بمكه . فأسقط سنة ٥٧٢ هـ ١١٧٦–١١٧٧م ما كان يجبى من الحجاج المسلمين من مكس وزكاة أموالهم حسبما استقر عليه الأمر زمن الفاطميين ، وخاصة فى ميناء الإسكندرية وميناء عيذاب. وعوض أمير مكة عما كان يجبى له بجدة ومكة من مكس الحجاج ألف دينار وألف إردب من القمح سنويا ، عدا أقطاعات أقطعها له بصعيد مصر وبجهة اليمن [٤]. وأوقف كذلك بعض الأوقاف فى مصر على الحرمين ، كما قام بإرسال الكسوة الشريفة إلى الكعبة المكرمة كل عام فى احتفال مهيب [٥].

وتحقيقا لهذه السياسة حرص صلاح الدين على أن يسيطر على طريق الحج الوحيد الذى كان يربط مصر وشمال أفريقية ببلاد الحجاز . وهو طريق : قوص – عيذاب – جدة [٦] . وهذا الطريق يقع فى نطاق إمارة بنى الكنز .

---

(١) تطلعت مصر إلى السيادة على بلاد الحجاز منذ أن تمكنت من تحقيق استقلالها عن العباسيين ، أى منذ قيام الدولة الطولونية (أحمد دراج : إيضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – المحاضرات العامة – الموسم الثقافى ١٩٦٨/٦٧ القاهرة ، ص ١٩٤) .

(٢) — Paul: Aidhab: A Medieval Red Sea Port, S.N.R., XXXVI, 1955, p. 64.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٧١ .

(٤) أحمد دراج : وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٧٢ .

(٥) — Darrag: L'Egypte Sous Le régne de Barsbay, ed L'Institut Français De Damas, Damas, P. 160.

(٦) اختلف الجغرافيون العرب والأوربيون فى تحديد مكان عيذاب ، والراجح أنها تقع إلى الجنوب من =

(٤) ويأتى بعد ذلك العامل الاقتصادى فى دفع صلاح الدين إلى القضاء على نفوذ بنى الكنز فى منطقة عيذاب وساحل البحر الأحمر . ذلك أن سيطرة صلاح الدين على هذه المنطقة تتيح له الإشراف التام على تجارة البحر الأحمر . وكان هذا الأمر يمثل حجر الزاوية فى السياسة الاقتصادية التى وضعها للبلاد ؛ وخاصة بعد أن انصرف التجار الأوربيون إلى أسواق الشام بعد استقرار الصليبيين بها .

وكان ثغر عيذاب قد ازدهر وأصبح الميناء الرئيسى لرسو قوافل السفن التى تحمل تجارة الشرق الأقصى منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، وذلك حين أخذت موانئ هذا البحر تستعيد مكانتها القديمة التى كانت لها قبل سقوط الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية ببلاد العراق . وهذا التحول إنما يرجع إلى قيام ثورة الزنج فى العراق ، وثورة القرامطة فى البحرين ، كذلك يرجع إلى تشجيع الأسرة الزيدية ، التى كانت تحكم اليمن وقتئذ ، للتجار الهنود والصينيين على القدوم إلى عدن ، ومنها كانت تنقل بضائعهم – بواسطة الجلاب – إلى كل من جدة على الساحل الشرقى وعيذاب والقصير على الساحل الغربى [1] .

وزادت أهمية عيذاب التجارية فى العهد الفاطمى ، بسبب السياسة الاقتصادية الرشيدة التى انتهجها الفاطميون مع التجار الأوربيين ، والتى أدت إلى تسابق هؤلاء التجار إلى أسواق مصر [2] . وأدى نشاط الحركة التجارية بين مصر وأوربا على هذا النحو ، إلى نشاط الحركة التجارية بين عيذاب والشرق الأوسط والأقصى مما ترتب عليه ازدهار عيذاب فى العصر الفاطمى [3] .

ولما ولى صلاح الدين أمر مصر ، لم تخف عليه أهمية عيذاب كقاعدة رئيسية لتجارة مصر فى البحر الأحمر فعمل على فرض سيطرة الدولة عليها ، وعمل أيضا على القضاء على الأخطار

= خرائب بيرانيس القديمة التى تقع على خط عرض ٢٤ أو ٢٣،٥٠° ، تقريبا من رأس بنياس الحالية – انظر أحمد دراج : عيذاب ، مقال بمجلة نهضة أفريقية ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٥٨ ، العدد التاسع ، ص ٥٤ – ٥٥ .

(١) كانت الموانىء الرئيسية لرسو قوافل السفن التى تحمل تجارة الشرق الأقصى تتغير تبعا لمجريات الحوادث السياسية فى الشرق الأوسط . وكانت على التوالى : القلزم ، ثم عيذاب والقصير ، ثم الطور ، وأخيرا جدة (أحمد دراج : عيذاب ، ص ٥٦) .

(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٩ – ٢٥١ .

(٣) أحمد دراج : عيذاب ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

التى كانت تهدد تجارة المرور بين الشرق والغرب عبر الأراضى المصرية ، وبالتالى تهدد نشاط عيذاب [١].

ومهما كانت الأسباب التى من أجلها قرر صلاح الدين القضاء على إمارة بنى الكنز ، فإن بنى الكنز لم يرضخوا لإرادة صلاح الدين ، وقاموا بالتالى بالثورة ضده .

ويذكر ابن شداد ، أن كنز الدولة استغل تجمع كل العناصر الساخطة لديه من المصريين والسودان ، وجمعهم تحت لوائه بقصد إعادة الدولة الفاطمية . وفى هذا الصدد يقول : « الكنز إنسان مقدم من المصريين ، كان قد نزح إلى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية . وكان فى قلوب القوم من مهاواة المصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر » [٢].

كما يشير كل من ابن خلكان ، والمقريزى ، وأبى المحاسن إلى التفاف المصريين حول كنز الدولة تحقيقا لذلك الهدف . فابن خلكان يقول « إن الكنز جمع بأسوان خلقا كثيرا من السودان وزعم أنه يعيد الدولة المصرية ، وكان أهل مصر يؤثرون عودهم ؛ فانضافوا إلى الكنز المذكور » [٣] . ويقول المقريزى : « إن كنز الدولة استطاع بإغراء المال أن يجمع حوله أعدادا من المصريين » [٤] . وأما أبو المحاسن فيردد تقريباً نفس العبارة السابقة عن ابن خلكان مما يوحى بأنه نقلها عنه [٥].

ونستطيع أن نستخلص مما ذكره هؤلاء المؤرخون أن الشعور القومى هو الذى حرك المصريين ضد صلاح الدين . ذلك أن صلاح الدين بانتزاعه الإقطاعات من المصريين وأتباع

---

(١) شهد عهد صلاح الدين ازدياد نشاط التجار المسلمين الذين عرفوا بالتجار الكارمية فى نقل تجارة الشرق الأقصى وخاصة تجارة البهار والتوابل من عدن إلى عيذاب ، كما شهد عصره أيضا عودة التجار الأوربيين ، ولاسيما الإيطاليين ، إلى التردد على الموانئ المصرية بالبحر الأبيض . وعقد صلاح الدين ثلاث معاهدات مع الجمهوريات الإيطالية الثلاث ، وشاهد الرحالة ابن جبير أثر هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة عند وصوله إلى الإسكندرية عام ٥٧٩ هـ ١١٨٣ م (أحمد دراج : عيذاب ، ص ٥٨) .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبعة بولاق ١٢٨٧ هـ ، ص ٣٧ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٦٥ .

(٤) السلوك ، القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٥٧ .

(٥) النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٢٤ — يقول أبو المحاسن (بلغ صلاح الدين أن إنسانا جمع بأسوان خلقا كثيرا من السودان وزعم أنه يعيد الدولة العبيدية المصرية ، وكان أهل مصر يؤثرون عودهم ، فانضافوا إليه) .

الفاطميين وتوزيعها على الجند الصلاحية أثار عداء المصريين ؛ فضلاعن أن المصريين نظروا إلى الجند الأسدية والجند الصلاحية بوصفهم جندا أكرادا غرباء عن البلاد .

وبدأت أحداث الثورة ضد صلاح الدين حين قام أميرهم كنز الدولة بن المتوج بالهجوم فى أوائل سنة ٥٧٠/١١٧٤ م على أخى أبى الهيجاء السمين ، الحاكم الجديد لهذه المنطقة ، وقتله ؛ كما قتل فى هذا الهجوم عددا آخرا ممن كان مع أخى أبى الهيجاء ، من أمراء صلاح الدين [١] . وأخذ كنز الدولة بعد ذلك فى إعداد جيشه لمحاربة قوات صلاح الدين ، فاجتمع عليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير [٢] . وكانت طلائع هذا الجيش من منهزمى ثورتى مؤتمن الخلافة وعمارة اليمنى من الجنود المصريين والسودان [٣] وغيرهم ممن أمر صلاح الدين بترحيلهم إلى أقصى الصعيد بعد فشل ثورة عمارة اليمنى [٤] .

وقد اتفق قيام ثورة كنز الدولة على صلاح الدين مع انشغاله برد هجوم أسطول كبير للفرنج على الإسكندرية . وهذا الأسطول الذى كان يتكون من مائتى وأربع وثمانين سفينة أرسله وليم الثانى ، ملك صقلية ، بقيادة ابن عمه تانكرد كونت ليتشى ، لمهاجمة الإسكندرية [٥]

كما إتفق قيام ثورة كنز الدولة مع قيام ثورة أخرى فى داخل البلاد قام بها رجل يعرف باسم عباس بن شادى عند بلدة طود بالصعيد [٦] .

---

(١) ابن شداد : النوادر ، ص ٣٧ .

– ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٦٥ .

– المقريزى : السلوك ، القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٥٧ .

– أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٦ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٠ .

– أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩ – ٢٢١ .

– ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشر جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

– المقريزى : السلوك ، القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٥٤ .

(٥) رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٨ ، ج ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٦) طود ، قرية من قرى الصعيد القديمة بمركز الأقصر ، وهى لا تزال موجودة حتى الآن (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القاهرة ١٩٦٣ ، القسم الثانى ، الجزء الرابع ، ص ١٦٢) .

وليس لدينا من الحقائق ما يثبت وجود صلة بين هذه الثورة وثورة كنز الدولة. فكل ما نعرفه عن هذه الثورة أن السبب المباشر لقيامها هو نفسه الذى أدى إلى ثورة بنى الكنز ضد صلاح الدين . فقد كان عباس بن شادى من مقدمى الديار المصرية فى الفترة الأخيرة من الخلافة الفاطمية ، وقام صلاح الدين بمصادرة اقطاعه وجرّده من سلطته فى بلاده . كما فعل بكنز الدولة .

ومن المؤرخين من يذكر اسم كنز الدولة مقرونا باسم عباس بن شادى ، أى أن كنز الدولة هو عباس بن شادى . ومن هؤلاء أبو الفداء – وإلى القارئ نص ما يذكره فى هذا الصدد : « مما عوّق الناصر عن الشام أن رجلا يعرف بالكنز ، سماه بعضهم عباس بن شادى ، وكان من مقدمى الديار المصرية والدولة الفاطمية ، كان قد استند إلى بلد يقال له أسوان وجعل يجمع عليه الناس فاجتمع عليه خلق كثير من الرعاع ومن الحاضرة والعربان والرعيان . وكان يزعم إليهم أنه سيعيد الدولة الفاطمية ، ويدحض الأتابكة التركية ، فالتف عليه خلق كثير ثم قصدوا قوص وأعمالها وقتل طائفة من أمرائها ورجالها »[1] .

غير أن ما ذكره أبو شامة – فى هذا الصدد – يتضح منه أن ابن شادى شخص آخر غير كنز الدولة . وفى هذا يقول : « قال ابن أبى طى : واتفق أيضا أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود ، رجل يعرف بعباس بن شادى وثار فى بلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس . واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وكان السلطان قد استنابه بمصر ، فجمع له العساكر وأوقع به وبدد شمله وفض جموعه وقتله . ثم قصد بعده كنز الدولة الوالى بأسوان[2] . »

هذا ويحدثنا القلقشندى عن مكانة بنى شادى بالصعيد فيقول : « إن إمرة العربان بنواحى الديار المصرية بالوجه القبلى فى عمل قوص كانت فى بيتين من قضاعة بن حمير بن سبأ من القحطانية ، أولها : بنو شاد المعروفون ببنى شادى ، وكانت منازلهم بالقصر الخراب ، المعروف بقصر بنى شادى بالأعمال القوصية ، وقيل إنهم من بنى أمية بن عبد شمس من قريش »[3] .

(١) أبو الفداء : البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ١٩٣٩ ، ج ١٢ ، ص ٢٨٧، ٢٨٨ .
(٢) الروضتين : ج ١ ، ص ٢٣٥ .
(٣) صبح الأعشى : ج ٤ ، ص ٦٧ .

ونستخلص مما ذكره أبو شامة والقلقشندى أن ثورة كنز الدولة ثورة منفصلة عن ثورة ابن شادى ، وأنه لا صلة هنالك بين الثورتين سوى التوافق فى وقت الخروج ؛ الأمر الذى أدى إلى حدوث نوع من العمل العدائى المشترك ضد صلاح الدين . وتجلى ذلك فى توجه كنز الدولة بن المتوج بقواته مسرعاً إلى بلدة طود بعد أن عرف بثورة ابن شادى ، ليشترك معه فى مواجهة قوات صلاح الدين التى جردها ضد ابن شادى بقيادة أخيه الملك العادل سيف الدين أبو بكر [1].

غير أن القوات الأيوبية وصلت إلى طود والتقت بقوات ابن شادى قبل أن تلحق بها قوات بنى الكنز . وهناك دارت معركة كبيرة انتهت بقتل ابن شادى وهزيمة قواته هزيمة ساحقة . وأتبعت القوات الأيوبية هذا الانتصار بالإغارة على بلدة طود فخربتها وأنزلت السيف فى أهلها [2].

وربما تغير الموقف واختلفت النتائج لو أن الوقت قد أسعف القوتين الثائرتين وسمح لهما أن يتحدا فى معركة واحدة ضد قوات الملك العادل . لكن سرعة تحرك الملك العادل ساعدته على أن يجهز أولا على قوات ابن شادى ثم يثنى بقوات بنى الكنز . فبعد انتصار الملك العادل على قوات بنى شادى ، دخل فى معركة ثانية مريرة مع بنى الكنز عند مشارف بلدة طود .

واختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ هذه المعركة الثانية . فيذكر ابن الأثير ، وابن شداد ، وأبو شامة ، والنويرى ، وابن فضل الله العمرى ، والمقريزى أن تاريخ المعركة هو سنة ٥٧٠هـ [3] . واتفق كل من سبط بن الجوزى ، وابن العماد ، وأبى

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، مخطوطة ، مصورة بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٠٧٨ ، ج ٧ ، ورقة ٤٣ .

– القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٦ .

(٢) يقول فى ذلك أبو شامة (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥) : «وأسرعت البلية إليها (طود) وبها وقعت وأتى السيف على أهلها وباءت بعد عزها بذلتها» .

(٣) انظر : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٨٦ .

– النوادر السلطانية ، ص ٢٦٩ .

– الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

– نهاية الأرب ، مخطوطة ، ج ٢٦ ، ورقة ١١١ .

المحاسن على أن تاريخ المعركة هو سنة ٥٧٢ هـ[1]. وأمّا ابن ميسّر فقد انفرد بقوله إن المعركة كانت سنة ٥٦٩ هـ[2].

والراجح أن سنة ٥٧٠ هـ هى سنة هذه المعركة ، وذلك لاتفاق عدد كبير من المؤرخين على هذا التاريخ .

هذا ولم تعطنا هذه المصادر التاريخية تفصيلات مطولة عن هذه المعركة ، إلا أن جميعها تتفق فى أن نتيجتها كانت الهزيمة الساحقة لقوات بنى الكنز وقتل كنز الدولة نفسه وعدد كبير من قواته[3]. ويبالغ بعض المؤرخين فيذكر أن كنز الدولة فقد فى هذه المعركة ثمانين ألف من مائة ألف كانوا معه[4] .

وكيفما كان الأمر فإن هذا الانتصار الحاسم الذى حققه الملك العادل على قوات كنز الدولة قد حدد مصير إمارة بنى الكنز عند أسوان ، ولم يبق أمام أمرائها إلا أحد طريقين : إما أن يحاولوا تجميع صفوفهم من جديد ليقوموا بمحاربة قوات صلاح الدين ويذودوا عن إمارتهم التى حققوا فى ظلها السلطة والجاه ؛ وإما أن يستسلموا لإرادة السلطان ويتخلوا عن هذه الإمارة بسبب الظروف الجديدة ويرحلوا إلى منطقة أخرى يعاودون فيها بناء إمارتهم من جديد .

وقد اختار بنو الكنز الطريق الثانى وفضلوا الرحيل إلى بلاد النوبة الشمالية . ذلك أنه لم يعد هناك ما يغريهم فى البقاء عند أسوان . فالدولة الفاطمية التى كانوا ينعمون

= – مسالك الأبصار ، مخطوطة ، جـ ١٦ ، القسم الأول ، ورقة ٣٥٤ .
– السلوك ، القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٥٧ .

(١) – انظر : مرآة الزمان ، مخطوطة ، جـ ٨ ، ورقة ٢١٤ .
– شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، طبعة بولاق ، ١٣٥٠ هـ ، جـ ٤ ، ص ٢٤١ .
– النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٧٨ .

(٢) – تاريخ مصر ، نشر هنرى ماسيه ، القاهرة ١٩١٩ ، ص ٢٥ .

(٣) – ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٨٧ .
– أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ .

(٤) – إبراهيم الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوطة ، مصورة بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٣١ ، ورقة ١٩ ب .
– سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوطة ، جـ ٨ ، ورقة ٢١٤ .

بالأمان والاستقرار فى كنفها قد سقطت وزال خيرها ، ومناجم ذهب العلاقى التى كانت مصدر ثروتهم وغناهم قد نضب معينها . فمناجم ذهب العلاقى كانت قد بدأت تنضب منذ سنة ٦١٥ هـ ١١٢١ م ، ولذلك أخذ الذهب الذى كان يستخرج منها يشح فى فى أواخر الدولة الفاطمية [١] .

٢ ــ علاقة بنى الكنز بسلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين :

لم يرد فى المصادر التاريخية أى ذكر لأحداث جرت بين سلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين وبين بنى الكنز ، كما أنه لم يرد أى ذكر لأحداث جرت بين ، سلاطين الأيوبيين وبين مملكة النوبة المسيحية اللهم إلا الأحداث التى سبق ذكرها فى عهد صلاح الدين .

ويبدو أنه لم تكن هنالك أحداث تسترعى أنظار المؤرخين المعاصرين فى تلك الحقبة عن العلاقة بين مملكة النوبة المسيحية وبين دولة الأيوبيين . هذا ويمكن أن يفسر صمت المصادر التاريخية ــ فى هذا الصدد ــ فى ضوء العوامل الآتية :

أن بنى الكنز قد آثروا ــ كما رأينا ــ الرحيل إلى بلاد النوبة الشمالية تاركين إمارتهم عند أسوان لتصبح إقطاعا حربيًّا لتوران شاه ، ومنذ أن رحلوا إلى هذه البلاد الجديدة وضعوا نصب أعينهم بناء إمارة ثانية لهم هناك متبعين فى بنائها نفس السياسة ، القديمة التى اتبعوها فى بناء إمارتهم الأولى فى وادى العلاقى وعند أسوان . وتتلخص هذه السياسة فى اختلاطهم بالأهالى والاندماج التام معهم عن طريق المصاهرة ليتبؤوا مركز الزعامة بينهم ، مستفيدين فى ذلك من نظام الوراثة عندهم .

ولتنفيذ هذه السياسة كان بنو الكنز فى حاجة إلى فترة هدوء واستقرار تكفل لهم ، الأمان على مدى طويل . لذلك انقطعت صلتهم بمصر طوال العهد الأيوبى ، فلم يفكروا طوال ذلك العهد فى الثأر لهزيمتهم أو استعادة إمارتهم القديمة . ومن ثم لم يكن بنو الكنز خطراً يهدد الأيوبيين من ناحية الجنوب ، كما لم يكن الأيوبيون من جهتهم ــ فى ، حاجة إلى تتبع بنى الكنز فى بلاد النوبة واستئصال شأفتهم .

---

(١) ــ عن مناجم الذهب فى وادى العلاقى ، انظر الباب الرابع .

كذلك لم يفكر الأيوبيون فى القضاء على مملكة النوبة المسيحية التى كان قد ضعف أمرها فى ذلك الوقت وتمزقت أوصالها بسبب الصراع بين أمراء بيتها المالك ، وبسبب الهجرات العربية المتزايدة إلى بلادها [1] . ففضلا عن أنه لم يكن هنالك جديد يغرى الأيوبيين بفتح بلاد النوبة بعد أن عرفوا فقر هذه البلاد وقلة خيراتها بعد الحملة التى جردها ضدها توران شاه ، فإن الأيوبيين كان لديهم من المشاكل الداخلية والخارجية ما صرفهم عن التفكير فى ذلك .

فقد كانت الصراعات والانقسامات الداخلية تمزق البيت الأيوبى . فمن المعروف أن تاريخ هذا البيت ، بمصر والشام ، منذ السنة التى توفى فيها صلاح الدين (٥٨٩ هـ/ ١١٩٢ م) حتى سنة وفاة الصالح نجم الدين أيوب (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م) ليس سوى سلسلة طويلة من المؤامرات والحروب الأسرية [2] .

وفضلا عن ذلك كان الأيوبيون مشغولين بالخطر الصليبى . فقد ظل الصليبيون ، بالشام طوال العصر الأيوبى خطراً يهدد الأيوبيين ويستنزف كل جهودهم . ولم يكن من الحكمة أن يفتح الأيوبيون ضدهم جبهة صليبية أخرى فى الجنوب تكون النوبة والحبشة طرفاً فيها .

هذا وقد ظهرت فى أوربا ، فى ذلك الوقت ، فكرة إقامة حلف صليبى تشترك الحبشة فيه للإطباق على مصر من الشمال والجنوب . كما ظهرت فكرة إمكانية تحويل مجرى نهر النيل عن مصر وحرمانها من مياهه [3] .

وعلى الرغم من أن المصادر الأوربية التى تحدثت عن هذا المشروع الصليبى مع الحبشة ضد مصر ، لم تذكر صراحة بلاد النوبة ولم تتحدث عن دورها فى هذا المشروع ، إلا أننا نستطيع أن نستخلص من العديد من الشواهد التاريخية فى العصور الوسطى أن الأحباش أو « الحبوش » كان يقصد بهم فى ذلك الوقت النوبيون والأحباش . ومعنى

---

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٠٣ .

— Arkell: A History of the Sudan, P. 195. —

— Budge, E.A.W., A Hisotry of Eithiopian, Vol. è, P. 118. —

(٢) السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٠٧ .

— DARAG: L'Egypte Sous le Régne de Darsbay, P. 285. (٣)

هذا — بالنسبة لموضوعنا — أن سلاطين الأيوبيين ، والمماليك من بعدهم ، كان عليهم أن يعملوا على إحباط هذا المشروع بالنسبة لبلاد النوبة ، وأن يحرصوا على إقامة العلاقات الطيبة معها ما وسعهم ذلك .

فحتى بداية القرن العاشر الهجرى — السادس عشر الميلادى — كان يقصد بكلمة الأحباش النوبيون والأحباش ، ذلك أن مفهوم كلمة الحبشة كان غامضا ، طوال ذلك الوقت ، عند الأوربيين بسبب ارتباط بلاد الحبشة فى العصور الوسطى بالأساطير التى نسجت حول اسم « برسترجون Prester John » الذى أطلقه الأوربيون على ملك الحبشة ، والذى توهموا أنه يحكم إمبراطورية شاسعة تضم معظم أراضى آسيا وأفريقية [1] . كذلك بسبب ما اعتاد الحجاج الأوربيون مشاهدته ، عند زيارتهم للقدس الشريف ، من نزول النوبيين مع الأحباش فى دير واحد عرف بدير الأحباش [2] .

وإننا لنجد ملوك أوروبا وحكامها فى العصور الوسطى يقرنون ، فى بعض الأحيان ، اسم النوبة بالحبشة فى مشروعاتهم الصليبية . فنجد الفونسو الخامس ، ملك البرتغال ، يمنح فى ٧ يونيو ١٤٥٤ طائفة الرهبان اليسوعيين (الجزويت) التى يرأسها هنرى الملاح الولاية الروحية على بلاد النوبة والحبشة [3] .

كذلك تشير بعض كتب الرحالة الأوربيين إلى أن النوبة من ممتلكات برسترجون ملك الحبشة ، ومن هذه الكتب كتاب الرحالة الجنوى أنطونيو أوسو دى مير Antonio Uso di Mare الذى كتبه سنة ١٤٥٥ . وقد ورد فى هذا الكتاب أن برسترجون هو إمبراطور

---

(١) ظهر اسم « برسترجون » أو « برترجان Prétre Jean » على مسرح الأحداث واقترن بأساطير كثيرة فى روما منذ سنة ١١٢٢ م ، فى عهد باباوية كاليكتوس الثانى . وزادت شخصيته غموضا بعد الخطاب الذى أرسله إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل Manuel, فى سنة ١١٦٥ م ، وادعى فيه أنه أعظم ملوك الأرض وأنه يتحكم فى ممالك ٧٢ ملك كلهم أتباعه ، وأن إمبراطوريته تضم بلاد الهند الثلاثة . هذا ولم يتحدد للأوربيين حدود إمبراطورية برسترجون الحقيقية إلا سنة ١٥٢٠ بعد الرحلة التى قام بها دوم رودريجو داليما Dom Rodrigo Dalima إلى بلاده وبقائه هنالك مدة خمس سنوات

Ross, E. Denson: «Prester John and the Empire of Eithiopia - Newton, Travel and Travellers of the Middle Ages, London 1949, P. 194.

(٢) — DARRAG: Op. Cit, P. 185.

(٣) أحمد دراج : المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

وبطريرك النوبة والحبشة وهو يسمى بعبد الصليب [١] .

هذا وورد أيضاً فى بعض الكتابات العربية ما يفهم منه أن لفظة الأحباش أو الحبوش تعنى كلا من الأحباش والنوبيين . مثال ذلك ما أورده أبو صالح الأرمنى بصدد حديثه عن كرياكوس ملك النوبة مدعيا أنه ملك النوبة والحبشة [٢] . كذلك ما ورد فى مرسوم السلطان الغورى الصادر فى المحرم ٩١٩ هـ / ١٥١٣م الخاص بتقرير الإمتيازات والاعفاءآت الممنوحة لطوائف الرهبان المسيحيين الشرقيين [٣] .

هذا وقد نشأت فكرة التحالف الأوربى الحبشى سنة ٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م . وكان ذلك بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ، إذ أرسل جاك دى فترى Jacque de Vitry أسقف عكا رسالة إلى ملك الحبشة يدعوه إلى الانضمام لهذا الحلف من أجل إنقاذ الأماكن المسيحية المقدسة من يد المسلمين والاتفاق معه على حملة صليبية مزدوجة ضد مصر من الشمال والجنوب فى وقت واحد تشترك فيها الحبشة . ومن الطبيعى أن مملكة النوبة المسيحية بوصفها المدخل إلى مصر من ناحية الجنوب لابد وأن يكون لها دور فعال فى هذا المشروع المقترح [٤] .

على أن تحقيق هذا المشروع لم يقدر له أن يتم فى عهد الأيوبيين ولا فى عهد المماليك بسبب صعوبة تنفيذه [٥] . وذلك على الرغم من أن ملوك الحبشة وملوك الفرنج حاولوا عدة مرات بحث إمكانية تحقيقه [٦] .

---

(١) يذكر أنطونيو بصدد حديثه عن هزيمة حلت ببرسترجون أن برسترجون إمبراطور وبطريرك النوبه والحبشة المسيحى المسمى بعبد الصليب Abet Selip فقد بعد هزيمته على يد كاستيجان خاى كاتاى (بلاد الخطا) فى معركة سهل تندتش فى كاتاى سنة ١١٨٧ م ، معظم ممتلكاته فى آسيا ولم يتبق له بعد هذه الهزيمة سوى بلاد الحبشة والنوبة التى يكثر بها الذهب والفضة .

— Ross: Prester John, pp. 185-187 — Charles De La Ronciére: Op. Cit., II, p. 122.

(٢) يقول أبو صالح الأرمنى (تاريخه ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨) : وأن ملك الحبشة والنوبة كرياكوس سار لغزو مصر سنة ١٣٨ للعرب ومعه مائة ألف فارس وخرب ودمر بلاد صعيد مصر » .

(٣) ينص المرسوم على إعفاء جميع طوائف الرهبان المسيحيين الشرقيين من رسوم الحج ، وهذه الطوائف هى الملكانيين واليعاقبة والجورجان والحبوش والكرج (انظر المرسوم فى وثائق دير صهيون ، ص ١١٤) .

(٤) — De Le Ronciére: Le Decouverte de L'Afrique, Tome I, pp. 57-58.

(٥) — DARRAG: Op. Cit, P. 339, n.4; — Ross: Op. Cit., p. 180.

(٦) — عن هذه المشروعات الصليبية التى كانت تقوم على قيام الحبشة بهجوم صليبى على مصر من ناحية =

وليس ثمة شك فى أن ظهور فكرة تحالف صليبى مع النوبة والحبشة منذ سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢ م ، دفع الأيوبيين إلى الحرص على قيام العلاقات الطيبة معهما للحيلولة دون تنفيذ المشروع الصليبى . واقتضى هذا الأمر منهم معاملة الحجاج المسيحيين ، وخاصة النوبيين والأحباش معاملة طيبة . وكان الحجاج الأحباش يتمتعون بامتيازات خاصة أثناء قيامهم بتأدية فريضة الحج بالأراضى المسيحية المقدسة منذ عهد صلاح الدين[1] ، كذلك شمل صلاح الدين دير الأحباش فى بيت المقدس قرب كنيسة القيامة ورهبانه بعطفة ورعايته[2] .

وتأتى هذه المعاملة الخاصة للأحباش والنوبيين فى إطار المعاملة الطيبة التى حرص سلاطين الأيوبيين والمماليك منذ صلاح الدين على معاملة الحجاج المسيحيين بها ، شرقيين وغربيين . فقد قرر صلاح الدين حين عقد معاهدة الصلح مع ريتشارد قلب الأسد فى ٢٢ شعبان ٥٨٨/٢ سبتمبر ١١٩٢ حق المسيحيين فى الحج إلى كنيسة القيامة دون جباية رسوم منهم[3] .

= الجنوب فى الوقت الذى يقوم فيه الصليبيون بالهجوم عليها من ناحية الشمال :

– عن هذه المحاولات فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر انظر – Wiet: Les Réltions.:

Egypto-Abyssines sous Les Sultans Mamlouks, Extrait du Bulletin de la Société D'Archéologie Copte, T. IV, 1938, pp. 121-122. 122.

– عن المحاولة فى عهد برسباى سنة ٨٢١ : Darrag: L'Egypte Sour Ie regne de Barsby, P. 211. —

– عن بقية المحاولات طوال القرن الخامس عشر : أحمد دراج : المماليك والفرنج ، ص ٤٩ – ٥٤ ، ٦٥ – ٦٩ ، ٨٤ .

– وقد ظلت هذه المشروعات مطروحة للبحث إلى أن نجح البرتغاليون فى أواخر القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى فى الوصول إلى الهند ، والأتصال ببلاد الحبشة .

(١) عن هذه الأمتيازات التى كان يتمتع بها حجاج الأحباش بالأراضى المسيحية المقدسة انظر :

Darrag: L'Egypt sous Le régne de Barsbay, pp. 285-286.

(٢) — Atiya, A.S.: A History of Eastern Christianity, London 1968, P. 157.

(٣) انظر ، عن هذه الرسوم ومعاملة الحجاج المسيحيين، منذ صلاح الدين حتى الغورى، وثائق دير صهيون ، ص ٧٠ – ٧٢ ، ١٥٤ .

ب – علاقة بنى الكنز بالمماليك

١ – وضع بنى الكنز فى بلاد النوبة مع بداية قيام دولة المماليك بمصر :

نجح بنو الكنز بعد أن رحلوا عن أسوان ، وبعد قرابة قرن ونصف من الزمان ، فى إقامة إمارة ثانية لهم فى بلاد النوبة الشمالية . وقد تم لهم ذلك بعد أن ورثوا عرش مقرة المسيحية . ومما ساعدهم على تحقيق ذلك الهدف عاملان رئيسيان :

أولاً : قدرتهم على الاندماج مع أهالى هذه البلاد ، والاستفادة من نظام الوراثة عندهم . وفى بلاد النوبة نفذ بنو الكنز نفس السياسة التى قاموا بتنفيذها فى بلاد البجه ، فأقاموا بجوار النوبيين ، ثم اختلطوا بهم نتيجة الجوار فى المسكن ، وبعد ذلك اندمجوا معهم بالمصاهرة . وأدت هذه المصاهرة إلى وجود أجيال مختلطة فقدت مع مضى الزمن اللغة العربية وأصبحت تتكلم باللهجة النوبية .

واستفادت هذه الأجيال الخليطة من نظام الوراثة عند النوبيين الذى يعطى حق الوراثة لابن البنت أو ابن الأخت دون ولد الصلب ، وهو نفس نظام الوراثة المطبق بين قبائل البجه [1] .

ثانياً : اشتراكهم فى الحملات العسكرية التى وجهتها مصر المملوكية ضد بلاد النوبة واستفادتهم من ذلك فى تدعيم نفوذهم فى تلك البلاد .

وكان هناك عاملان يدفعان السلطات المملوكية لتجريد الحملات ضد بلاد النوبة وهما :

(ا) موضوع البقط ، وكان ملوك النوبة كثيرا ما كانوا يمتنعون عن دفعه إلى مصر ، الأمر الذى كان يدفع سلاطين المماليك لإرسال قواتهم إلى بلاد النوبة لإرغام ملوكها على دفعه .

---

(١) ذكر أبو صالح الأرمنى (ص ١٢٥) : « أن عادة النوبة جارية بأنه إذا مات ملك وخلف ولد وكان له ابن أخت فيملك بعد خاله دون ولد الملك . وإن لم يكن له ابن أخت يملك ولده بعده بلاد النوبة » .

(ب) غارات النوبيين المتكررة على حدود مصر الجنوبية بقصد السلب والنهب والتدمير ، وهذا كان يدفع سلاطين المماليك إلى الرد على هذه الغارات بغارات انتقامية على بلاد النوبة .

ولهذا استمرت الحرب سجالا بين مملكة مقرة المسيحية ببلاد النوبة وبين مصر المملوكية ، الأمر الذى انتهى بضعف بيتها الحاكم ثم انهيارها . وفى الوقت الذى بدأت فيه مملكة مقرّة تضعف وتنهار ، كان قد مضى على بنى الكنز قرن ونصف أو أكثر ، تمت فيه عملية الاندماج والمصاهرة على المستوى الشعبى ، وعلى مستوى البيت المالك . وهذا أدى عمليا إلى أن يرث بنو الكنز عرش المملكة ويكوّنون دولتهم الثانية .

٢ – بنو الكنز والحملات المملوكية على النوبة :

قصد السلطان الظاهر بيبرس إحكام سيطرة الدولة المملوكية على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، فقام بالاستيلاء على ميناء سواكن سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م وأبقى بها حامية مملوكية . وتم له ذلك حين أرسل والى قوص – بناء على أمره – حملة عسكرية استولت على الميناء . وقد تعلل السلطان فى إرساله لهذه الحملة بعدم استجابة متملك سواكن لاحتجاج أرسله إليه بسبب تعرضه لأموال من كان يتوفى بسواكن من التجار المصريين [١] .

ونتج عن استيلاء المماليك على ميناء سواكن أن فقدت مملكة مقرّة ، وكذلك مملكة علوة منفذها على البحر الأحمر ، مما أضر بمصالحهما الاقتصادية وعزلهما عن العالم الخارجى ، ولا سيما الأراضى المقدسة بفلسطين [٢]. وكان هذا هو الدافع الرئيسى الذى دفع داوود ملك النوبة إلى مهاجمة ثغر عيذاب ومدينة أسوان سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٢م [٣] .

---

(١) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص ١٤٤ .

(٢) مكى شبيكه : السودان عبر القرون ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٣٠ .

(٣) بالإضافة إلى هذا الدافع الرئيسى ، فقد كانت هناك دوافع أخرى ترتبط بالعلاقة بين النوبيين والصليبيين من جهة ، وبين النوبيين والقبط فى مصر من جهة أخرى . وقد أشار إليها الدكتور مصطفى مسعد فى كتابه الإسلام والنوبة ؛ انظر ص ١٤٥ .

وكان تعرض ميناء عيذاب لهجوم ملك النوبة ، فى ذلك الوقت ، يشكل خطرا ، مباشرا على مصالح مصر الاقتصادية . ذلك أن ميناء عيذاب كانت قد أصبحت منذ مطلع القرن الرابع الهجرى المركز الرئيسى للنشاط التجارى المصرى ، فى البحر الأحمر ، وقد ظلت تتمتع بهذا المركز التجارى الممتاز حتى بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)[١] . وفضلا عن ذلك فقدظل الحجاج المغاربة يفضلون طريق قوص —عيذاب— جدة حتى بعد أن قام السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ/١٢٦٧ م بفتح طريق الحج عبر شبه جزيرة سيناء[٢] .

وردا على هجوم ملك النوبة على عيذاب وأسوان ، قامت القوات المملوكية بمهاجمة مملكة مقرة ، فأرسل الظاهر بيبرس حملة فى نفس العام (٦٧١ هـ / ١٢٧٢م) يقودها والى قوص ، تمكنت من الوصول إلى مدينة دنقلة ، ثم عادت أدراجها[٣] .

ويبدو أن الحملة لم تحقق كل أغراضها ، فبعد ثلاث سنوات أرسل السلطان حملة أخرى ، وجعل على رأسها أميرنوبى كان قد هرب إلى مصر ويدعى شكنده[٤]. وكان شكنده يطالب بعرش د نقله من مغتصبه داوود ، ابن أخيه[٥] .

وبجانب هذا الأمير النوبى ، أرسل بيبرس على رأس الحملة قائدين من أكبر قواده . وفى هذه المرة الثانية انتصرت الحملة على قوات داوود ، بل تمكنت من أسر أمه وأخته وابنة أخيه ، الذين سيقوا إلى القاهرة مكبلين بالأغلال . أما داوود فإنه هرب من دنقلة إلى

---

(١) — أحمد دراج : عيذاب ، ص ٥٧ .

— Newbold: The Crusaders in the Red Sea and the Sudan, S.N.R., XXVI, Part II, 1945, P. 220.

(٢) — عن أهمية عيذاب فى هذه الفترة انظر الباب الرابع .

(٣) — المقريزى : السلوك ، الجزء الأول — القسم الثانى ، ص ٦٠٨ .

(٤) — تولى شكنده سنتى ١٢٧٥ و ١٢٧٦ م

Storia Della Nubia Cristane, Orientalia Christiana Analecta, Rome 1938, P. 223).

— أطلق النويرى والمقريزى على شكنده إسم مشكد ، بينما أطلق عليه ابن خلدون اسم مرتشكين ، أما القلقشندى فقد أطلق عليه اسم مرقشنكز .

انظر نهاية الأرب ، مخطوطة ، جـ ٢٨ ، ورقة ١٠٩ — السلوك ، الجزءالأول — القسم الثانى ، ص٦٢١ . — العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠ — صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٥) — القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ص ٢٧٦ .

مملكة علوة . غير أن ملكها قبض عليه وأرسله فى أوائل سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م إلى نائب السلطان بالقاهرة الذى أمر بسجنه فى قلعة الجبل حيث ظل سجينا بها حتى أدركته الوفاة [١] . وأما شكنده فقد أجلس على عرش دنقلة بعد أن أقسم يمين الولاء للدولة وتعهد بالانتظام فى دفع البقط . كما تعهد بتنازله عن منطقة مريس نهائيا للدولة المملوكية وأقر بأن هذه المنطقة أصبحت منطقة خالصة للسلطان [٢] .

ومعنى سيطرة الدولة المملوكية على منطقة مريس ، أن تسيطر كذلك على بنى الكنز فى بلاد النوبة . ذلك أن أرض مريس هى المنطقة التى رحلوا إليها بعد هزيمتهم على يد قوات صلاح الدين ، واتخذوها قاعدة لبناء امارة ثانية لهم فى بلاد النوبة .

وفى منطقة مريس بدأ بنو الكنز جهودهم لإعادة بناء إمارتهم الثانية وفقا لأسلوبهم الذى اتبعوه من قبل فى بناء إمارتهم الأولى بين قبائل البجة . فاختلطوا بأهالى تلك المنطقة واندمجوا معهم عن طريق المصاهرة ، وهذا مهد لهم الوصول إلى مراكز السلطة . ويبدو أنهم استطاعوا أن يستولوا على قلعة الجبل ، أهم قلاع تلك المنطقة ، كما يبدو أن ملك دنقلة اضطر للاعتراف بنفوذهم فى منطقة مريس ، كما اضطر إلى أن يعترف برئيسهم نائبا عنه فى حكم قلعة الجبل .

ومما يؤيد هذا الرأى أن المصادر العربية ذكرت أن صاحب قلعة الجبل ، وقت أن هاجمتها قوات بيبرس ، كان شخصا يدعى قمر الدولة ، وهذا الاسم أو هذا اللقب العربى ، يبدو أنه كان اسم أمير بنى الكنز فى ذلك الوقت [٣] .

وقد سهل قمر الدولة للقوات المملوكية مهمتها وهى فى طريقها لمحاربة داوود ، كما أشرك قواته فى هذه الحملة الزاحفة . ومكافأة له على هذا العمل أقره قائد الحملة المملوكية

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص١١٣ ، ١١٤ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوطة ، جـ ٢٨ ، ورقة ١٠٩ .

– المقريزى : السلوك ، الجزء الأول – القسم الثانى ، ص ٦٢٢ .

— Quatremére: Histoire des Sultans Mamlouks de L'Egypte, Paris 1828, I. 1, 2éme partie P. 120.

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠ .

– المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .

— Hamilton: The Egyptian Sudan, P. 53.

على ما كان تحت يده من بلاد النوبة . هذا ويفهم مما ذكره المقريزى فى هذا الصدد أن نفوذ قمر الدولة كان قد شمل نصف بلاد النوبة . فى هذا يقول ، (إنه لما وصل الأمير آقسنقر الفارقانى إلى جزيرة ميكائيل ، أقر قمر الدولة صاحب الجبل– وبيده نصف بلاد النوبة – على ما بيده)[١] .

وعندما مات شكنده ملك النوبة سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م – وهى نفس السنة التى تولى فيها السلطان قلاوون عرش مصر – خلفه شخص يدعى « برك »[٢] . وأوفى برك بتعهداته للسلطان وانتظم فى دفع البقط . وظل برك يحكم بلاد النوبة إلى أن قتله فى سنة ٦٨٨ هـ ١٢٨٩ م شخص يدعى سيمامون[٣] ، وانتزع منه عرش دنقله ، كما أعلن عن نيته فى عدم إرسال البقط إلى سلطان مصر . فما كان من السلطان قلاوون إلا أن جرّد ضده ، فى هذه السنة ، حملة بقيادة الأمير علم الدين سنجر المعروف بالخياط ، والى القاهرة ، والأمير عز الدين الكورانى ، وجماعة من أجناد الولايات بالوجه القبلى . كما كتب السلطان إلى الأمير عز الدين أيدمر السيفى ، والى قوص ، بأن يشترك مع الحملة بما عنده من المماليك السلطانية وعربان الأقاليم ، وهم من أولاد بكر ، وأولاد عمر ، وأولاد شيبان (وهم بطن من ربيعة) ، وأولاد كنز الدولة ، وبنى هلال ، وبنى رئيس[٤] . ثم تقدمت هذه القوات المملوكية إلى بلاد النوبة حيث اشتبكت مع سيمامون وأنزلت به هزيمة ساحقة . غير أن سيمامون استطاع أن ينجو بنفسه وأن يلوذ بالفرار إلى المنطقة الجنوبية من بلاده .

وما أن تحقق النصر للأمير علم الدين سنجر حتى قام بخلع سيمامون من عرش المملكة وتوج بدلا منه ابن أخته[*] . ولكى يدعم مركزه فقد ترك معه – عندما رحل عائدا إلى

(١) السلوك ، الجزء الأول – القسم الثانى ، ص ٦٢٢ .

(٢) استقر برك على عرش دنقله من سنة ١٢٧٩ حتى سنة ١٢٨٠ م ، أنظر :

— Storia Della Nubia, P. 223.

(٣) أطلق عليه ابن عبد الظاهر إسم سمعان ، انظر ابن عبد الظاهر . تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٤٦ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوطة ، جـ ٢٩ ، ورقة ١١ .

– ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٠١ .

(*) لم يرد اسم هذا الأمير فى أى من المصادر العربية أو الأوروبية .

– ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٦ .

– المقريزى : السلوك ، القسم الثالث – الجزء الأول ، ص ٧٥٣ .

القاهرة – عددا من رجال الحملة المملوكية . وقام هذا الملك الجديد – من جانبه – بأن أقسم يمين الولاء للسلطان ، كما تعهد بالانتظام فى دفع البقط .

غير أنه ما أن عادت القوات المملوكية إلى مصر حتى ظهر سيامون فى دنقله ، ونجح فى أن يجمع عددا كبيرا من أتباعه ويكوّن منهم جيشا كبيرا استطاع بواسطته أن يهزم الحامية المملوكية الصغيرة التى تحمى الملك الجديد . وترتب على ذلك أن تمكن من استعادة عرش دنقله بعد أن هرب إبن أخته إلى مصر . ولهذا استدعى الأمر تجريد حملة مملوكية أخرى لمحاربة سيامون ولإعادة ابن أخته إلى عرش دنقله .

فى نفس العام خرجت حملة ثانية من القاهرة [١] ، بقيادة الأمير عز الدين أيبك الأفرم ومعه ابن اخت سيامون ، ثم انضم إليهم والى قوص وعدد كبير من الأمراء وسائر أجناد المراكز بالوجه القبلى ونواب الولاة ، ومن عربان الوجهين القبلى والبحرى عدة أربعين ألف رجل [٢] ، غير أنها ما أن وصلت أسوان حتى أدركت الوفاة أمير النوبة . وبعد أن دفنه قائد الحملة المملوكى فى أسوان ، ولّى مكانه الأمير داوود الثانى [٣] ، وهو أحد أولاد أخت الملك السابق داوود ، والذى كان مقيما بأسوان بالأبواب السلطانية [٤] .

كما انضمت فرقة من قوات بنى الكنز إلى القوات الزاحفة على النوبة عند وصولها إلى منطقة مريس ، وكانت هذه الفرقة أقوى فرق هذه الحملة [٥] .

ويعزى الفضل الأكبر فى نجاح هذه الحملة إلى بنى الكنز ، ذلك أن أمراء بنى الكنز كانوا يتقدمون القوات المهاجمة ويقومون بطمأنة أهل البلاد وتأمينهم ، كما كانوا يجهزون الإقامات والإمدادات للعسكر . فى هذا الصدد يقول النويرى ، « وانقسم العسكر إلى قسمين ، وكان مع الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار أولاد الكنز أمراء أسوان ، ليطمئنوا أهل البلاد ويأمنوهم ويجهزوا الإقامات للعسكر . فكان الجيش إذا وافى بلدا خرج من بها

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوطة ، جـ ٢٩ ، ورقة ١١ .

(٢) المقريزى : السلوك ، القسم الثالث – الجزء الأول ، ص ٧٤٩ .

(٣) — Storia Della Nubia, P. 223.

(٤) النويرى : نفس المصدر السابق والصفحة .

– يذكر ابن خلدون أنه داوود ابن أخى مركشتين (شكنده) ، انظر : العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٠١ .

(٥) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ٤٦ .

– المقريزى : السلوك ، القسم الثالث – الجزء الأول ، ص ٧٥٣ .

من المشايخ وأعيانها وقبّلوا الأرض بين يدى الأمراء وأخذوا أمانا واستقروا ببلدهم وذلك من الدو إلى جزائر ميكائيل »[١]

وما أن وصلت القوات المصريه إلى دنقله حتى هرب سيامون مرة ثانية إلى منطقة الأبواب ، فقام قائد الحملة بتنصيب الملك الجديد ، داوود الثانى ، وأتم مراسم جلوسه على العرش فى كنيسة المسيح بدنقله . وبعد أداء هذه المراسم عادت الحملة إلى القاهرة بعد أن تركت طائفة من العسكر بقيادة بيبرس العزى ، مملوك الأمير عز الدين والى قوص ، ليقيم مع الملك حماية له[٢].

ومن العجيب أن سيامون عاود الظهور مرة ثالثة سنة ٦٨٩ / ١٢٩٠ م . وفى هذه المرة تمكن من قتل الملك الجديد ، وإخراج بيبرس العزى وقواته إلى قوص ، واستعادة عرش البلاد . وما أن أتم ذلك حتى بادر بالكتابة إلى السلطان قلاوون يطلب منه الصفح على ما فعل ، ويتعهد له بأن يدفع البقط المقرر عليه ، السابق منه واللاحق ، كما يتعهد بأن يدفع للسلطان دخل نصف دولته[٣] وعدم العودة مرة أخرى للعصيان . فما كان من السلطان قلاوون إلا أن قبل طلبه، وذلك لانشغاله بما هو أهم من النوبة ؛ ألا وهو استخلاص عكا من الصليبيين[٣].

غير أن سيامون عاودته طبيعته المتقلبة بعد أن عرف بوفاة السلطان قلاوون سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠ م ، فأرسل إلى ابنه السلطان خليل ، يعتذر عن تأخيره للبقط ويطلب منه تأجيل الدفع إلى العام التالى . لكن السلطان خليل رفض طلبه وأرسل يتوعده ، فما كان من سيامون إلا أن سارع بإرسال ما هو مقرر عليه ، وانتظم بعد ذلك فى الدفع سنويا .

ولمّا مات سيامون سنة ٦٩٣ هـ/١٢٩٤ م تولى عرش النوبة بعده شخص يدعى آنى[٤] ولم يكن آنى صاحب الحق الشرعى فى عرش البلاد ؛ لذلك أرسل السلطان خليل فى

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوطة ، جـ ٢٩ ، ورقة ١٢ .
– نقل المقريزى هذا النص عن النويرى – انظر السلوك ، القسم الثالث – الجزء الأول ، ص ٧٤٩،
— Quatremére: Sultans Mamluks, T. II, Ire Partie, P. 106.

(٢) المقريزى : السلوك ، القسم الثالث – الجزء الأول ، ص ٧٥٢ ، ٧٥٣ .

(٣) النويرى نفس المصدر ، ورقة ١٢ .
– المقريزى : السلوك ، نفس الجزء ، ص ٧٥٣ .

(٤) — Storia Della Nubia, P. 223.

نفس هذا العام حملة لتنحيته عن العرش ، وتنصيب شخص آخر غيره يدعى بوديما [١] . ونجحت الحملة فى تنصيب بوديما ملكا على عرش دنقله . واستمرت علاقته طيبة مع سلطان مصر ، لأنه انتظم فى دفع البقط .

وبعد وفاة بوديما اعتلى عرش النوبة شخص يدعى آماى [٢] . وفى بداية الأمر كانت علاقة آماى طيبة مع سلطان مصر ، إلا أنها ساءت فيما بعد بسبب تأخره فى إرسال البقط إلى مصر ، الأمر الذى جعل السلطان يرسل حملة عسكرية إليه . ونجحت هذه الحملة فى إيقاع الهزيمة به ، بل تمكنت من أسر والدته وعمته وإخوته وعادت بهم كرهائن إلى القاهرة . ويذكر ابن عبد الظاهر أن آماى سارع بالاعتذار للسلطان وأرسل البقط المتخلف عليه ، ومعه هدية للسلطان حملها أخوه المسمى البرسى . كما التمس البرسى من السلطان العفو عن والدته وإطلاق سراحها لتدبر أمر أخيه ، وذكر له قوله « إن ملوك النوبة ما يدبرهم إلا النساء [٣] » وقد استمرت علاقة آماى طيبة بالسلطات المملوكية فى القاهرة بعد وفاة الأشرف خليل . فى سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م جاء لزيارة الناصر محمد بن قلاوون وقدّم له ما حمله معه من هدايا [٤] .

وبعد وفاة آماى سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م تولى الملك بعده أخوه كرنبس [٥] . وبدأ كرنبس حكمه بمعاداة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فامتنع عن دفع البقط [٦] . لذلك أرسل إليه السلطان حملة لتزيحه عن العرش ، وتنصيب بدلاً منه أحد الأمراء النوبيين الذين تربوا فى البلاط السلطانى من جملة المماليك السلطانية . وهذا الأمير يدعى عبد الله

---

(١) — Ibid, P. 223.

(٢) ورد اسمه هكذا فى (Storia Della Nubia) وذكر أنه حكم من ١٣٠٤–١٣٠٥م– وأطلق عليه ابن خلدون اسم « أى » – انظر العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٢٩ .

(٣) ابن عبد الظاهر (محيى الدين) : الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية، نشر اكسل مويرج ، ليبزج ١٩٠٢ ، جـ ٣ ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

– ذكر ابن عبد الظاهر ما اشتملت عليه الهدية وهو : مائتا رأس رقيق ، ومائتا هجن وجمال ، ومائتا إردب تمر ، ومائة وعشرون قنطار شب ، وألف وخمسمائة رطل سنبادج (مادة حجرية للجلاء) ، وأربعة فهود وهزبر .

(٤) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٥٣ .

(٥) ورد فى ((Storia Della Nubia, P. 223.) أنه حكم من ١٣١٢ حتى ١٣١٦ م .

(٦) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٢٩ .

ابن سنبو أو عبد الله برشمبو [١] . وأيًّا كان اسم هذا الأمير الحقيقى ، فإنه كان قد اعتنق الإسلام وأصبح أحد المماليك السلطانية ، وهو ابن عم داوود ملك النوبة الأسبق [٢] . هذا وقد سار مع هذا الأمير على رأس هذه الحملة أربعة من كبار أمراء المماليك [٣] .

هذا ولا يفوتنا – قبل أن نمضى فى تتبع أخبار هذه الحملة – أن اختيار أمير نوبى مسلم لحكم بلاد النوبة يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذه البلاد ، أدت من غير شك إلى سقوط مملكة النوبة المسيحية .

---

(١) – ورد الإسهان فى (Storia Della Nubia, P. 223)

– وذكر ابن خلدون أن اسمه عبد الله نشلى ، انظر العبر ، ج ٥ ، ص ٤٢٩ .

(٢) النويرى ؛ نهاية الأرب ، مخطوطة ، ج ٣٠ ، ورقة ٩٥ .

– المقريزى : السلوك ، الجزء الثانى – القسم الأول ، ص ١٦١ .

(٣) هؤلاء الأمراء هم : عبد الملك مقدم العسكر ، وعلى الساقى ، وطرخان بيسرى ، وبيبرس الحسامى – انظر :

— Zettersteén: Beiterage Geschichte Der Mamluken sultane in Den Jahren 690-741 Der Higrà,

— Leyden, 1919, PP. 156-166. (تاريخ سلاطين المماليك) .

بنو الكنز يقيمون دولتهم الثانية فى دنقلة ويرثون عرش مقرّه سنة ٧٢٣ هـ - ١٣١٩ م

لقد أدى اختيار السلطان الناصر محمد لعبد الله برشمبو سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦م لكى يكون ملكاً على عرش دنقله، بدلاً من كرنبس ، إلى ظهور بنى الكنز ثانية بصورة واضحة على مسرح الأحداث فى بلاد النوبة . وكان بنو الكنز بعد أن رحلوا عن أسوان ، واستقروا فى بلاد مملكة مقرّه ، قد صاهروا بيتها الحاكم . واستطاعوا بفضل تلك المصاهرة أن يصلوا إلى كرسى الحكم فيها ، وأن يطلبوا من سلطان مصر أن يعترف بوضعهم الجديد فى تلك البلاد .

فبعد أن عزل الناصر محمد بن قلاوون الملك كرنبس ، طلب منه ابن أخته «كنز الدولة شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك» أن يحل مكانه ويعتلى عرش دنقله ، وذلك حق شرعى له طبقا لقوانين الوراثة فى النوبة [1] . غير أن الناصر محمد لم يشأ أن يعترف له بهذا الحق ، وربما كان ذلك الرفض بسبب أن هذا الطلب جاء من الملك المخلوع . وكان كرنبس قد أرسل ، بعد خلعه ، كنز الدولة ومعه رسالة إلى السلطان الناصر يقول فيها : «إذا كان مولانا السلطان يقصد أن يولى البلاد لمسلم ، فهذا مسلم وهو ابن أختى والملك ينتقل إليه بعدى» [2] .

ولم يلق عرض كرنبس قبولاً عند السلطان ، بل إن السلطان قبض على كنز الدولة ومنعه من العودة إلى بلاده . ثم أرسل السلطان حملة إلى النوبة لتنصيب برشمبو ملكاً عليها . وما أن وصلت قوات الحملة دنقله حتى فرّ كرنبس وأخوه أبرام إلى منطقة الأبواب [3] ، ولكن ملك علوّه قبض عليهما وأرسلهما إلى مصر . وفى القاهرة اعتنق كرنبس وأخوه الإسلام ،

---

(١) راجع ما سبق ذكره بصدد هذا الأمر .

(٢) محمد جمال الدين سرور : دلة بنى قلاوون فى مصر ، ص ١٥٤ (نقلا عن النويرى فى نهاية الأرب) .

(٣) المقريزى : السلوك ، الجزء الثانى — القسم الأول ، ص ١٦١ .

فكان ذلك سببا فى حسن معاملة السلطان لهما ، غير أنه لم يسمح لهما بالعودة ثانية إلى بلادهما[١] .

أما عبد الله برشمبو فقد تولى الملك سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م ، ولذلك فهو يعتبر أول ملك نوبى مسلم جلس على عرش دنقله[٢] . غير أن برشمبو هذا لم يمكث طويلاً فى الحكم ، فقد انتزع كنز الدولة الحكم منه . ذلك أن كنز الدولة نجح فى أن يحتال على السلطان وجعله يأذن له بالسفر إلى أسوان بحجة جمع ما كان عليه من خراج للديوان السلطانى . غير أنه ما أن وصل إلى أسوان حتى هرب إلى دنقله ، وهناك اغتصب الملك من برشمبو وقتله . ومما ساعده على ذلك ثورة الرعية فى النوبة ضد برشمبو لأنه كان مزهواً بنفسه متكبراً عليهم . وذلك ما لم تجر عليه عادة ملوك النوبة . فقد عامل برشمبو النوبيين بغلظة وشدة وغيّر كثيرا من نظم البلاد المتبعة ، فكرهوا لذلك حكمه[٣] .

فما كاد كنز الدولة يصل إلى مدينة الدر سنة ٧١٧ هـ/١٣١٧ م حتى التف النوبيون حوله وأعلنوا ولاءهم له[٤] ، وحيوّه بتحية الملك وهى قولهم « موشاى ، موشاى » ، وهى لفظة لا يخاطب بها غير الملوك[٥] . وتشجع كنز الدولة بمن التف حوله من النوبيين ومن العرب الموجودين فى منطقة مريس — وكان لهم من القوة والكثرة العددية ما جعلهم يتحدّون رغبة السلطان — ، على التقدم لقتال برشمبو . وفى المعركة التى دارت بينهما سنة ٧١٧ هـ/١٣١٧ م قتل برشمبو وتولى كنز الدولة الملك خلفاً له . غير أنه لم يضع تاج الملك على رأسه ، رعايةً لحق أخواله وتعظيماً لهم وحفظاً لحرمتهم[٦] .

غير أن الناصر محمد رفض الاعتراف بكنز الدولة ملكاً على عرش دنقله . وهذا الرفض إما لخوفه من زوال السيادة المملوكية فى تلك البلاد على يد ملك عربى ، وإما بسبب كراهيته أصلاً لشخص كنز الدولة وعدم تقبله الطريقة التى استولى بها على عرش دنقله .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٧ .

— Mac Michael: Op. Cit., I. P. 186.

(٢) المقريزى : نفس المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوطة ، ج ٣ ، ورقة ٩٦ .

(٤) المقريزى : السلوك ، الجزء الثانى — القسم الأول ، ص ١٦١ .

(٥) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ١٥٤ .

(٦) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوطة ، ج ٣٠ ، ورقة ٩٦ .

ومهما كانت أسباب رفض الناصر محمد الاعتراف بكنز الدولة فإنه صمم على الحيلولة بينه وبين عرش النوبة . وقد لجأ الناصر إلى الحيلة والقوة معاً لتحقيق هدفه . فأطلق سراح أبرام خال كنز الدولة ، وأرسله إلى النوبة على رأس حملة ليستعيد عرش البلاد ، ووعده أن ينصبه ملكاً للنوبة وأن يفرج عن أخيه كرنبس إذا هو تمكن من القبض على ابن أخته كنز الدولة وبعث به إليه . وأدرك كنز الدولة ضعف موقفه ، لذلك ما أن وصل أبرام إلى دنقله حتى بادر إلى الاحتفاء بمقدم خاله أبرام ، وقام بتسليم تاج الملك وعرش المملكة له [1] . غير أن الخال لم يقدّر لابن أخته كنز الدولة هذه المبادرة الطيبة ، وبادر إلى العمل على تنفيذ وعده مع السلطان ، فقبض على كنز الدولة ليرسله مكبلاً بالأغلال إلى القاهرة . وقد لعب الحظ دوراً هاماً فى إنقاذ حياة كنز الدولة ، ذلك أن خاله أبرام توفى بعد ثلاثة أيام من القبض عليه [2] . فالتف النوبيون حوله وبايعوه بالمملكة ثانية وألبسوه تاج الملك . فقد أيقنوا أن ما حدث هو انتقام إلهى لكنز الدولة وأن اختياره لعرش النوبة هو اختيار ربانى لا جدال فيه ، فزادت هذه الحادثة العارضة من تأييد الأهالى له والتفافهم حوله . وبذلك أصبح كنز الدولة منذ عام ٧١٧ هـ/١٣١٧ م ملكاً لعرش مقرّة [3] .

وانزعج السلطان الناصر لما وقع فى دنقله من أحداث وعز عليه أن ينصب كنز الدولة ملكاً على عرش دنقله رغماً عنه . ولذلك ما لبث أن عاود الكرة لإبعاد كنز الدولة عن عرش النوبة فأطلق سراح خاله الآخر كرنبس ، وجهزه بجيش لمحاربته [4] . ويبدو أن كرنبس عاوده الحنين لعرش دنقله وندم على تنازله عنه لابن أخته كنز الدولة . فما أن وصلت القوات المملوكية إلى دنقله بقيادة كرنبس حتى ولى كنز الدولة هارباً إلى بلاد علوة ، وتقلد كرنبس الحكم للمرة الثانية . غير أنه ما أن عادت القوات المملوكية إلى مصر حتى عاد كنز الدولة إلى دنقله ، واسترد عرش البلاد من خاله ، ولعب كنز الدولة مع الناصر محمد نفس الدور

---

(١) محمد جمال الدين سرور : نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢) النويرى : نفس المصدر والصفحة .

– المقريزى : السلوك ، القسم الأول ، الجزء الثانى ، ص ١٦١ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والصفحة .

(٤) كان هذا الجيش بقيادة خمسة من الأمراء هم : طقصبا الحسامى وهو المقدم ، وعلى بن قراسنقر وبلبان الجاشنكير قزلجا ، وبيبرس الخاص تركى ، وأيدمر الكبكى ، وجماعة من المماليك السلطانية ومماليك الحلقة (زيترشتين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٧٤) .

الذى لعبه سيامون من قبل مع أبيه الملك المنصور [١] . وأخيراً لم يجد الناصر محمد مفراً من الاعتراف سنة ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣ م بكنز الدولة ملكاً على دنقله ، وذلك لما كان يتمتع به من حب الرعية ، نوبيين وعرباً .

وتعتبر سنة ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣ م نهاية عهد مملكة مقرّه المسيحية وبداية عهد دولة بنى الكنز الإسلامية . ذلك أن بلاد النوبة وإن كانت قد خضعت خضوعاً حقيقياً للنفوذ الإسلامى منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس ، غير أن المسيحية لم يضعف شأنها فى تلك البلاد إلا بعد أن مهد السلطان الملك الناصر محمد السبيل لتنصيب أمير نوبى مسلم عليها ، وبعد أن اعتلى عرشها ملوك مسلمون من بنى الكنز . وقد ظل بنو الكنز ملوكاً على بلاد النوبة وأصحاب السلطة الفعلية على جزء كبير من أقاصى الصعيد حتى الفتح العثمانى لمصر [٢] .

هذا ويتضح من سير الأحداث التاريخية تبعية بنى الكنز ، أمراء النوبة ، لسلاطين المماليك ، وأن استقلالهم بإمارتهم كان استقلالاً ذاتياً [٣] . وتزداد هذه الحقيقة وضوحاً إذا ما رجعنا إلى مؤرخ معاصر ، عاش أحداث هذه الفترة عن قرب ، وعرف بصلته الوثيقة بالبلاط المملوكى ، كما عرف باهتمامه بالكتابة فى تاريخ النظم والعلاقات الدبلوماسية . هذا المؤرخ هو شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، الذى كتب لنا ، فى عهد السلطان الناصر محمد ، موسوعته العلمية الكبرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » وكتابه « التعريف بالمصطلح الشريف » الذى يأتى فى مقدمة الكتب التى تتحدث عن النظم المملوكية . كما أتيحت للعمرى فرصة الاطلاع على حقائق الأمور بالبلاط المملوكى ، فقد كان يساعد أباه فى القيام بمهمة كاتب السر للناصر محمد . فكان هو الذى — يقوم عن أبيه — بقراءة البريد على السلطان ، كما كان هو الذى ينفذ المهمات السلطانية بديوان الإنشاء حتى سنة ٧٣٨ هـ/١٣٣٧ م [٤] .

---

(١) المقريزى : نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ١٥٥ .

(٣) النويرى أحد المؤرخين الذين تحدثوا عن استقلال بنى الكنز . وما ذكره — فى هذا الصدد — لا يعدو قوله أن كنز الدولة استقل بالمملكة ، وهذا لا يتضح منه نوع هذا الاستقلال ، هل كان استقلالاً تاماً ، أم أم استقلالاً ذاتياً (انظر : نهاية الأرب ، مخطوطة ، جـ ٣٠ ، ورقة ٩٦) .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

فى كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف » — الذى يبدو أنه كتبه قبل موسوعته الكبرى « مسالك الأبصار »[١] — يحدد هذه العلاقة بين ملوك النوبة والدولة المملوكية دون أن يذكر صراحةً اسم بنى الكنز ، فيقول : « إن صاحب دنقله رعيةٌ من رعايا صاحب مصر ، عليه حمل مقرر يقوم به كل سنة ويخطب ببلاده لخليفة العصر وصاحب مصر »[٢] . هذا ويبدو أن ابن فضل الله العمرى وضع هذا التعريف لصاحب دنقله فى وقت يسبق قليلاً وقت استقلال كنز الدولة (سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م)[٣] .

إذ أننا نرى العمرى فى موسوعته « مسالك الأبصار » يشير صراحةً إلى خضوع بنى الكنز ملوك النوبة للدولة المملوكية ، فيقول : « إن أولاد الكنز صاروا يخضعون للسلطنة المملوكية ، وهم ملوك النوبة وعليهم حمل مقرر لصاحب مصر . وهذه الإتاوة لا ذهب فيها ولا فضة ، بل هى عدد من العبيد والإماء والحراب والوحش النوبية »[٤] . وهذا النص يجعلنا نستخرج حقيقةً تاريخيةً هامة ، وهى أن العمرى كتب هذا الجزء من موسوعته مسالك الأبصار بعد سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م .

ويضيف العمرى بأن رسم المكاتبة إلى كنز الدولة فى عهد الملك الناصر كان كالآتى : « صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السام الجليل الغازى المجاهد المؤيدى الأوحدى العضدى ، مجد الإسلام ، زين الأنام ، فخر المجاهدين ، عمدة الملوك والسلاطين »[٥] . ويترتب على هذا التعريف الذى أورده العمرى تحديد أكثر دقة لوضع إمارة بنى الكنز بالنسبة للسيادة المملوكية . ذلك أنه حسب قواعد المكاتبات الرسمية التى استقر الأمر عليها فى الدولة المملوكية نجد أن مخاطبة كنز الدولة بالمجلس السام تضعه فى أدنى مراتب المكتوب إليهم من الملوك عن الأبواب السلطانية[٦] .

---

(١) توجد نسخة كاملة من هذه الموسوعة بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة ، وهذه النسخة تتألف من أربعين مجلد ، مصورة عن النسخة الأصلية باستانبول .

(٢) ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢ هـ ، ص ٢٩

(٣) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة ، ص ١٧٣ .

(٤) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، مخطوطة ، القسم الثانى — الجزء الثانى ، ورقة ٤٩٣ .

— Demombyne: L'Afrique, Moins L'Egypt, P. 49.

(٥) التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٩ .

(٦) يذكر القلقشندى (صبح الأعشى ، جـ ٦ ، ص ١٢٦–١٢٨) ألقاب المكتوب إليهم من الملوك =

ومع ذلك فيبدو أن استقلال بنى الكنز فى إمارتهم الجديدة كان شبه تام . فقد أخبرنا الرحالة ابن بطوطة ، أثناء رحلته الأولى إلى مصر ، سنة ٧٢٦ هـ/١٣٢٦ م ، أنه لم يعد يربط أميرهم كنز الدولة ، فى ذلك الوقت ، بالدولة فى مصر إلا رابطة الولاء الروحى [١] .

غير أن بنى الكنز حرصوا على ألا تنقطع صلتهم بالخلافة الإسلامية وبالسلطنة المملوكية ، وذلك حتى يدعموا مركز دولتهم أمام أهالى النوبة الحديثى العهد بالإسلام . فحرصوا على إرسال ما هو مقرر عليهم من حمل للسلطان المملوكى وتقديم الهدايا له . وكان من نتائج ذلك أن صفح الناصر محمد عنهم وأرسل لهم مكاتبات تعترف بهم ملوكاً على عرش دنقله [٢] .

• • •

سياسة سلاطين المماليك ، بعد الناصر محمد ، مع بنى الكنز :

مرت مصر بعد وفاة الناصر محمد حتى بداية عهد برقوق تقريباً (٧٤١–٧٨٤ هـ/ ١٣٤٠ – ١٣٨٢ م) بفترة من فترات الضعف والاضطراب ، بسبب ضعف أولاد الناصر وصغر سنهم وما ترتب على ذلك من اشتداد الصراع بين أمراء المماليك على السلطة [٣] . وفضلاً عن ذلك فقد تتابعت على البلاد ، فى هذه الفترة ، نوبات القحط وما ترتب عليها من اشتداد الغلاء وانتشار الوباء [٤] . وقد استغل بنو الكنز هذه الفترة فى تدعيم مركزهم [٥]

= عن الأبواب السلطانية فيقسمها أربعة طبقات : أعلاها الطبقة الأولى ، وهى ما يصدر بلقب المقام . يليها ما يصدر بلقب المقر ، ثم لقب الجناب ، وأدناها ما يرد بلقب المجلس . ويقسم لقب المجلس إلى أقسام ، أعلاها المجلس العالى ، يليها المجلس السامى ، وأدناها المجلس السام (بدون ياء) كألقاب صاحب دنقله إذا كان مسلما .

(١) رحلة ابن بطوطة ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

— De Slane, Mac Guckin: Voyage dans le Sudan Par Ibn-Batouta, Journal Asiatique, Paris 1843, Quatriéme série, T. I. P. 202.

(٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، مخطوطة ، القسم الثانى – الجزء الثانى ، ورقة ٩٣ . ؛

(٣) انظر :

— Wiet: L'Egypte Arabe, PP. 521-524.

(٤) انظر أيضا : عن القحط والغلاء والوباء :

– المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص ٤١ وما بعدها

– أحمد دراج : الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية فى مصر المملوكية ، مقال مستخرج من المجلة التاريخية المصرية ، العدد الرابع عشر ٦٦ – ١٩٦٧ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

– إيضاحات جديدة عن التحول التجارى فى البحر الأحمر ، ص ٢٠٤

(٥) — Budge, E.A.W.,: A History of Eithiopia, Vol. I. P. 106.

ولما حانت للدولة المملوكية فترة من فترات القوة والهدوء الداخلى ، فى عهد الأشرف شعبان الثانى (٧٦٤ – ٧٧٨ هـ/١٣٦٢ – ١٣٧٦ م) ، وجهت اهتمامها لتدعيم سيادتها على بلاد النوبة عندما حانت الفرصة لذلك . وجاءت هذه الفرصة حين ضعفت قوة بنى الكنز ، بسبب اشتداد النزاع بين أفراد البيت الكنزى الحاكم ، وحين لجأ بعض الأمراء الكنوز إلى القاهرة يطلبون مساعدة السلطان ضد البعض الآخر منهم للوصول إلى كرسى الحكم . كذلك لجأ بعض الأمراء الكنوز إلى السلطان طلباً لمساعدتهم على التخلص من الأعداد الهائلة من العرب النازحين إلى بلادهم .

فنى سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م وصلت إلى القاهرة سفارة من بنى الكنز ، من اثنين من قواد جيوشهم وهما : ركن الدين كرنبس ، وياقوت فارس الدين ، وبصحبتهما أحد التراجمة ويدعى ياقوت . وقد جاءت هذه السفارة تطلب من سلطان مصر الأشرف شعبان ، أن يساعدهم فى التخلص من بنى جعد ، وهم من عرب عكرمة ، ومن غيرهم من القبائل العربية النازحة إلى بلادهم[1] . وعرضت السفارة أن يدفع بنو الكنز جزية سنوية للسلطان مقابل هذه المساعدة ، وكان بنو الكنز قد توقفوا عن دفع الجزية السنوية فى الفترة التى أعقبت وفاة الناصر محمد بن قلاوون[2] .

وكان نفوذ بنى جعد قد ازداد فى إمارة بنى الكنز بسبب المركز الممتاز الذى تحقق لهم نتيجة للنزاع بين أفراد البيت المالك الكنزى : فنى السنة السابقة على هذه السفارة دب النزاع بين ملك النوبة الكنزى وبين ابن أخيه . وكان ابن الأخ هذا قد ثار على كنز الدولة واستعان بعرب بنى جعد فى قتله وانتزاع عرش البلاد منه[3] . غير أن أتباع الملك الكنزى المقتول أقاموا ابنه خلفاً له على العرش عند قلعة الدو (ببلدة الدر) تاركين دنقله تحت رحمة الأمير الثائر ورحمة أتباعه من بنى جعد . ولكن سرعان ما عاد الأمير الثائر إلى صوابه وتخلص من زعماء بنى جعد بمكيدة دبرها لهم قتل فيها معظمهم[4] . ثم ذهب

(١) بنوجعد ، فرع من عكرمة من قيس عيلان ، وهم من الأنصار وينسبون إلى سيد الأوس سعد بن معاذ ابن النعمان (المقريزى : البيان والأعراب ، ص ٤٧ ، ٤٨)

(٢) المقريزى : السلوك ، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٥٥، تاريخ ، المجلد السابع، ورقة ٤٨ أ .

(٣) — Mac Michael: Op. Cit., Vol. I, P. 187.

(٤) — Budge: The Egyptian Sudan, Vol. II, P. 197.

— Greener: High Dam Over Nubia, London 1962, P. 185.

الأمير إلى الدر ليصطلح مع ابن عمه ، وهناك تم الصلح بينهما على أن يصبح الأمير الثائر نائباً للملك كنز الدولة . و بعد ذلك أرسل الأميران هذه السفارة إلى القاهرة فى سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م ، يطلبان فيها معاونة سلطان مصر ضد القبائل العربية النازحة إلى بلادهم . وكانت فرصة مواتية للسلطان المملوكى ليستعيد نفوذه من جديد على بلاد بنى الكنز ، فأرسل حملة بقيادة الأمير أكتومر عبد الغنى [١] ، وجملة من الأمراء إلى بلاد النوبة [٢] .

وقد قدّم بنو الكنز كل المساعدة لحملة السلطان بعد أن منحهم قائدها الأمان .

وتقدمت الحملة جنوباً فى أرض النوبة قاصدة قلعة الدو لإنقاذ الملك الكنزى من الحصار الذى فرضه عليه بنو جعد . وعند مدينة ابريم غدر القائد المملوكى ببنى الكنز وقبض على زعمائهم وحنث فى عهد السلطان لهم . ومن ابريم قصدت فرقة مملوكية لقتال بنى جعد عند جزائر ميكائيل حيث دارت معركة قتل فيها الكثيرون منهم وفرّ من نجا منهم إلى الجبال [٣] .

ثم عادت الحملة إلى أسوان ومعها أسرى بنى الكنز وبنى جعد حيث أودعوا السجن بها . وهنالك قام والى أسوان الأمير حسام الدين ، المعروف « بالدم الأسود » ، بقتل هؤلاء الأسرى بعد أن أمر بتسميرهم فى ألواح من خشب ، والتشهير بهم وهم على هذا الحال . ثم أرسلت بعد ذلك رؤوسهم إلى القاهرة لتعلق على أبوابها . غير أن هذه الحملة وما نجم عنها من عنف وأسر وتشهير وتقتيل أثارت بنى الكنز وبنى جعد ، فعزموا على الثأر مما حل بهم وببلادهم ، فسارت قواتهم فى أعداد كبيرة فى نفس هذا العام إلى أسوان واشتبكوا هناك فى معركة عنيفة مع القوات المملوكية . وفى هذه المعركة حلت الهزيمة بالقوات المملوكية ، كما قتل والى أسوان الأمير حسام الذين ، كما أعقب ذلك أن أغارت القوات المنتصرة على مدينة

---

(١) ذكره ابن حجر باسم أقتمر عبد الغنى التركى ، انظر : أنباء الغمر بأبناء العمر ، مخطوطة بدار الكتب، رقم ٨٨٤٤ ح ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، ص ٢٧٧

(٢) المقريزى : السلوك ، مخطوطة ، المجلد السابع ، ورقة ٤٩ .

– على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، طبعة بولاق ، ١٣٠٥ هـ جـ ٨ ، ص ٦٩

(٣) المقريزى : نفس المصدر السابق والصفحة .

— Budge: The Egyptian Sudan, Vol. II, P. 197.

أسوان فأنزلت بها وبسكانها معاول التخريب والتقتيل [١] .

وظلت الأمور على هذا الحال من الفوضى ، كما ظلت الغلبة فى بلاد النوبة وعند أسوان لبنى الكنز ولمن حالفهم من العرب حتى سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨م . فنى هذا العام دب النزاع ثانية بين أمراء بنى الكنز ؛ الأمر الذى أدى إلى انقسامهم على أنفسهم . وأعطى هذا الانقسام الفرصة لأمير أسوان قرط بن عمير للإنتقام منهم وإضعاف نفوذهم [٢] فقام فى نفس السنة بالإغارة على بنى الكنز خارج أسوان ، وقبض على أحد عشر زعيماً من زعمائهم وقتلهم ، ثم بعث برؤوسهم إلى القاهرة حيث علقت على باب زويلة . كما أرسل مائتين من أبناء رؤوسائهم مكبلين بالأغلال إلى القاهرة . وفى ٢٥ ذى الحجة من نفس العام أسر قرط بن عمير أميراً من بنى الكنز يدعى غلام الله ، كان يعد العدة لمحاربة القوات المملوكية واغتيال السلطان برقوق [٣] وعثر معه على عدد كبير من السيوف كان يريد أن يرسلها لبنى الكنز . يقول فى ذلك ابن حجر العسقلانى : « فى خامس عشرين من ذى الحجة من سنة ٧٨٠ هـ ، وجدت ورقة عند برقوق فيها أن غلام الله حشد الشربخاناه يريد أن يكبس عليكم فى صلاة الجمعة مع العبيد ، فأمر الخطيب أن يؤخر الخطبة . واتفق حضور قرط من أسوان ومعه كتب من غلام الله إلى أولاد الكنز يحرضهم على المجىء ، فقبض على غلام الله وسجن » [٤] .

كما عاود بنو الكنز الهجوم على أسوان بعد هذه السنة مرات عديدة . ويبدو أنهم فى إحدى هجماتهم على أسوان اشتركوا مع قوات حبشية هاجمت أسوان فى ذلك الوقت . فنى عام ٧٨٣ هـ/ ١٣٨١ م وصل جيش من الحبشة إلى حدود مصر الجنوبية وهاجم منطقة أسوان وخرّب فيها . ولم يعد هذا الجيش إلى بلاده إلا بعد تدخل بطريق

---

(١) المقريزى : نفس المصدر السابق ، ورقة ٥٢ ب .

— Budge: Op. Cit., II, 197.

(٢) ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر ، مخطوطة ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، ص ١٨٢ .

— Budge: Op. Cit., II, P. 198.

(٣) المقريزى : نفس المصدر السابق ، ورقة ٥٢ ب .

— Quatremiére: Mémoires Sur L'Egypte, T. II, P. 198.

(٤) أنباء الغمر ، مخطوطة ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، ص ١٨٨ .

— Wiet: Les rélations Egypto-Abyssines sous Les Sultans Mamlouks, P. 124.

الأقباط وطلبه من ملك الحبشة سحب هذا الجيش[1] . وفى سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، استولى بنو الكنز على أسوان حين كان يليها حسين بن قرط[2] . واستولوا عليها مرة ثانية سنة ٧٩٨ هـ /١٣٩٦ م بالاشتراك مع عرب هواره[3] الذين ثاروا على السلطان لحبسه أميرهم على بن غريب وأولاده وأخوته وأقاربه وأربعة وثلاثين نفراً من أكابر عربانه . فوثبوا على قطلوبغا الطشتمرى النائب بالوجه القبلى وقتلوه ثم تجمعوا وتوجهوا إلى أسوان واتفقوا مع بنى الكنز ، ، ودخلوا أسوان على حين غفلة من واليها حسين بن قرط . وهرب حسين إلى النوبة فنهب المغيرون بيته ونهبوا مدينة أسوان . فلما بلغ السلطان الظاهر برقوق ذلك ، ولى عمر بن إلياس نيابة الوجه القبلى وأمره بالتوجه إلى أسوان والقبض على بنى الكنز وعرب هواره . لكن عمر بن إلياس لم يوفق فى ذلك ، وظلت أسوان فى يد بنى الكنز حتى سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧م[4] .

وعلى هذا النحو يكون بنو الكنز قد استقلوا تماماً عن الدولة المملوكية ، وأدى ذلك إلى صراعهم الشديد معها . ويعبر عن ذلك ابن خلدون — وهو مؤرخ معاصر — بقوله : « إنه منذ ذلك التاريخ (أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل التاسع) انقطع إرسال ملوك النوبة للجزية والبقط إلى حكام مصر »[5] . كما يشير القلقشندى إلى أن مملكة النوبة فى ذلك الوقت (أى فى عهده) أصبحت مملكة مستقلة بذاتها وأنه لهذا السبب أورد مكاتبة صاحبها فى جملة الملوك . كما يضيف أنه زيد فى مكاتبتهم بعد « جملة عمدة الملوك والسلاطين » جملة « أدام الله سعادته وبلغه فى الدارين إرادته »[6] .

غير أن نهاية دولة بنى الكنز بدأت فى الوقت الذى تحقق لها هذا الاستقلال التام . فنى سنة ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧م حانت الفرصة للسلطات المملوكية أن تستعيد أسوان وتبسط نفوذها القديم على بلاد النوبة . فنى ذلك العام لجأ نصر الدين ملك

—Marcel Jungfleisch: Hassan Suliman, Kashif of Nubia, S.N.R.,XXVII, 1946,P. 239. (١)

(٢) المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، الجزء الثالث ، القسم الثانى ، ص ٢٨٥

(٣) عن عرب هواره ، انظر فيما بعد .

(٤) المقريزى : السلوك ، مخطوطة ، المجلد العاشر ، ورقة ٢٦٠ .

— الخطط ، نشر فييت ، القسم الثانى — الجزء الثالث ، ص ٢٨٥

(٥) العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٢٩ .

(٦) صبح الأعشى ، جـ ٨ ، ص ٦ ، ٧ .

النوبة إلى القاهرة مستنجداً بالسلطان المملوكى الظاهر برقوق ضد ابن عمه[١] . فكلف السلطان والى أسوان إبراهيم الشهابى بمساعدة نصر الدين . فسارت الحملة إلى بلاد النوبة لتحقيق ذلك، ويبدو أنها نجحت فى مهمتها واستطاعت أن تعيد النفوذ المملوكى مؤقتا إلى تلك المنطقة . وظلت الدولة المملوكية تتمتع بالسيادة الفعلية على أسوان وبلاد النوبة ، نتيجةً لهذه الحملة ، حتى سنة ٨٠٦ هـ/ ١٠٤٣م . فنى هذه السنة جرت محن مدمرة خربت إقليم الصعيد كله[٢] .

---

(١) المقريزى : السلوك ، مخطوطة ، بدار الكتب ، رقم ٤٦٤ تاريخ ، الجزء الثالث ، القسم الأول ، ورقة ٢ أ .

– العينى : عقد الجمان ، مخطوطة ، جـ ٢٧ ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

– ابن حجر : أنباء الغمر ، مخطوطة ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ، ص ٢ .

(يذكر ابن حجر أن اسمه ناصر النوبى ، صاحب بلاد النوبة) .

(٢) المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، القسم الثانى ، الجزء الثالث ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

– أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ١٢ ، ص ٣٠١ .

نهاية دولة بنى الكنز سنة ٨١٥ هـ - ١٤١٢م
ووضعهم السياسى بعد هذا التاريخ

ازدادت الحالة الاقتصادية فى مصر سوءاً فى نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجرى بسبب المجاعة الطويلة المتقطعة التى حلت بمصر سنة ٧٩٦هـ /١٣٩٤م ، وامتدت حتى سنة ٨٠٩ هـ /١٤٠٦ م . وقد صحب هذه المجاعة انتشار الوباء الذى مات فيه ألوف مؤلفة من المصريين فى السنوات الأخيرة منها ، أى منذ سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م[١] .

وتسببت هذه الضائقة الاقتصادية فى زيادة الاضطرابات فى البلاد وارتفاع يد السلطنة عن جنوب البلاد ، ودفع أعداد هائلة من قبائل هواره وفزاره وجهينة الموجودة بشمال البلاد إلى الهجرة جنوباً وإلى بلاد النوبة .

وكانت حكومة بنى الكنز فى بلاد النوبة من الضعف وقتذاك بحيث أنها لم تستطع رد هذه القبائل النازحة أو التغلب عليها ؛ مما أدى فى نهاية الأمر إلى سقوطها وانتقال الحكم من يدها إلى يد هذه القبائل .

فقبيلة هواره[٢] التى اضطرت إلى الرحيل من البحيرة ، بسبب تغلب زناته عليها ، زحفت إلى صعيد مصر سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م . ونزل رجالها بالأعمال الأخميمية فى جرجا وما حولها أيام السلطان الظاهر برقوق[٣] ، وهناك قوى أمرهم واشتد بأسهم . وانتشرت بطون هواره فى معظم الوجه القبلى بين أعمال قوص إلى غربى الأعمال

---

(١) يذكر المقريزى أنه بسبب هذه المجاعة مات ما يزيد عن نصف السكان وهلك أهل الصعيد. ويذكر أنه أحصى من مات بمدينة قوص فوجد أنهم بلغوا سبعة عشر ألف إنسان ، ومن مات بمدينة أسيوط أحد عشر ألفا (المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٤٣) .

- انظر : أحمد دراج : الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية فى مصر المملوكية ، ص ١٠٩ .

(٢) هواره من قبائل البربر مثل زناته ، وضريسة ، وصنهاجة وكتامة ، ولواته ، ومزاته ، (الإدريسى نزهة المشتاق ، ص ٥٧ - المقريزى : البيان والأعراب ص ١٥٨)

(٣) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ٤٤١ .

البهنساوية[١] . ثم زحفت هواره جنوباً سنة ٨١٥ هـ/١٤١٢ م حتى وصلت إلى أسوان ، وتحالفت بادئ الأمر مع بنى الكنز . غير أنها مالبثت بعد ذلك أن ناصبتها العداء واشتبكت مع قواتها فى معركة حامية عند أسوان انتهت بهزيمة بنى الكنز وقتل عدد كبير من رجالهم ؛ فضلا عن تخريب مدينة أسوان وقتل عدد كبير من أهلها[٢] .

وضعف مركز بنى الكنز فى جنوب البلاد بعد هذه المعركة وتقلص نفوذهم إلى منطقة مريس ، وصاروا أتباعا لهمام أبى يوسف السعدى زعيم هواره ودانوا له بالولاء . وبذلك تكون امتدت سيطرة هواره ، فى عهد همام ، على المنطقة الممتدة من جنوب أسيوط حتى بلاد النوبة ، واضطر سلاطين المماليك إلى الاعتراف لهم بهذه السيطرة .

غير أن هواره ما لبث أن ضعف نفوذها فى منتصف القرن التاسع الهجرى بسبب النزاع بين أمرائها وانقسامهم على أنفسهم ، وهذا أدى إلى تدخل السلطنة المملوكية[٣] . وقد نجحت السلطنة المملوكية فى الاستفادة من هذا النزاع لاستعادة نفوذها على جنوبى البلاد[٤] .

أما جهينة[٥] فقد نزحت إلى صعيد مصر فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى ، وملكت فيه عدة جهات انتشرت فيها . وحاول بنو الكنز أن يردوهم عن

---

(١) بلغت هواره أوج قوتها فى مطلع القرن التاسع الهجرى حين ولى أمرها محمد بن عمر بن عبد العزيز الهوارى الذى كان يعرف بأبى السنون (المقريزى : البيان والأعراب ص ٥٨) .

(٢) المقريزى : الخطط نشر فييت ، القسم الثانى ، الجزء الثالث ، ص ٢٨٥ .

(٣) يذكر أبو المحاسن عند تعرضه لأحداث سنة ٨٥٢ هـ أن فى هذا العام أرسل السلطان (جقمق) حملة إلى الصعيد بقيادة « تمر باى التمر بغاوى » قائد القوات و بصحبته إسماعيل بن عمر الهوارى لقتال العرب الخارجين على الطاعة من هواره. كذلك يذكر أنه فى عام٨٦٥ هـ ورد الخبر بهزيمة أحمد بن عمر الهوارى وأخيه يونس من ابن عمهما سليمان بن عيسى (النجوم الزاهرة ، طبعة وليم بوبر، كاليفورنيا ١٩٣٢ ، الجزء السادس ، ص ٢٧ ، ٣٤٧)

(٤) يذكر ابن إياس أنه فى عام ٨٨٣ هـ فى عهد السلطان قايتباى المحمودى قبض يشبك الدوادار على يوسف ابن عمر الهوارى بعد أن طارده إلى بلاد النوبة ، وقطع رأسه . كذلك قبض على أخيه أحمد وعلى جماعة من أقاربه ، وأنه انتصر على بنى عمر الهواريين نصرة عظيمة ، انظر ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور . طبعة بولاق ١٣١٢ هـ ، جـ ٢ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٥) جهينة من قضاعة ، وهم من العرب القحطانية وينتسبون إلى ليث بن سود بن الحافى بن قضاعة . (القلقشندى ، نهاية الأرب ، ص ٢٢١) .

منطقة نفوذهم فعجزوا عن ذلك ، فاضطروا آخر الأمر إلى مصانعتهم ومصاهرتهم . وأدى ذلك إلى استقرار عرب جهينة بين بنى الكنز والاختلاط بهم ومصاهرتهم ، ثم استفادوا من نظام الوراثة عند النوبيين ، كما استفاد منه بنو الكنز من قبل ، فأصبح لأبنائهم الحق الشرعى فى حكم منطقة نفوذ بنى الكنز [١] .

غير أن عرب جهينة لم يحسنوا سياسة الملك . كما دبت الفرقة بينهم — كما حدثنا بذلك ابن خلدون — ، فأصبحوا شيعاً وأحزاباً وعادوا إلى ما كانوا عليه من البداوة ولم يبق لهم أى مظهر من مظاهر الملك . لذلك فضلوا الهجرة إلى السودان تاركين بنى الكنز وبنى عكرمة وهوارة عند أسوان وبلاد النوبة [٢] .

ولهذا عاد نفوذ بنى الكنز ثانيةً على منطقتهم فى منتصف القرن التاسع الهجرى ، وتقوّوا على باقى القبائل الموجودة معهم ، وحاولت السلطنة المملوكية ، من جديد القضاء على نفوذهم ، وهذا أدى إلى دخولها معهم فى معارك حامية . فى سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م ، فى عهد السلطان جقمق ، هجم عربان الكنوز على الصعيد . فأرسل إليهم السلطان حملة عسكرية كبيرة من المماليك لدفعهم عن الفساد . وكان السلطان قد سبق أن أرسل ضدهم حملة عسكرية لم يقدّر لها أن تحقق نصراً عليهم . ويبدو أن الحملة الثانية نجحت بعض الشىء فى مهمتها ، ذلك لأن هذه الحملة عادت بعد ثلاثة أشهر برؤوس جماعة من عرب الكنوز على الرماح [٣] .

وبعد أخبار هذه الحملة لا نجد فى المصادر التاريخية المعاصرة أية إشارة أخرى عن علاقة بنى الكنز بالمماليك ، أو عن أخبار بلاد النوبة بصفة عامة . إلا أن هذه المصادر تعود للحديث عن بنى الكنز بعد فتح العثمانيين لمصر (٩٢٣ هـ / ١٥١٧م) .

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٤٢٩ .
— القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٨ .
(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ١٥٦ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم ، طبعة بوبر ، الجزء السابع ، ص ١٢ ، ١٣ .
— السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، طبعة بولاق ، ١٨٩٦ ، ص ٩٣ .

فبعد هذا الفتح أصبحت منطقة جنوب الصعيد وبلاد النوبة منطقة صراع مرير بين البكوات المماليك والأمراء العثمانيين ، كما أصبحت مأوى لكل ثائر هارب من الحكومة ومعه أتباعه ومماليكه[1] . لذلك أراد السلطان سليم أن يدعم سلطة الحكومة فى هذه البلاد ، فأرسل سنة ٩٢٦ هـ/١٥٢٠م أحد قواده ويدعى حسن قوسى لفتح النوبة . ونجح هذا القائد فى إنزال الهزيمة ببقايا قوة بنى الكنز هنالك ، وترك بعد هزيمتهم حاميات من الجند العثمانيين (الغز) فى أبريم والدر وجزيرة ساى ، بعد أن بنى لهم فيها قلاعاً لكى يدعم نفوذ الدولة هناك . وقد عرف رجال تلك الحاميات باسم الكشاف[2] .

واختلط هؤلاء الكشاف ببنى الكنز وتزوجوا من بناتهم ، فتقوى بسبب هذه المصاهرة بنو الكنز ، وعاد لهم بعد وفاة حسن قوسى نفوذهم القديم فى البلاد . وباتوا يتمتعون باستقلال شبه تام فيها ، ولم يكن للحكومة المركزية أى سلطان عليهم[3] .

وحاول الفونج بعد وفاة حسن قوسى أن يضموا شمال النوبة إلى مملكتهم وأرسلوا من أجل ذلك جيشاً ، لكن ابن جانبلان رئيس الغز جمع جيشاً كبيراً وتصدى للدفاع عن البلاد . ودارت معركة حامية عند بلدة « حنك » ، هزم فيها الفونج هزيمة ساحقة وانسحبوا مهرولين تاركين قتلاهم وراءهم[4] . وبعد تلك المعركة ساد الأمن البلاد حتى فتح إسماعيل بن محمد على السودان سنة ١٨٢٠ ، وقد أقر إسماعيل الوضع فى النوبة على ما كان عليه . واستمر هذا الوضع قائماً حتى قيام الثورة المهدية بالسودان ، تلك الثورة التى قامت بغزو النوبة وأزالت حكم الكشاف عنها[5] .

ولكن ما أن عاد النفوذ المصرى إلى السودان عقب زوال حكم المهديين ، حتى

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

(٢) مازالت أعداد من الكشاف تعيش فى أسوان حتى الآن .

نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية ، ج ١ ، ص ٦٦ .

(٣) عبد الله حسين : السودان القديم والحديث ، القاهرة ١٩٣٥ ، ص ٥٧ .

(٤) M Budge)E.A.W.): A History of Eithiopia, I, PP. 107-108.

(٥) — Ibid, P. 108.

عاد لبنى الكنز نفوذهم فى المنطقة ما بين كرسكو والشلال . وكف بنو الكنز عن أعمال الشغب والعنف بسبب قوة سلطة الدولة المركزية وقتئذ[١] . وأصبح بنو الكنز منذ ذلك الوقت مواطنين مسالمين ، يعملون لخدمة وطن مصر الكبير الذى تمتعوا فيه بكل ما للمواطن من حقوق[٢] .

(١) — Mac Michal: A History of the Arabs in the Sudan, Vol. I, P. 150.

(٢) عن حالة بنى الكنز الآن ، وأهم عاداتهم وتقاليدهم ، انظر الباب الرابع .

الباب الرابع

مآثر بنى الكنز

١ – دور بنى الكنز فى تنمية موارد إمارتهم .

٢ – ازدهار مدينة أسوان فى عهد إمارة بنى الكنز الأولى .

٣ – دور بنى الكنز فى نشر الإسلام بين قبائل البجة الوثنية وقبائل النوبة المسيحية .

٤ – ماذكره الكتاب والشعراء فى مآثر بنى الكنز .

٥ – قائمة بأسماء أمراء وملوك بنى الكنز التى وردت فى المصادر .

٦ – قبائل بنى الكنز (الكنوز) الحالية وأهم عاداتها وتقاليدها .

دور بنى الكنز فى تنمية موارد إمارتهم

استطاع بنو الكنز أن يستغلوا موارد ثروة إمارتهم إستغلالاً طيباً ، الأمر الذى ساعد على زيادة ثرائهم وذيوع صيتهم . وتتمثل هذه الموارد فى إستغلال مناجم العلاقى ، والاستفادة من الحركة التجارية بثغر عيذاب وعبر صحراء عيذاب[١] .

أما عن مناجم العلاقى ، فقد تحكم أمراء بنى الكنز فى مناجم الذهب ومعادن الزمرد فى الصحراء الشرقية منذ أن وطئت أقدامهم أرض العلاّقى واختلطوا فيها بقبائل البجة . وكان دافع بنى الكنز الأول للهجرة إلى بلاد البجة هو البحث عن الذهب الذى اشتهرت به هذه البلاد .

هذا وقد اشتهرت أرض البجة من قديم الزمن بوجود كميات كبيرة من الذهب والزمرد فى أرضها . ودلت الأبحاث على أن قدماء المصريين استغلوا مناجم ومعادن تلك البلاد منذ وقت بعيد[٢] . فبردية تورين ، وهى أقدم خريطة فى العالم[٣] ، تشير إلى أن مناجم العلاّقى هى أقدم مناطق استخراج الذهب فى وادى النيل . وتشير كذلك إلى أن المناجم القديمة المسماة « داراهيب » Darahib فى وادى العلاّقى هى أهم مصادر الذهب لمصر منذ أيام قدماء المصريين[٤] .

واستمر استغلال هذه المناجم حتى عهد البطالمة . ولما نزح العرب إلى بلاد

---

(١) — Mac Michael: Op. Cit., Vol. II, P. 99.

(٢) بدأ استغلال مناجم الذهب فى هذه المنطقة منذ سنة ١٩٨٠ ق . م فصاعدا (سليم حسن : مصر القديمة ، القاهرة ١٩٤٠ – ١٩٥٠ ، ج ٦ ، ص١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ – برستد : تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسى ، ترجمة حسن كمال ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٩ ، ٢٧٨) .

(٣) بردية تورين ، هى بردية يرجع تاريخها إلى سنة ١٣٥٠ ق . م . محفوظة الآن بمتحف تورين . وقد صور عليها حسب ما وصلت إليه معلوماتنا أقدم مصور جغرافى فى العالم ، وهذا المصور قد مثل عليه الأصقاع التى يوجد فيها الذهب فى وادى النيل ونشاهد بها لوحة نقش عليها اسم الملك سيتى الأول ومن هذه الإشارة عرفنا أن هذه البردية ترجع إلى عهد سيتى الأول ، سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٦ ، ص ٩٨ ، ٩٩) .

(٤) — Thomas, E.S.,: The Ancient Mine Plant of Turin Papyrus, Cairo Scientific Journal, Vol. 1913, III, PP. 168-160).

البجة ، وخاصة عرب ربيعة ، عرفوا طريقهم إلى هذه المناجم وعملوا فيها ، ولما قويت شوكتهم بالبلاد تملكوها[١] .

وقد أجمع المؤرخون المسلمون على استمرار وجود معدن الذهب فى بلاد البجه وقت نزول ربيعة بها ، كما أشاروا إلى أن البجه لم تكن تعمل فى هذه المعادن بل كان رجال ربيعة هم وحدهم الذين يعملون فيها[٢] . ووصفوا لنا أيضاً ، كيف كان عرب ربيعة يستخلصون التبر من رمال أرض البجه . فذكروا أنهم كانوا يذهبون ليلاً فى أول ليالى الشهر العربى وآخره إلى المناطق المحتمل وجود التبر فيها ويعلّمون على المناطق التى يضيئها التبر ويبيتون بها ، وفى الصباح يحملون أكوام الرمل التى علّموا عليها ويأخذونها إلى آبار هناك ويغسلونها بالماء ثم يستخرجون التبر منها ويسبكونه بعد أن يخلطوه بالزئبق[٣] .

واستمر استغلال بنى ربيعة (بنى الكنز) لهذه المناجم منذ أن نزلوا بأرضها وطوال العهد الفاطمى . وذكر ابن بعره اهتمام الخليفة الفاطمى الآمر بالله (٤٩٥ – ٥٢٤هـ) بذهب هذه المناجم وتشجيعه عرب الكنز على استخراج أكبر كمية منها . ويبدو أن بنى الكنز استجابوا لطلبه واستخرجوا كميات كبيرة من الذهب حتى أن الخليفة الآمر بنى داراً لسك النقود الذهبية بمدينة قوص (سنة ٥٢٣ – ٥٢٤ هـ) لتكون بالقرب من موطن استخراج الذهب[٤] .

---

(١) من أماكن مناجم التبر فى الصحراء الشرقية انظر ماكتبه اليعقوبى فى كتاب البلدان ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، وانظر الملحق رقم (٦) ، ص ١٥٣ .

(٢) – ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٦٢ ، المسالك والممالك ، نشر دى خويه ، ليدن ١٨٧٣ ، ص ١٠٧ .

– ياقوت : معجم البلدان ، طبعة طهران ١٩٦٥ ، المجلد الثالث ، ص ٧١ .
– الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .
– المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، القسم الثانى من ج ٣ ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٣) – الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢٦٠

– ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، طبعة مصر ، ١٢٨٠ هـ ، ص ٦٥ .
– محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٤) ابن بعره : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمى، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

— Ehrenkreutz: Contributions to the knowledge of the Fiscal administration of Egypt in the Middle Ages. (Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, volume XVI, 1954, P. 508).

وفى أيام الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين ، نضبت موارد الذهب فى العلاقى . ولهذا زهد بنو الكنز الإقامة فى الصحراء ورحلوا عنها إلى بلاد النوبة والسودان فى بداية عهد حكم السلطان صلاح الدين لمصر[1] .

هذا ولم يقتصر استغلال بنى الكنز للذهب وحده فى مناجم العلاقى بل كانوا أيضاً يستغلون معادن أخرى ، هى النحاس والحديد والرصاص وحجر المغنطيس[2] .

أما الزمرد أو الزبرجد[3] ، كما كان يسميه المؤرخون المسلمون[4] ، فقد قام عرب الكنز باستخلاصه أيضاً من معادنه وتصديره إلى خارج بلادهم وقاموا باحتكار تجارته فى العالم كله . ويجمع المؤرخون المسلمون على أن منطقة العلاقى هى المنطقة الوحيدة فى العالم التى يوجد بها الزمرد[5] .

ومكان هذا المعدن — على وجه التحديد — عند جبل « زبارا » على البحر

---

(١) عن نضوب موارد الذهب ، انظر :
— النابلسى (عثمان بن ابراهيم) : لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، تحقيق كلود كاهن :
— Bulletin D'Études Orientales, 1958-1960. Tome XVI, P. 52.
— ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، ص ٣٩ .
— Ehrenkreutz: Op. Cit, Vol. XVI, P. 510.
— De La Roncière: Op. Cit. I, P. 45.
— Darrag: L'Egypte sous le régne de Barsbay, P. 91.

(٢) المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، جـ ٣ ، القسم الثانى ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٣) التيفاشى : أزهار الافكار فى جواهر الأحجار ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ١٣٦ طبيعيات جـ ١ ، ورقة ٥٧ ، ٥٨ (يفرق التيفاشى بين الزمرد والزبرجد فيذكر أن الزبرجد يتكون فى موضع الزمرد ويوجد معه إلا إنه أقل وجوداً من الزمرد . ويذكر أن الزبرجد يتكون من مكونات الزمرد سواء بسواء وكأنه نوع منه ابتدأ ليكون زمرداً ثم قصر عنه فى كيانه بسبب الأعراض الداخلة عليه من ضعف) .

(٤) — ابن الفقيه الهمدانى : البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩١ ، ص ٧٨ .
— ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ١٥٠ .

(٥) — ابن حوقل : نفس المصدر السابق والصفحة .
— الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢٢ .
— أسعد بن مماتى : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٨١ .

الأحمر وفى صحراء العتباى[١] . كما يوجد موضع آخر له عند مدينة قفط يعرف بالخربة[٢] .

ويوجد الزمرد فى مغارات مظلمة كان يدخل إليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال . ويحفر عليه بالمعاول فيوجد فى وسط الحجارة وحوله غشيم دونه فى اللون والجوهر[٣] . وهو يوجد إما عروقاً خضرا فى طبقات من الحجر الأبيض ، وإما مختلطاً بالتراب[٤] . وتعرف العروق فى اصطلاح الجوهريين باسم القصب ، أما ما يوجد فى التراب فيعرف بالفص[٥] .

ويذكر المسعودى أن الزمرد أربعة أنواع ، أجودها وأغلاها ثمناً النوع الذى يعرف باسم « المر » وهو شديد الخضرة . ويأتى بعد المر نوع ثان يعرف بالبحرى ، ثم نوع ثالث يعرف بالمغربى . أما أدنى الأنواع الأربعة وأقلها ثمناً نوع يعرف بالأصم[٦] . بينما يذكر التيفاشى أن أجود أنواع الزمرد تعرف باسم الذبابى ، يليه نوع يعرف بالريحانى ، ثم يأتى بعد الريحانى نوع يعرف بالسلقى ، أما أدنى أنواعه فهو ما يعرف بالصابونى[٧] .

وقام بنو الكنز ، خلال العصر الفاطمى ، بتصدير أحجار الزمرد إلى سائر بلاد

---

(١) برستد : تاريخ مصر ، ص ٢٧٨ .

Belzoni, G., : Narrative of the Operations and recent discoveries in Egypt and Nubia, London 1922.

(٢) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣٣ — أنظر الملحق رقم (٧) . ، ص ١٥٢

— المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٤٨ — ٢٥٠ .

(٣) المقريزى : الخطط ، نشر فييت ، القسم الثانى ، الجزء الثالث ، ص ٢٦٧

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ .

(٥) التيفاشى : نفس المصدر ، ج ١ ، ورقة ٤٧ .

(٦) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

(٧) التيفاشى : نفس المصدر السابق ، ورقة ٤٨ ، ٤٩ .

— (يقول التيفاشى : إن أجود أنواع الزمرد سمى بالذبابى لشبه لونه بالخضرة التى تكون فى الكبار من الذباب الربيعى لا فى صغاره الموجود فى البيوت ، وأما بقية الأصناف المذكورة من الزمرد غير الذبابى فإنها نازلة مقصرة عن جميع الخواص الموجودة فى الذبابى) .

العالم[١] ، فكان جميع ملوك الأرض وأهل الآفاق تستمده منهم[٢] .

كذلك أمد بنو الكنز البلاط الفاطمى بكميات كبيرة من الزمرد. فيُحكى ، على سبيل المثال ، أن رجلا من حرّان قدم على الخليفة الحاكم بأمر الله من أرض البجة ومعه مخلاه مملوءة بالزمرد والجوهر الذى جمعه من أرض البجة[٣] .

وقد وجدت كميات هائلة من الزمرد فى خزائن الخلفاء الفاطميين ، وأمرائهم وكبار رجال دولتهم[٤] . فنى أيام الشدة المستنصرية وجد فى خزائن القصر الفاطمى صندوق به سبعة أمداد زمرد قيمتها على الأقل ثلثمائة ألف دينار[٥] . ووجد ضمن مخلفات الخليفة العاضد التى استولى عليها صلاح الدين زمرد طوله أربع أصابع فى عرض عقد كبير[٦] . كما خلّفت الأميرة عبدة بنت المعز لدين الله ، التى توفيت سنة ٤٤٢ هـ ، ثروة طائلة لا تحصى منها إردب من الزمرد[٧] . ولما مات جوهر الصقلى وجد عنده من جملة ما وجد ألف قصبة من القصب الزمرد[٨] .

---

(١) الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢٢ .

– سليمان التاجر : رحلته – عن كتاب جامع التواريخ ، نشر سوفاجيه ، باريس ، ١٨١١ ، ص ١٤٧

– يقول سليمان (يحمل إلى الهند الزمرد الذى يرد من مصر مركباً فى الخواتيم مصوناً فى الحقاق) .

(٢) أسعد بن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٨١ .

– القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ، ص ٢٨٧ .

– (ذكر ابن مماتى معدن الزمرد بقوله : « ليس فى الدنيا معدن زمرد إلا فى مصر) .

(٣) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، طبعة جول كربونل بالجزائر ١٣٤٦ هـ ، ص ٥٥–٥٧ .

(٤) ابن حماد : نفس المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(٥) ذكر المقريزى أن هذا الصندوق بيع لأحد القواد بثمن بخس وهو خمسمائة دينار (الخطط ، طبعة بولاق جـ ١ ، ص ٤٢) .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٢ .

– ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٨١ .

– السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، طبعة مصر ١٣٢١ هـ ، جـ ٢ ، ص ٢٨ :

(٧) المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، جـ ١ ، ص ٤١٤ .

– أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، طبعة القاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٩٣ .

– زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٤٧ .

(٨) كذلك وجد عنده سبعمائة خاتم بفصوص من الزمرد والياقوت والماس (ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، طبعة بولاق ، ١٣٢١ هـ ، جـ ١ ، ص ٥١) .

واستمر بنو الكنز فى استغلال معدن الزمرد واحتكار تصديره إلى أن بدأ فى النضوب فى أواخر العهد الفاطمى . وأخيراً انعدم وجوده تماماً فى عهد ولاية السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩ – ٧٤١ هـ) [١] .

وبجانب ما تحقق لبنى الكنز ، أثناء إمارتهم الأولى ، من ثراء بسبب اشتغالهم فى استخراج الذهب والزمرد من مناجم العلاقى ، فإن إشرافهم على الحركة التجارية بثغر عيذاب وعلى نقل متاجر الشرق من عيذاب عبر الصحراء الشرقية إلى قوص وأسوان كان مصدراً هاماً آخر من مصادر ثرائهم [٢]. هذا ومن المعروف أن عيذاب أصبحت المركز الرئيسى لهذه التجارة فى أوائل القرن الرابع الهجرى [٣] .

وفضلاً عن ذلك فإن تحول طريق الحج إلى قوص – عيذاب – جدة ، منذ أيام الشدة المستنصرية ، أضاف إليهم مورداً آخراً من موارد الكسب ، يتمثل فيما كانوا يحصلون عليه من الحجاج نظير نقلهم عبر الصحراء [٤] . ومن المحتمل أن بنى الكنز ، فى عهد إمارتهم الأولى ، كانوا يقومون بجباية هذه المكوس والرسوم من الحجاج والتجار لحسابهم الخاص [٥] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٢٨٢ .

(يقول القلقشندى : يوجد معدن الزمرد الذى لا نظير له فى سائر الأرض فى مغارة فى جبل على ثمانية أيام من مدينة قوص ، يوجد عروقاً خضرا فى تطابيق حجر أبيض ، وأفضله الذبابى ، وهو أقل من القليل ، بل لا يكاد يوجد ، ولم يزل هذا المعدن يستخرج منه الزمرد إلى أثناء الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » فأهمل أمره وترك) .

(٢) ناصرى خسرو : سفرنامه ، ص ٧٢ .

(يحكى لنا ناصرى خسرو مشاهداته أثناء مروره بعيذاب فيذكر أن البضائع الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن بطريق البحر إلى عيذاب كانت تنقل منها عبر الصحراء الشرقية إلى أسوان ومنها إلى السفن النيلية إلى الفسطاط)

(٣) دراج : عيذاب ، ص ٥٦ .

(٤) مصطفى مشرفه : نظم الحكم فى مصر فى عصر الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٢٠ .

— Newbold: The Crusaders in the Red Sea and the Sudan, S.N.R., XXVI, Part, II, 1945. P. 220.

(٥) لم يرد فى المصادر ما يشير إلى ذلك الأمر بصورة قاطعة ، ولكن دخول ثغر عيذاب داخل نطاق إقطاع إمارة ربيعة الأولى (بنى الكنز) يجعلنا نفترض هذا الاحتمال فى العهد الفاطمى – وفى العهد الأيوبى انتزع صلاح الدين اقطاع بنى الكنز منهم وبالتالى فرض سيطرة الدولة على الثغر مما يؤكد حرمان بنى الكنز من أية رسوم أو مكوس تجبى فى الثغر . وفى العهد المملوكى يشير كل من ابن الوردى وابن بطوطة إلى وجود عامل من البجه يشرف على الثغر ويشترك فى ذلك مع عامل الدولة . يقول ابن الوردى (خريدة العجائب ، ص ٦٦) «كان على عامل مصر (فى عيذاب) القيام بطلب الأرزاق وعلى عامل البجه حمايتها من الحبشة ». ويذكر ابن بطوطة (رحلته ، ص ٣٦) أن ثلث مدينة عيذاب للملك الناصر محمد وثلثاها لملك البجاه وهو يعرف بالحدربى .

٢ ـ ازدهار مدينة أسوان فى عهد إمارة بنى الكنز الأولى

انتعشت مدينة أسوان اقتصاديًّا وازدهرت ثقافيًّا حين اتخذها بنو الكنز قاعدة لإمارتهم الأولى .

وكان اختيار بنى الكنز لأسوان قاعدةً لإمارتهم اختياراً موفقاً لما كانت تتمتع به هذه المدينة من موقع جغرافى ممتاز يربط بين شمال وادى النيل وجنوبه ويتحكم فى طرق التجارة المؤدية إلى السودان ووسط أفريقية [١] . وقد عمل بنو الكنز منذ أن استقروا فى أسوان على النهوض بها واستغلال موارد ثروتها وتحصينها وحمايتها ضد أى غزو خارجى تتعرض له فشجعوا التجار القادمين إليها وأمنوا الطرق أمامهم ووفروا لهم وسائل الراحة داخل المدينة ، وقاموا بحماية طريق الحج إلى عيذاب الذى كانت تتحكم فيه أسوان [٢] . وأقاموا جيشًا قويًّا من رجالهم مستعدًّا بالسلاح لحماية الثغر من هجوم النوبة والسودان عليه [٣] . وقد حكى الرحالة الفارسى ناصرى خسرو عن تحصين أسوان وقوة هذا التحصين عند زيارته لها (فى الخامس من ربيع الأول سنة ٤٤٢هـ) أيام إمارة بنى الكنز ، وكان قد مكث بها واحداً وعشرين يوماً [٤] .

وساد أسوان الأمان والرخاء فى عهد إمارة بنى الكنز [٥] . حتى أننا لم نجد فى المصادر أى ذكر لحوادث خرق الأمن أو قطع الطريق ، بل كان صاحب المتجر يترك متجره

---

(١) أسوان من أقدم المدن المصرية ، ذكرها جوتييه فى قاموسه ، فقال إن اسمها المصرى هو Soun أو Sounou ومعناها السوق أو محل التجارة حيث كان تتبادل أنواع التجارة بين القطرين المصرى والسودانى واسمها القبطى Souan ومنه اسمها العربى أسوان (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى من ج ٤ ، ص ٢١٦) .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ج ١ ، ص ٧٤ .

— Mac Michael: The Anglo Egyptian Sudan, London, 1934, P. 28.

(٣) المقريزى الخطط ، نشر فييت ، الجزء الثالث ، القسم الثانى ، ص ٢٨٥ .

(٤) قال ناصرى خسرو (سفرنامه ، ص ٧١) : « كانت أسوان حصينة جدًّا بحيث لا يستطيع أحد أن يقصدها من النوبة وبها جيش دائم للمحافظة عليها » .

(٥) يذكر المقدسى أسوان بقوله عنها : « أسوان قصبة الصعيد على النيل عامرة كبيرة بها منارة طويلة ولها نخيل وكروم وخيرات وتجارات وهى من الأمهات » .

ويذهب للصلاة أو قضاء حاجته دون أن يجرؤ أحد على التعدى على متجره . كذلك كان الإنسان يسير فى شوارع أسوان وطرقها ليلاً ومعه ما شاء فلا يجد من يعترضه [١] .

ومن مظاهر الرخاء الذى ساد أسوان فى عهد إمارة بنى الكنز الأولى أن غلة الفدان بأسوان بلغت ثلاثين إردبًّا من القمح وأربعين إردبًّا من الشعير وأربعة وعشرين إردبًّا من الذرة [٢] . وكانت نخيل أسوان تنتج سنويًّا ثلاثين ألف إردب من البلح [٣] . وقال إن نخلة واحدة حصّل منها اثنى عشر إردبًّا من التمر [٤] .

أما عن الكروم فكان من كثرتها وجودة إنتاجها بأسوان أن الأدفوى يتحدث عنها قائلا : « رأيت قطف عنب جاءت زنته ثمانية أرطال بالليثى ، ووزنت حبة عنب جاءت زنتها عشر دراهم » [٥] .

وقد أشاد كل من الإدريسى والأدفوى بازدياد خيرات أسوان أيام إمارة بنى الكنز فذكر الإدريسى أن أسوان كانت عامرة كثيرة الحنطة وسائر أنواع الحبوب والفواكه وسائر البقول وأن بها اللحوم الكثيرة البالغة فى الطيب والسمن . كما أشارت إلى أن أسعار أسوان مع الأيام رخيصة [٦] . وذكر الأدفوى أن فاكهة أسوان كثيرة شديدة الحلاوة حسنة المنظر وأن لحوم مرعاها طيبة وأن غلالها كثيرة [٧] .

---

(١) الأدفوى : الطالع السعيد ، ص ٢٧ .

(٢) الأدفوى : نفس المصدر ، ص ٢٨ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ١٩٢ .

— Quatremére: Mémoires sur L'Egypte, T. II, P. 6.

(٤) ابن عبد السلام : الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٩ جغرافية ، ص ٤٢ .

(٥) الطالع السعيد ، ص ٢٧ .

(٦) الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢١ – (يذكر الإدريسى رخاء أسوان بقوله : أسوان مدينة عامرة كثيرة الحنطة وسائر أنواع الحبوب والفواكه والدلاع وسائر البقول وبها اللحوم الكثيرة من البقر والحملان والماعز والخرفان وغيرها من صنوف اللحوم العجيبة البالغة فى الطيب والسمن وأسعارها مع الأيام رخيصة) .

(٧) الأدفوى : الطالع السعيد ، ص ٢٦ ، ٢٧ – (يقول الادفوى: «الطالع السعيد»ص ٢٦، ٢٧، ٢٨ » – وأسوان أكثر نخيلاً من جميع الإقليم . وفاكهة هذا الإقليم شديدة الحلاوة حسنة المنظر ، وذكر ابن زولاق أنه ليس نوع من أنواع التمر بالعراق إلا فى أسوان . ومن محاسن هذا الإقليم الطيب لحم الحيوان ولذته وحسن غلاله وكثرتها) .

وشهدت أسوان نهضة ثقافية كبيرة فى عهد إمارة بنى الكنز الأولى ، وذلك لاهتمام بنى الكنز بالثقافة والتعليم وبسبب الثراء الذى كانوا ينعمون به . فقد جعل بنو الكنز من أسوان قبلة للعلماء والشعراء وتشبهوا بالخلفاء فى تشجيعهم لهم وأجزلوا لهم العطاء[١] وأصبح الغالب على إقليم أسوان فى عهد بنى الكنز العلم والفهم والدين والرئاسة وحب العمارة وجمع المال والسماح والبهاء والزينة [٢] . ولهذا خرج من أسوان خلائق كثيرة من أهل العلم والرواية والأدب[٣] . وعلى سبيل المثال ، يذكر لنا الأدفوى أن قاضى قوص حضر مرة إلى أسوان فخرج للقائه أربعمائة راكب بغلة — وكان لا يركب البغال إلا العلماء والقضاة — ، كما أضاف بأنه كان بها ثمانون رسولا من رسل الشرع [٤] . وكان قضاتها من بنى المفضل ، وهم أهل علم وكرم ورئاسة وحشم[٥] .

ونسب إلى أسوان فى عهد إمارة بنى الكنز عدد كبير من العلماء منهم :

١ — القاضى الفاضل أحمد بن على بن الزبير الغسانى الأسوانى الملقب بالرشيد والمتوفى سنة ٥٦٣ هـ[٦] .

٢ — الأديب الكاتب إبراهيم بن محمد الأسوانى الملقب فخر الدولة (ت ٥٨١هـ) ، وهو ابن أخت الرشيد وأول من كتب الإنشاء للسلطان صلاح الدين ، كما كتب لأخيه العادل[٧] .

٣ — العالم أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن أبى حاتم الأسوانى[٨] .

٤ — العالم الطبيب الماهر هبة الله بن صدقه الأسوانى المتوفى سنة ٦٤٢هـ[٩] .

---

(١) الأدفوى : الطالع ، ص ١٣ .

(٢) الأدفوى : نفس المصدر ، ص ٢٩ .

(٣) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، طبعة بولاق ١٣١٠ هـ ، جـ ١ ، ص ٣٤ .

(٤) الأدفوى : الطالع ، ص ٢٩ .

(٥) الأدفوى : نفس المصدر ، ص ٣٢ .

(٦) ذكره العماد الأصفهانى بقوله إنه كان ذا علم غزير وفضل كبير ، شاعر وعالم بالهندسة والمنطق وعلوم الأوائل ، ويقول عنه الأدفوى إنه كان من محاسن الزمان (الطالع ، ص ٩٨ ، ١٠٢) .

(٧) الأدفوى : نفس المصدر ، ص ٦٤ .

(٨) ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ١٩٢ (توفى فى أواخر القرن السادس الهجرى) .

(٩) كان يعرف بابن الزبير وكان قيماً فى فن الطب وفى صناعة اليد ، وكان رئيساً على أطباء مصر وطبيب الخليفة العاضد الخاص (الأدفوى : الطالع ، ص ٦٩١) .

وتمخض فيما بعد عن هذه النهضة الثقافية التى شهدتها أسوان فى عهد إمارة بنى الكنز تأسيس ثلاثة مدارس كبرى بها ، درّس وأعاد بها عدد كبير من العلماء ، والمعيدين [1] . وهذه المدارس هى : المدرسة النجمية ، والمدرسة السيفية . والمدرسة البانياسية [2] .

ولا يفوتنا فى هذا المجال ، ونحن بصدد ذكر علماء أسوان فى عهد إمارة بنى الكنز أن نذكر المؤرخ الجغرافى عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى صاحب كتاب « أخبار النوبة والمقرة وعلوه والبجة والنيل » ، الذى أمدنا بأهم المعلومات عن تاريخ بلاد النوبة ، وكان ابن سليم قد أوفده القائد جوهر الصقلى فى سفارة إلى جورج الثانى ملك النوبة ، فكتب لنا كتابه هذا من واقع المشاهدة العينية ومما سمعه من النوبيين [3] .

• • •

---

(١) نظام الإعادة بالمدارس الإسلامية فى القرون الوسطى هو بعينه النظام المعروف فى الجامعات الحديثه ، فالمعيد أقل درجة من الأستاذ أو من الشيخ وعليه أن يعيد للطلبة ما سبق أن قرره الفقيه وأن يستمع إلى أسئلتهم ويجيبهم عنها (حاشية رقم ٢) ، ص ٩٣ ، الطالع السعيد للأدفوى) .

(٢) الأدفوى : الطالع السعيد ، ص ٢١٠ ، ٤٥٥ ، ٦٥٩ .

– درس بالمدرسة النجمية : القاضى إسماعيل بن محمد بن حسان بن خزرج المتوفى سنة ٥٩٩ هـ . ودرّس بالمدرسة السيفية الشيخ شعيب بن يوسف الإسنائى المتوفى فى القرن السادس الهجرى (انظر الطالع ،ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٤٥٥ ، ٧٢٨) .

(٣) المقريزى : نماذج من مخطوطة المقفى ، ص ٢٠ .

٣ ـ دور بنى الكنز فى نشر الإسلام بين قبائل البجة الوثنية وقبائل النوبة المسيحية

قام بنو الكنز بدور هام فى نشر الإسلام بين قبائل البجه الوثنية وقبائل النوبة المسيحية ، وكان لهم الفضل الأكبر فى تحول هذه القبائل عن دياناتها وإقبالها على هذا الدين الحنيف .

أما عن البجة فلقد أدى استقرار القبائل العربية التى تدين بالإسلام . ومنها قبيلة ربيعة ، بين قبائلها إلى تسرب الإسلام إليها[١] . وشاهد ذلك تلك المساجد التى بنيت فى بلادهم والتى نصت المعاهدة المعقودة سنة ٢١٦ هـ بين ابن الجهم وكنون بن عبد العزيز رئيس البجة على حمايتها ورعايتها[٢] . كما أن هجرة ربيعة الكبرى إلى بلادهم سنة ٢٣٨ هـ ، وما ترتب على ذلك من اندماج بنى ربيعة بين البجة ومصاهرتهم لهم أدت إلى أن أسلم على أيديهم الفرع المعروف بينهم باسم الحدارب . ونتيجة لهذه المصاهرة بين بنى ربيعة والحدارب ، فضلا عن وحدة العقيدة ، سيطر الحدارب على الفرع الآخر الذى لم يسلم والمسمى بالزنافج[٣] .

ويبدو أن الوضع الممتاز الذى وصل إليه الحدارب دون بقية البجة ، بسبب إسلامهم ، أدى ببقية القبائل الأخرى إلى أن تسارع إلى اعتناق الإسلام حتى تصبح لها نفس امتيازات الحدارب ، وأدى كل ذلك إلى انتشار الإسلام بين قبائل البجة . فنجد القبائل البجاوية تتحول جميعها بمرور الوقت إلى الإسلام ، وخاصة حين استقر بينهم بنو كاهل أصهار ربيعة الذين ورثوا عنهم حكم قبائل البجة فى الصحراء الشرقية[٤] .

---

(١) يشير المقريزى إلى أن جماعات من عرب هوازن المسلمين نزحوا إلى أرض البجة فى أعقاب فتح مصر وتسنى لهم نشر الإسلام على نطاق ضيق بين قبائل البجة (الخطط ، طبعة فييت ، القسم الثانى ، جـ ٣ ، ص ٢١٢) .

(٢) عن نص المعاهدة ، انظر خطط المقريزى ، طبعة بولاق ، جـ ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٣) المقريزى : الخطط نشر فييت ، القسم الثانى ، جـ ٣ ، ص ٢١٢ .

(٤) تحدث ابن بطوطة عن بنى كاهل واستقرارهم فى ثغر عيذاب واختلاطهم بالبجة ، أثناء رحلته الأولى إليها سنة ٧٢٦ هـ . ومن بقايا قبائل البجة الموجودة الآن بالصحراء الشرقية والتى تنتسب إلى بنى كاهل : البشاريون وأصهارهم العبابدة ، وجميعهم مسلمون ، انظر رحلة ابن بطوطة ؛ جـ ١ ، ص ٣٥ — ٣٧ .

أما عن منطقة مريس فى بلاد النوبة فإن الإسلام بدأ ينتشر بين أهلها منذ أن أخذ العرب يرحلون إليها فى أعقاب فتح مصر . والدليل على دخول الإسلام بلاد النوبة فى هذه الفترة المبكرة أن عقد عبد الله بن سعد بن أبى السرح مع النوبة سنة ٣١ هـ نص على رعاية المسجد الذى كان العرب قد بنوه هناك والمحافظة عليه (١) .

غير أن المصادر تصمت عن الإشارة عن مدى تحول النوبيين إلى الإسلام حتى أواخر حكم الإخشيديين لمصر . وفى العصر الفاطمى يذكر لنا ابن سليم الأسوانى أن كثيراً من النوبيين اعتنقوا الإسلام على الرغم من جهلهم باللغة العربية (٢) . وليس هناك من سبيل إلى تحقيق ذلك إلا أن يكون عرب ربيعة تعلموا لهجة النوبيين واستطاعوا بذلك إقناعهم بالدخول فى الإسلام ونشر ثقافتهم الإسلامية فى منطقة المريس . وعلى هذا النحو يكون غالبية أهل مريس قد تحولت إلى الإسلام على يد بنى الكنز مع بداية قيام الدولة الفاطمية فى مصر (٣) .

وكان لبنى الكنز الفضل فى انهيار المسيحية فى مملكة مقرّه ونهاية دولتها حين استطاعوا الوصول سنة ٧٢٣ هـ إلى عرش دنقله (٤) . وليس ثمة شك أن تولى ملك مسلم عرش دنقلة أدى إلى الإسراع بتحول بقية أهالى النوبة المسيحية إلى الإسلام ، كما أدى ذلك أيضًا إلى ازدياد انتشار الإسلام فى ربوع السودان (٥) .

ويكفى لإبراز هذا التحول لغالبية النوبيين من المسيحية إلى الإسلام أن كنز الدولة نصر بن شجاع الدين قام ، فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، بإنشاء المسجد الجامع

---

(١) المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، جـ ١ ، ص ١٩٩ .

(٢) يقول ابن سليم : « وفيها (مريس) جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم بالعربية (المقريزى : الخطط ، بولاق ، جـ ١ ، ص ١٩٠) .

(٣) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص ١٣٤ .

(٤) — Trimingham, J., Spencer: Islam in the Sudan, London 1949, P. 68.

(٥) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٢٩ .

— Arkell: History of the Sudan, P. 198.

— Budge: The Egyptian Sudan, Vol. I, P. 107.

فى دنقلة على أنقاض كنيسة دنقلة الشهيرة[١] .

ويمكن القول أنه ما كاد القرن الثامن الهجرى ينتصف حتى كانت الغالبية الغالبة من النوبيين قد اعتنقت الإسلام[٢] .

---

(١) — Budge, E.A. Wallis: The Egyptian Sudan, Vol. II, P. 130.

(يقول بلج : الراجح أن كنز الدولة حول الطابق الثانى لكنيسة دنقله إلى جامع وظل الطابق الأرضى يمثل دار ضيافة بدليل قول المقريزى : إنه كان يأوى إليه الغرباء ، ولم يذكر تاريخ إنشاء هذا الجامع غير أنه يقال إنه أنشئ حوالى سنة ١٣١٨ م فى حكم كنز الدولة نصر الأول للنوبة) .

— المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٢) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص ١٧٤ ، ١٨٢ .

٤ ــ ما ذكره الكتاب والشعراء فى مآثر بنى الكنز

نعم بنو الكنز بالإستقرار أيام إمارتهم الأولى فى ظل الخلافة الفاطمية . وكسبوا السمعة الطيبة فى العالم الإسلامى ، كما جمعوا الثروة الطائلة وعاشوا عيشة الترف والبذخ. وهذا شجع الشعراء والكتاب على أن يفدوا إلى بلادهم من الأماكن البعيدة ويشيدوا بذكرهم ويكثروا من مديحهم ، وذلك بعد أن عرفوا ما يتمتع به هؤلاء الأمراء من كرم زائد وحب للعلم والعلماء .

يقول الشاعر عمارة اليمنى فى رسالة ، وجدت فى مخطوطة مجهولة[١] . أرسلها إلى الشيخ كمال الدين بن شكر قاضى أسوان فى عهد خلافة الخليفة العاضد الفاطمى ويتحدث فيها عن مآثر بنى الكنز : « إلى الكنز تنتهى رئاسة أسوان وأعلامها وسياسة أقلامها وبهم تحلت بسيفها وضيفها ورحلتا شتائها وصيفها . وخذ إليك واحسب على يديك كم هناك من راسخ أسباب وشامخ أحساب وصحة أديم ومجد قديم وفخر عميم وكرم صميم . أوليس أسوان بهم مأوى الطريد ومقر الشريد وأمان الخائف والذمة من الدهر الحائف . ثم هى سداد الثغر إذ انفتح وسداد الأمر إذا فدح وعنوان الصدق لمن مدح . العادلون إلا على الوفر والفاصلون بين الإسلام الكفر »[٢] .

ويشيد الأدفوى ببنى الكنز فيذكر أنهم أمراء أصائل ، أهل فتوة ومكارم، ممدوحون مقصودون من البلاد الشاسعة والأماكن المتباعدة[٣] . ويضيف عنهم قوله ، أنه لما هزمهم صلاح الدين فى معركة طود ونزحوا من أسوان إلى بلاد النوبة دخل جند صلاح الدين بيوتهم فوجدوا بها قصائداً فى مدحهم ، منها قصيدة وضعها الشاعر أبو محمد الحسن ابن الزبير أجازه عليها الأمير كنز الدولة بن المتوج بألف دينار كما أوقف عليه ساقية

---

(١) هذه الرسالة وردت خطأ فى نهاية مخطوطة : «مقامات الوهرانى ورسائله ومقاماته ورقاعه وتمريفاته . » وهى مخطوطة بمكتبة أيا صوفيا بأستانبول تحت رقم ٤٢٩٩ ، وصورت نسخة منها بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، مخطوطة رقم ٧٩٦ .

(٢) الوهرانى : مقاماته ، مخطوطة ، ص ١٩٤ .

(٣) الطالع السعيد ، ص ٣١ .

تساوى ألف دينار [١] . وأوقف عليه أيضًا ما تحت الساقية من قصب وبهائم وغير ذلك [٢] .

وتحدث الأدفوى عن أميريْن من بنى الكنز كانا معاصرين له وهما : الأمير فخر الدين مالك ، وابن أخيه الأمير نجم الدين عمر ، وذكر أنهما كانا مشهوريْن بالمكارم والإحسان وأضاف بأن لنجم الدين ولأولاده بأسوان آثاراً جميلة وأوقافًا على وجوه البر جزيلة [٣] . ويدلل على كرم الأمير نجم الدين بما قام به من مجهودات وقدمه من مساعدات لأهالى أسوان حين تعرضت للغلاء سنة ٧٩٤هـ فيقول : إنه « أعطى الغلال حتّى نفدت ثم الثمار حتّى فرغت ثم ذبح النعم حتّى خرج الغلاء » [٤] .

ويشيد السخاوى ببنى الكنز فى حديثه عنهم ، فيذكر أنهم كانوا رؤساء أسوان وكان كل رئيس منهم ممن يضيف ويهب ويجبر [٥] .

هذا وقد مدح شجاعة وكرم بنى الكنز كثير من الشعراء ، ونظموا فى مدحهم القصائد الطوال . وكان من أهم من مدحهم وذكر مناقبهم وجمع أسماء من مدحهم من أهل أسوان ومن رد عليهم وكتب عليهم سيرة الشاعر أبو الحسن على بن عرام [٦] . ومما يؤسف له أن ديوان ابن عرام فقد ولم يعثر عليه حتّى الآن. وكل ما نعلمه عن هذا

---

(١) من أبيات هذه القصيدة ، قوله فى مدح بنى الكنز :

وينجد أن خانه الدهر أو سطـــا   أناس إذا ما أنجد الذل أتهموا

أجاروا فما تحت الكواكب خائفـــا   وجادوا فما فوق البسيطة معـــدم

(الأدفوى : الطالع ، ص ٣١) .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٩٣ .

(٣) الطالع السعيد : ص ٣١ (توفى الأدفوى سنة ٧٤٨ هـ) .

(٤) الطالع السعيد : نفس الصفحة السابقة .

(٥) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٩٣ .

(٦) يقول الأدفوى عن ابن عرام (الطالع ،ص ٣٧١) : « ذكره العماد فى الخريدة ، بقوله عنه إنه شيخ من أهل الأدب بأسوان سألت بمصر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة فقيل إنه حى بأسوان وطلبت شعره فأحضر إلى بعض أصدقائه من أهلها ديوانه فوجدته حاكياً فى سماء السحر كيوانه فجمعت شارد حسنه وغبطت عليه أسوانه» .

– هذا ولم يذكر الأدفوى تاريخ وفاة ابن عرام ، لكن السيوطى ذكر أنه توفى فى حدود سنة ٥٨٠ هـ ووافقه على هذا التاريخ كل من الزركلى وكحالة ، انظر السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، طبعة بولاق ١٣٢٧ هـ ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ – الزركلى : الأعلام ، طبعة مصر ١٩٢٧ ، جـ ٥ ، ص ١٤ – عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، طبعة دمشق ١٩٥٩ ، جـ ٧ ، ص ٢٠ .

الديوان أنه كان سنة ٥٧٣ هـ فى حوزة قاضى أسوان ، وأن صاحب الخريدة «عماد الدين الأصفهانى» اطلع عليه ونقل منه بعض أشعار ابن عرام وخاصة فى مدح بنى الكنز[١] .

وعلى رأس الشعراء الذين مدحوا بنى الكنز الشاعر المهذب أبو محمد الحسن بن الزبير (ت ٥٦١هـ) الذى يعتبر من أعظم شعراء مصر فى عهده[٢] . كما أمدنا ابن عرام فى ديوانه بعدد من الشعراء ممن مدحوا بنى الكنز ، ومن هؤلاء :

١ – الشاعر أبو إسحق بن شعيب الأسوانى :
(عاش فى أوائل القرن السادس الهجرى)[٣] .

٢ – الشاعر أحمد بن محمد الروزبى أبو جعفر الأسوانى :
(عاش فى المائة السادسة)[٤] .

٣ – الشاعر على بن محمد بن النضر الأسوانى :
(المتوفى فى منتصف القرن السادس الهجرى)[٥] .

٤ – الشاعر أحمد بن محمد الأسوانى البولاقى :
(وهو معاصر للأمير كنز الدولة بن المتوج المتوفى سنة ٥٧٠هـ)[٦] .

٥ – الشاعر عبد الله أحمد بن سلامة الأسوانى :
(وهو معاصر أيضاً للأمير كنز الدولة بن المتوج)[٧]

٦ – الشاعر محمد بن على بن الغمر الأسنائى :
(توفى سنة ٥٧٤ هـ)[٨]

---

(١) عن شعر ابن عرام، انظر : خريدة القصر للأصفهانى ، الجزء الخاص عن شعراء مصر ، تحقيق أحمد أمين وشوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥٠ ، جـ ٢ ، ص ١٦٥ – ١٨٢ .

(٢) الأصفهانى : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ – ٢٠٢ .
– ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ١٤٥ .

(٣) الأدفوى : الطالع ، ص ٧٣٦ .

(٤) نفس المصدر : ص ١٢٨ .

(٥) نفس المصدر : ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٤ .

(٦) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٢ .

(٧) الأدفوى : الطالع ، ص ٢٧٧ (نقل إلينا بعض أبيات من قصيدة له فى مدح كنز الدولة بن المتوج)

(٨) الأدفوى : الطالع ، ص ٥٥٧ ، ٥٥٨ .

٧ ــ الشاعر محمد بن رائق أبو عبد الله الأسوانى :
(المتوفى فى أواخر المائة السادسة)[١]

٨ ــ الشاعر سهل الأسوانى[٢] .

٩ ــ الشاعر عبد الله محمد بن رزيق الأسوانى[٣] .

• •

---

(١) الأدفوى : الطالع ، ص ٥٦٠ ، ٥٢١ .

(٢) الأدفوى : الطالع ، ص ٢٥٧ (أورد بعض أبيات من قصيدة له فى مدح بنى الكنز . ولم يذكر سنة وفاته) .

(٣) لم يذكر الأدفوى سنة وفاته ، انظر الطالع ، ص ٢٨٠ .

٥ - قائمة بأسماء أمراء بنى الكنز التى وردت فى المصادر

أشير فى هذا الفصل إلى ما سبق أن أشرت إليه من قبل فى مقدمة هذا البحث من أننى حاولت جهدى أن أضع قائمة بأسماء أمراء بنى الكنز ، وأحدد سنوات حكم كل منهم مقرونة بأهم أعمال كل منهم على حدة . غير أن المصادر التى فى متناول يدى لم تساعدنى على تحقيق هذا الأمر ، وذلك لغلبة لقب كنز الدولة على كل أمير منهم واكتفاء معظم المؤرخين بذكر اللقب دون الاسم .

هذا فضلاً عن أن تاريخ بنى الكنز لم يجتذب إلى دراسته - حتى الآن - القدر الكافى من اهتمام المؤرخين . لهذا جاءت هذه القائمة ناقصة ، وآمل أن يتم من يبحث بعدى فى تاريخ بنى الكنز هذه القائمة،إذا ما حالفه الحظ يوماً ما فى التوصل إلى مصادر جديدة توضح الثغرات الغامضة فى حياة بنى الكنز وفى تاريخ إمارتهم .

١ - كنز الدولة أبو المكارم هبة الله

هو أبو المكارم هبة الله بن أبى يزيد بن إسحق ، ويعرف بالأهوج المطاع . ويرجع نسبه إلى ربيعة الفرس وهو المؤسس الحقيقى لإمارة بنى الكنز[1] . تولى رئاسة الإمارة بعد وفاة أبيه أبى يزيد بن إسحق، وهوالذى ظفر بأبى ركوة الخارج على الخليفة الحاكم بأمر الله وحصل بسبب ذلك منه على لقب كنز الدولة[2] . هذا ولم تذكر المصادر سنة وفاته أو مدة توليه رئاسة الإمارة .

٢ - كنز الدولة محمد

اكتفت المصادر بذكر اسمه محمد مقروناً بلقب كنز الدولة ، وذكرت عنه أنه استقل استقلالاً تاماً عن الدولة الفاطمية لمدة ثلاث سنوات فيما بين سنتى ٤٦٦و٤٦٩ هـ .

(١) راجع شجرة نسبه بالملحق رقم (١) ، مابين ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٢) المقريزى : البيان والأعراب ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

واقترن إعلان استقلاله بالاضطرابات التى عمت مصر فى أعقاب الشدة العظمى التى وقعت فى عهد الخليفة المستنصربا الله واستمرت سبع سنوات من سنة ٤٥٧ حتى ٤٦٤ هـ . وأضافت المصادر بأنه قتل سنة ٤٦٩ هـ بعد أن هزمه بدر الجمالى عند بلدة إسنا [١] ، وأن جثته صلبت على باب الجديد فيما بين القاهرة ومصر [٢] .

* * *

٣ – كنز الدولة سعد الدولة ساردكين القواسى

ورد اسمه دون أن يقرن بلقب كنز الدولة على اللوحة التذكارية لإنشاء مئذنة جامع إسنا سنة ٤٧٤ هـ [٣] . وذكر عنه بأنه عامل الفاطميين على صعيد مصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، وأنه توفى سنة ٤٩٤ هـ خلال إحدى المعارك ضد الصليبيين بالقرب من عسقلان حيث دفن هناك [٤] .

واتفق كل من ساويرس بن المقفع وأبو صالح الأرمنى على أنه ابن أحد إخوة الأمير كنز الدولة محمد الذى قتله بدر الجمالى سنة ٤٦٩ هـ وأنه تولى إمارة بنى الكنز وأصبح واليًا على أسوان بعد أن عفى عنه بدر الجمالى بسبب وساطة ملك النوبة سالمون [٥] .

٤ – كنز الدولة بن المتوّج

أجمعت المصادر على أنه هو الذى ثار ضد السلطان صلاح الدين بقصد إعادة الخلافة الفاطمية بعد أن ألغاها سنة ٥٦٧ هـ . وأجمعت معظم المصادر على أنه هُزم وقُتل

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٢٥ .

– النويرى : نهاية الأرب ، مخطوطة ، جـ ٢٦ ، ورقة ٧٠ .

– ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٦٤ .

— Quatermére: Mémories sur L'Egypte T. II, P. 87.

(٢) – ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، مخطوطة ، الجزء الثالث ، ورقة ٨٧ ب .

(٣) – انظر نص اللوحة فى الملحق رقم (٢) ، ص ١٤٦ .

(٤) – أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، طبعة القاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٥٢ .

— Wiet: Nouvelles Inscriptions Fatimides, Extrait du Bulletin De L'Institut. D'Egypte, T. XXIV Session 1941-1941, PP. 146-147 .

(٥) ساويرس بن المقفع : سير البيعة المقدسة ، مخطوطة ، جـ ٣ ، ورقة ٩٠ أ .

– أبو صالح الأرمنى ، تاريخه ، ص ١٢٤ .

عند بلدة طود فى السابع من صفر سنة ٥٧٠ هـ على يد قوات صلاح الدين التى أرسلها لقتاله بقيادة أخيه الملك العادل [١] .

وكان جواداً كريماً محبّاً للشعر والشعراء ، أجزل لهم العطاء فأكثروا من مديحه فى قصائدهم [٢] . وذكر ابن خلدون عنه أنه كان شيعة للعلوية بمصر وأن أيامه طالت واشتهر [٣] .

٥ — كنز الدولة نصر

هو كنز الدولة نصر بن شجاع الدين بن فخر الدين مالك ، وهو ابن أخت كرنبس ملك النوبة . أرسله كرنبس سنة ٧١٦ هـ إلى الأبواب السلطانية ليطالب بحقه الشرعى فى عرش دنقله [٤] . واستطاع كنز الدولة نصر أن يغتصب عرش دنقله سنة ٧١٧ هـ ، ويعتبر مؤسس الإمارة الثانية لبنى الكنز وأول ملوكهم فى دنقله [٥] .

واضطر السلطان الناصر إلى الاعتراف به ملكاً على النوبة على كُره منه بعد أن أرسل أكثر من حملة لتنحيته عن العرش [٦] . وكان يتمتع فى إمارته بالاستقلال شبه التام ولا يربطه بالدولة الحاكمة فى مصر إلا رابطة الولاء الروحى [٧] .

---

(١) — ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٣٠ .
— ابن شداد : النوادر ، ص ٢٦٩ .
— ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ص ٢٨٨ .
— الأدفوى : الطالع ، ص ٣١ .

(٢) الادفوى : الطالع ، ص ٢٧٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ، ٢٨٨ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوطة جـ ٣٠ ، ورقة ٩٥ .

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، القسم الأول ، ص ١٦١ .

(٦) ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٩ .

(٧) ابن بطوطة : رحلته ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

٦ – كنز الدولة فخر الدين مالك

هو كنز الدولة فخر الدين مالك بن نصر بن شجاع الدين ، ولى إمارة بنى الكنز بعد وفاة أبيه فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، وكان معاصراً للأدفوى[1] الذى توفى سنة ٧٤٨ هـ . كان مشهوراً بالمكارم والإحسان والشجاعة ، مدحه الأدفوى كثيراً وأشاد بكرمه ومروءته[2] .

٧ – كنز الدولة نجم الدين عمر

هو ابن أخ الأمير فخر الدين مالك السابق الذكر ، ولى إمارة بنى الكنز فى إمارتهم الثانية فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى بعد عمه فخر الدين مالك ، تحدث الأدفوى كثيراً عن شجاعته وكرمه وقال إنه كان له ولأخيه ولأولاده بأسوان آثار جميلة وأوقاف على وجوه البر جزيلة[3] .

هذا وقد عثر الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب مدير إدارة التفاتيش والحفائر الإسلامية والقبطية بمصلحة الآثار على شاهد قبر غير مكتمل فى جبانة أسوان (فى الجزء الذى يطلق عليه الآن اسم جبانة العتاقى) عند مدخل أحد القباب يحمل اسم « عمر بن الكنز » ، ويبدو أنه شاهد قبر هذا الأمير[4] .

---

(١) ذكر الأدفوى أنه كان معاصراً له ، انظر الطالع ، ص ١٠٤ .

(٢) الأدفوى : الطالع ، ص ٣١ ، ٣٢ .

(٣) الأدفوى : الطالع ، ص ٣١ .

(٤) حفائر مصلحة الآثار بأسوان ، الموسم الأول ، ديسمبر ١٩٦٠ – إلى فبراير ١٩٦١ ، يوميات الحفائر للأستاذ عبد الرحمن عبد التواب .

٨ — كنز الدولة غلام الله مطر

يحدثنا المقريزى عنه بأنه وصل إلى السلطان المملوكى بالقاهرة فى المحرم سنة ٧٨١ﻫ يطلب مساعدة السلطان ضد أعدائه[١] . ويذكر أيضًا أن حاكم أسوان المدعو « قرط » قبض عليه بناء على أمر السلطان المنصور علاء الدين على وسجنه بالقلعة[٢] ، غير أنه يصمت بعد ذلك عن ذكر أى شىء عن هذا الأمير ، كما تصمت بقية المصادر عن ذكر أخباره .

٩ — كنز الدولة نصر الدين

أطلق عليه العينى اسم الملك ناصر صاحب بلاد النوبة[٣] . ويحدثنا عنه المقريزى بأنه لجأ إلى القاهرة سنة ٨٠٠ ﻫ مستنجداً بالسلطان المملوكى فرج بن برقوق ضد ابن عمه الثائر عليه ، ويضيف بأن السلطان ساعده فى الرجوع إلى عرشه إلا أنه لم يعطنا أية تفصيلات أخرى عن حياة هذا الأمير[٤] .

---

(١) — المقريزى : السلوك ، مخطوطة ، المجلد السابع ، ورقة ٥٢ ب .

— Budge: The Egyptian Sudan, Vol. II, P. 198.

— Quatremére: Mém. Sur L'Egypte, II, P. 198.

(٢) حكم المنصور علاء الدين على من سنة ٧٧٨ إلى سنة ٧٨٣ ﻫ . (زامباور معجم الأنساب ، ص ١٦٢) .

(٣) يقول العينى عند حديثه عن أحداث سنة ٨٠٠ ﻫ فى عصر السلطان برقوق : « فى يوم الثلاثاء ثانى المحرم حضر إلى القاهرة الملك ناصر صاحب بلاد النوبة هارباً من ابن عمه فأقبل عليه السلطان وخلع عليه » .
(عقد الجمان ، مخطوطة ، جـ ٧ ، ص ٢٧ ، ٢٨) .

(٤) — المقريزى : السلوك ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٤٦٤ تاريخ ، الجزء الثالث ، القسم الأول ، ورقة ٢ ا .

— Arkell: A History of the Sudan, P. 200.

— Budge: The Egyptian Sudan, II, P. 198.

١٠ – كنز الدولة نصر الله

هو ابن الأمير نصر الدين السابق الذكر ، ولّى إمارة بنى الكنز بعد أبيه فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى . وليست لدينا معلومات عن هذا الأمير سوى ماذكره ماكمايكل مستنداً على كتب النسبة من أن قبيلة النصرلاب الكنزية الكبرى تنسب إليه [1] .

(١) Mac Michael: A History of the Arabs in the Sudan, Voll. II, P. 99.

قبائل الكنوز الحالية وعاداتها وتقاليدها

فى القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر الميلادى ، اكتمل تكوين المجموعات النوبية المستعربة التى ينتسب إليها أبناء النوبة الآن ، وهم لا يختلفون فى صفاتهم الطبيعية وسلوكهم الاجتماعى عن النوبيين الحاليين وعن سكان الوجه القبلى فى مصر . وإننا لنجد بينهم فى كثير من الأحيان أشخاصاً يمتازون بالملامح الوسيمة [١] .

وبنو الكنز أو – الكنوز – وفقاً للتسمية الحديثة لهم ، أحد هذه المجموعات النوبية . ومن هذه المجموعات أيضاً : المحس، والسكوت ، والفديجة، والدناقله . وهذه المجموعات تسكن المنطقة ، ما بين أسوان شمالاً إلى الدبة جنوباً ، ويطلق على الشماليين منهم اسم البرابرة وعلى الجنوبيين اسم الدناقلة [٢] . وينتمى إلى البرابرة [٣] : الكنوز ويسكنون المنطقة ما بين أسوان وكرسكو ، والسكوت ويسكنون المنطقة التى تليهم جنوباً ، ثم المحس فى المنطقة الممتدة من وادى حلفا إلى دنقلة . أما الدناقلة فيتركزون حول مدينة دنقلة [٤] .

هذا وتضم السكوت والمحس مجموعة واحدة ، بينما تضم الكنوز والدناقلة ، مجموعة واحدة أيضاً . وتتفق قبائل كل مجموعة مع بعضها فى اللغة والطباع والعادات [٥] . وكل النوبة مسلمون يجرى فيهم الدم العربى ، غير أن العروبة تتمثل فى الكنوز والدناقلة أكثر مما تتمثل فى المحس والسكوت ، ولهذا يتمسك الكنوز بأصلهم العربى ويفخرون به .

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص ٣٠٤ .

(٢) — Mac Michael: History of the Arabs in the Sudan, Vol. I, P. 13.

(رحلت بعض هذه الجماعات عن ديارها بسبب إغراق مياه السد العالى لأراضيها)

(٣) يرجع بركهاردت تسمية البرابرة إلى سكناهم حول بلدة بربر (رحلات فى بلاد النوبة ، ترجمة فؤاد أندراوس ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٣) ، بينما يرى بيكيت أنه من الجائز أن يكون أصل الكلمة رومانى وهو Barbari وإن كان روزى يرى أن أصل الكلمة مشتق من كلمة Barbaro وهو اسم لبعض قبائل النوبة فى عهد الأسرة الخامسة عشرة فى التاريخ المصرى القديم – انظر :

— Beckett: Nubia and Berberine, P. 200.

— Encyclopaedia Britanica, London 1960, Vol. III, P. 93.

(٥) سنشرح سبب ذلك عند التكلم عن لغة الكنوز .

ويسكن الكنوز بالتحديد المنطقة الممتدة من أسوان إلى بلدة المضيق التى تقع شمال وادى السبوع بقليل بالقرب من كرسكو . وتقع بلادهم على النيل من الشلال الأول إلى كرسكو بالترتيب الآتى :

دابود	، دهميت	، الأمبركاب	، كلابشة	،
أبوهور	، مرواو	، ماريه	، جرف حسين	،
قرشه	، كشتمنه	، الدكه	، العلاقى	،
قورته	، المحرقه	، سيالة	، والمضيق[1]	،

ولقد أطلقت بعض العشائر الكترية أسماءها على المناطق التى استقرت فيها ، فأطلقت عشائر النصرلاب اسمها على وادى النصر لاب ، كما أطلقت عشائر أبى هور إسمها على وادى أبى هور[2] .

وينقسم الكنوز فيما بينهم إلى جماعات صغيرة كثيرة العدد ، نزح بعضها شمالا حتى أدفو واستقروا فى القرى المختلفة[3] .

هذا وقد أورد ماكمايكل قائمة بأسماء مجموعات قبائل الكنوز الحالية ، أخذها — كما يذكر — من أحد كتب النسبة الذى كتبه الشيخ الصادق عيسى أحد زعماء الكنوز فى أم درمان سنة ١٩١٤ . ونظراً لأن كتب النسبة التى يحتفظ بها رؤساء القبائل فى السودان تعتبر من أهم مصادر كتابة تاريخ القبائل العربية فى السودان ، فقد آثرت أن أنقل عن ماك مايكل هذه القائمة لأهميتها فى مجال بحثى خاصة[4] . فقبائل الكنوز — حسبما ورد فى هذه القائمة — ، تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين : المجموعة الأولى منها تضم قبيلتين كبيرتين هما :

---

(١) بركهاردت : رحلات فى بلاد النوبة ، ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .
(٢) بركهاردت : نفس المصدر ، ص ٢٣ .
(٣) عبد المنعم أبو بكر : بلاد النوبة ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٢ .
(٤) — Mac Michael: A History of the Arabs in the Sudan, Vol. II, PP. 99-100.

(١) قبيلة أولاد السيد ونس بن رحمة بن الحسن، الذى تتصل سلسلة نسبه بالفضل بن عبد الله ابن العباس ، وكان للأمير محمد ونس ستة أولاد ، ومات ودفن فى جبانة أسوان .
وأولاد الأمير محمد ونس هم كالآتى :

١ — إدريس الأكبر : وهو جد الملك طنبل حاكم جزيرة اركو الذى عرفت أسرته فيما بعد باسم ملوك دنقله .

٢ — حمد الله : وكان أتباعه قلة ، وكانت سكناهم عند كلابشة ويعرفون بالونساب والحمد لاب .

٣ — أرخى ... Arkhi : ويوجد أتباعه فى إقليم الجزيرة فى السودان ، وتسمى قبيلتهم باسم « الأرخياب » .

٤ — أدهم : وتوجد سلالته عند بلدة الخطّاره (بالقرب من أسوان) ، وجزيرة أسوان ، وتوجد غالبيتهم فى السودان . وهناك فرع آخر منهم يعرفون باسم « البللاب » و « المسّلماب »

٥ — عدلان : وتوجد سلالته عند أسوان وفى السودان ، وهى تشمل قبائل « العد لاناب » التى تسكن بين قبائل الشايقية .

٦ — خير الله : وسلالته هم « الخيرلاب » ويسكنون عند أسوان لكن غالبيتهم تسكن السودان .

(ب) قبيلة الأشراف الرؤساء ويسمون بأولاد تميم الدار الأنصارى، وهم :

١ — الأمير شرف الدين : دفن بالقاهرة عند باب النصر وخلف من بعده ولدين هما : قدناب وتسمى قبيلة باسم « القرناب » وهم يسكنون عند أبى هور وفى السودان . وابنه الثانى هو : « بجو » وتنتسب إليه قبيلته التى تسمى باسم « البجواب » وهم يسكنون عند أبى هور وفى السودان أيضا .

٢ — نصر الدين تميم الدار : وكان له ابن يسمى « نصر الله » وتنتسب إليه قبيلة « النصرلاب » التى تسكن مع قبائل الشايقية عند كاسنجار .

٣ – تمام نجم الدين بن تميم الدار : دفن بالقاهرة عند باب النصر وخلف بعده ثلاثة أولاد هم :

(ا) أمبارك نجم الدين : ويسمى أتباعه باسم «الامباركاب» ويسكنون صعيد مصر والسودان

(ب) عون الله بن نجم الدين : ويسمى أتباعه «بالعونلاب» ويعيشون فى صعيد مصر والسودان .

(حـ) أمير بن نجم الدين : ويسمى أتباعه بأولاد عمران ويعيشون فى صعيد مصر وفى منطقة كردفان بالسودان[1] .

المجموعة الثانية من قبائل الكنوز :

وهى تضم ٢٧ قبيلة ، وتشمل قبائل الكنوز التى تسكن صعيد مصر والسودان وهى كما يلى :

١ –	الونساب :	وهى	توجد	عند	أسوان ،	الخرطوم ،	أم درمان ،	الخرطوم بحرى
٢ –	الميدواب :	»	»	»	» ،	» ،	»	
٣ –	الهزيلات :	»	»	»	» ،	» ،	» ،	الكاوا
٤ –	العونلاب :	»	»	»	» ،	» ،	» ،	بترى والمسلمية
٥ –	الأمباركاب :	»	»	»	» ،	» ،	» ،	بربر والدامر
٦ –	أبوهور :	»	»	»	» ،	» ،	» ،	وبربر
٧ –	الجرايساب :	»	»	»	» ،	» ،	» ،	والكاملين
٨ –	دبود :	»	»	»	» ،	» ،	» ،	
٩ –	الخيرلاب :	»	»	»	» ،	» ،	» ،	وشندى
١٠ –	الأدهماب :	»	»	»	» ،	» ،	» ،	وفى بلاد الفونج
١١ –	الجديساب :	»	»	»	» ،	» ،	» ،	
١٢ –	النصرلاب :	»	»	»	» ،	» ،	» ،	

(١) وهم يعيشون مع قبائل «البديرية» فى كردفان بالقرب من الأبيض .
)Mac Michael: Op. Cit., II, P. 100.

١٣– البغدالاب : وهى توجد عند أسوان ، الخرطوم ، أم درمان ، الخرطوم بحرى

١٤– الريفية : » » » » ، » ، » ، والكاملين

١٥– المسلماب : » » » » ، » ، » ، وبربر

١٦– الحواطين : » » » » ، » ، » ، وبربر

١٧– الفلاحين : » » » » ، » ، » ، وشندى

١٨– الوزناب : » » » » ، » ، » ،

١٩– التوناب : » » » » ، » ، » ،

٢٠– البجواب : » » » » ، » ، » ،

٢١– الهوساب : » » » » ، » ، » ، وشندى

٢٢– الطيباب : » » » » ، » ، » ،

٢٣– الجزيّرة : » » » » ، » ، » ،

٢٤– الحجاب : » » » » ، » ، » ،

٢٥– الغربية : » » » » ، » ، » ، ودنقلة

٢٦– البلالاب : » » » » ، » ، » ،

٢٧– النكداب : » » » » ، » ، » ،

لغة الكنوز

يتكلم النوبيون جميعهم العربية ، بيد أنهم لهم بجانبها لغتهم الأصلية ، وهى لغة غير مكتوبة يسمونها : « الرطان » ويعرفها جميع النوبيين[١] . غير أن لهجاتها تختلف من إقليم لآخر ، فبينما تؤلف لهجات الكنوز والدناقلة مجموعة واحدة متشابهة ، تؤلف لهجات المحس والسكوت والفديجة مجموعة أخرى تختلف عن الأولى . ومن العجيب أن تتفق لهجة الكنوز سكان أقصى الشمال مع لهجة الدناقلة فى أقصى الجنوب على الرغم من بعد المسافة بينهما . وقد قيل فى تفسير ذلك أن الاتصال بين إقليم الكنوز والدناقلة كان كثيراً ومطرداً بحكم العلاقات التجارية بين الجنوب والشمال . وكان الدناقلة والكنوز يتولون نقل التجارة بحكم بعد أوطانهم عن الإقليم النهرى الكثير الجنادل الذى كان يتجنب التجار السير فيه وكان تسكن عنده بقية قبائل النوبة . أى أن التجارة بين مصر والسودان هى التى قاربت بين الدناقلة والكنوز ، وكانت إحدى هذه النتائج تشابه لهجاتهم[٢] . وتسمى لهجة الكنوز باسم « المتوكى » ومعناها : الشمالى[٣] .

(١) محمد محمود الصياد : النيل الخالد – العدد رقم ٥٣ من المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ٦٧ .
(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .
– صلاح الدين الشامى : دراسات فى النيل ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٦٦ .
(٣) عبد المنعم أبو بكر : بلاد النوبة ، ص ٣٥ .

الصفات العامة للكنوز

لايختلف كنوز اليوم فى أخلاقهم وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم عن أجدادهم ، ذلك أن النوبيين عموماً يقدسون كل ما هوموروث ، ويحتفظون بعادات وطباع أجدادهم ، ويحرصون على الخلق القويم [١] . ويعرف النوبيون عموما وخاصة الكنوز بالأمانة والصراحة والصدق والمزاج الهادئ والبساطة والتعاون مع بعضهم البعض وحدبهم على أقاربهم القابعين فى أرض الوطن [٢] . ويتصفون أيضاً بالجرأة وشدة التعلق بأرضهم [٣] . وهم يحبون النظافة والأمانة والمسالمة ، وهم متدينون يعتنون بمساجدهم عناية طيبة ويحافظون على أداء فرائض الدين . وهم عموما أهل صلاح ، كذلك الأمر بالنسبة لسائر النوبيين ، وقد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يكن له أخ فليتخذ أخاً من النوبة » [٤] .

ويسكن الكنوز بيوتاً يبنونها من اللبن ، وقليل منها يبنى بالحجر . وهى تتألف عادةً من بناءين متجاورين مستديرين من طابق واحد ، أحدهما للرجل والآخر للنساء وأقبية هذه المساكن تغطى بسيقان الذرة أو بسعف النخيل [٥] . وتعلق على جدران المنازل أطباق للزينة ، والأدوات التى تستخدم فى المنزل هى : القدو، وهى من الفخار الخشن ، وصحاف من الفخار ، وطاحونة يد ، ونول صغير [٦] .

وطعام الكنوز قوامه الخبز ، وهو من الذرة الرفيعة التى تخلط أحياناً بالكشرنجيج (ثمر اللبلاب) ، وفاكهتهم التمر والدوم والشمام والبطيخ [٧] .

---

(١) بركهاردت : رحلته ، ص ١٢٨ .
(٢) عبد المنعم أبو بكر : بلاد النوبة ، ص ٣٦ .
(٣) بركهاردت : رحلته ، ص ١٢٨ .
(٤) ابن الفقيه : البلدان ، ص ٧٦
– ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الرابع ، ص ٨٢٠ .
(٥) بركهاردت : رحلته ، ص ١٢٢ .
(٦) عبد المنعم أبو بكر : بلاد النوبة ، ص ٩٥ .
(٧) عبد المنعم أبو بكر : نفس المصدر السابق ، ص ٣٥ .

أما عن عاداتهم وتقاليدهم ، فتتمثل بوضوح فى مآتمهم ومراسم زواجهم . فنى حالة وفاة أى فرد منهم يقف جميع أهل البلدة مع أهل الميت باعتبارهم أسرة واحدة . ويتلقى الجميع العزاء من بعضهم البعض ، كما يقدمون المعونات المختلفة لأهل الميت ويتكفلون بالإنفاق على من يتركهم بعده[١] .

وعند الزواج يطلب الكنزى يد زوجته من والديها ، وهو يفضل الزواج المبكر ، كما يفضل الزواج من ابنة عمه . ولابد للشاب من أن يرى الفتاة التى يروم خطبتها فإذا أعجبته قام باسترضاء أمها قبل أن يخطبها من أبيها[٢] .

ويورد لنا «نعوم شقير» تفاصيل مشروع الزواج عند الكنوز . وفى هذه المناسبة تقام حفلات متعددة يحضرها أهل العروسين . ويتم الزواج فى منزل أهل الزوجة ، ويمكث الزوج شهراً أو أكثر حسب الاتفاق بينهما ، وبعد ذلك ينتقلان إلى منزل الزوجية . وتعيش الزوجة الكنزية مخلصة لزوجها حتى الممات ، وتعامله فى احترام شديد يصل إلى درجة التقديس حتى إنها تعيش طيلة عمرها معه دون أن تنطق اسمه مجردا[٣] .



طفل كنزى حديث

(١) — Mac Diarmid: Nuba Customs, S.N.R., 1927, Vol. X, P. 228.

(٢) بركهاردت : رحلته ، ص ٢٦ .

— Bruce, G. Trigger: History and Settlement in lower Nubia, Yale Univeristy 1965, P. 17.

(٣) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، جـ ١ ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

الملاحق

ملحق (٢)

نص كتابة بالخط الكوفى للوحة تذكارية من الرخام – لإنشاء جامع إسنا الذى بناه بدر الجمالى سنة ٤٦٩ هـ عقب انتصاره على كنز الدولة . وجدت على يمين محراب هذا الجامع العتيق [١] .

• • •

١ – بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله وباليوم الآخر
٢ – وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله .
٣ – فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .
٤ – صلوات الله وبركاته على مولانا وسيدنا الإمام
٥ – المستنصر بالله أمير المؤمنين وعلى آبائه الطاهرين
٦ – وأبنائه المكرمين . أمر بعمارة هذا الجامع المبارك
٧ – السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر
٨ – الإمام أبو النجم بدر المستنصرى أدام الله قدرته
٩ – وأعلى كلمته القاضى أبا الحسين على بن
١٠ – محمد بن جعفر بن أحمد بن محمد بن
١١ – النضر بعمارة هذا الجامع فأسس فى النصف
١٢ – من ذى الحجة سنة تسع وتسعين وأربعمائة
١٣ – وسقف فى النصف من شهر ربيع الأول سنة
١٤ – سبعين وأربعمائه وفقه الله لمرضاته وأعانه
١٥ – على طاعته كما أصرف اهتمامه إلى عمارته .

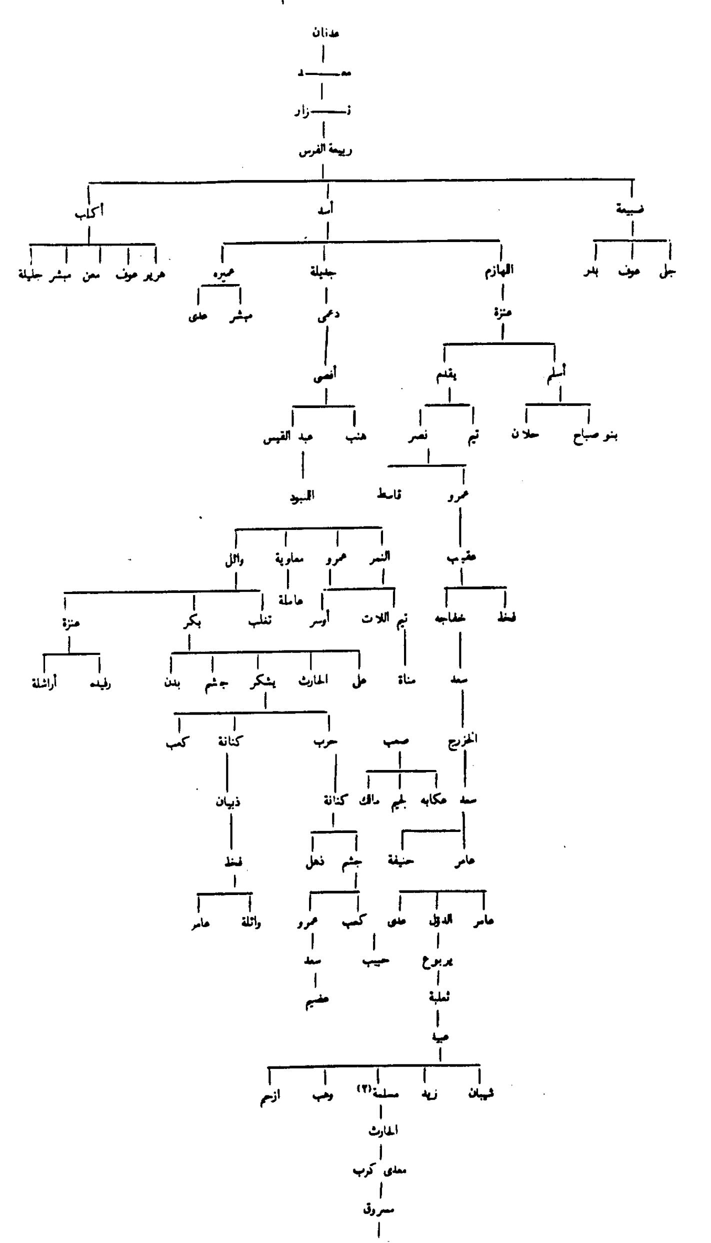
• • •

---

(١) Van Berchem: Corpus Inscriptionum Arabicarum, premiére partie, Egypte, Paris, 1903, PP. 699-700.

ملحق (١)

شجرة نسب كنز الدولة أبو المكارم هبة الله[١]





الملحق (٣)

صورة للنص المكتوب بالخط الكوفى الجميل للوّحة التذكارية لإنشاء مئذنة جامع النصر بإسنا وهى مثبته على يسار المحراب [1] .

• •

١ – بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله
٢ – من آمن بالله وباليوم الآخر وأقام الصلاة
٣ – وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله
٤ – فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين
٥ – هذا مما أمر بإنشاء هذه المئذنه
٦ – الأجل المنتخب فخر الملك سعد الدولة تاج
٧ – المعالى ذو العزين حسام أمير المؤمنين أبو منصور
٨ – ساردكين القواسى نصره الله وظفره ووفقه
٩ – وأحسن عونه فى شهورسنة أربع وسبعين وأربعمائة
١٠ – ابتغاء مرضاة الله تعالى وثوابه ورجاء الدار الآخرة و
١١ – الأمن من عقابه رحمه الله تعالى وحشره مع مواليه الطاهرين صلوات الله
١٢ – عليهم أجمعين ورحم من ترحم عليهم آمين يارب العالمين .

---

(١) Wiet, G., Nouvelles Inscriptions Fatimides), Extrait du Bulletin de L'Institut D'Egypt, T. XXIV, Session 1941-1942, P. 146).

ملحق (٤)

قائمة ملوك النوبة الشمالية « مقدّرة » عن :

(١) — Storia Della Nubia Cristane, Orientalia Christiana Analecta, P. 223.

(٢) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

• • •

رقم مسلسل	اسم الملك	سنوات حكمه		
١	سيلكو		٥٣٦	ميلادية
٢	أربانوم	من سنة	٥٥٩ — ٥٧٤	»
٣	قيلدروث	»	٦٥١ — ٦٥٢	»
٤	زكريا	»	٦٥٤ — ٦٥٥	»
٥	مرقوريوس	»	٦٩٧ — ٧١٠	»
٦	زكريا			
٧	سيمون			
٨	أبرام	»	٧٤٤ — ٧٦٨	»
٩	ماركو			
١٠	كرياكوس			
١١	ميكائيل		نهاية القرن الثامن الميلادى	
١٢	جيوفانى (يوحنا)			
١٣	زكريا إسرائيل بن يوحنا	سنة	٨٢٢	»
١٤	جورج بن زكريا	من سنة	٨٧٢ — ٨٩٢	»
١٥	زكريا بن جورج			

رقم مسلسل	اسم الملك		سنوات حكمه	ميلادية
١٦	كبرى بن سرور	سنة	٩٤٣	«
١٧	جورجيوس الثانى	من سنة	٩٧٩ – ١٠٠٢	«
١٨	روفائيل	من سنة	١٠٠٥–١٠٠٦	«
١٩	سالمون	سنة	١٠٨٠	«
٢٠	باسيليوس	«	١٠٨٩	«
٢١	جورج الثالث	من سنة	١١٣٠–١١٥٨	«
٢٢	داود (الأول)	«	١٢٧٢–١٢٧٣	
٢٣	داود (الثانى) بن داود (الأول)	«	١٢٧٤–١٢٧٧	«
٢٤	شكنده	«	١٢٧٥–١٢٧٦	«
٢٥	مسكديت			
٢٦	برك	«	١٢٧٩–١٢٩٠	«
٢٧	سيامون	سنة	١٢٨٦	«
٢٨	عودة سيامون للمرة الثانية	«	١٢٩٠	«
٢٩	عودة داود (الثانى)	«	١٢٩٠	«
٣٠	عودة سيامون للمرة الثالثة	من سنة	١٢٩٠–١٢٩٣	«
٣١	آنى			
٣٢	بوديما			
٣٣	آماى	«	١٣٠٤–١٣٠٥	«
٣٤	كرنبس	سنة	١٣١٢	«
٣٥	عبدالله بن سمبو (برشمبو)	«	١٣١٦	«
٣٦	كنز الدولة	«	١٣١٧	«
٣٧	أبرام (خال كنز الدولة)		حكم ثلاثة أيام فقط	
٣٨	عودة كرنبس	سنة	١٣٢٣	«
٣٩	عودة كنز الدولة ثانية	«	١٣٢٣	«

ونهاية دولة النوبة المسيحية على يد بنى الكنز

ملحق (٥)

شاهد قبر

شاهد قبر الأمير نجم الدين عمر بن الكنز

عثر على شاهد قبر خاص بالأمير نجم الدين عمر بن الكنز [١] في جبانة أسوان (الجزء الذى يطلق عليه اسم جبانة العنانى) عند مدخل أحد القباب التى ترجع إلى العصر المملوكى . وصورة هذا الشاهد موجودة ضمن مجموعة صور حفائر مصلحة الآثار بأسوان التى أشرف عليها الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب [٢] .

• • •

(١) راجع : الباب الرابع ، ص ١٣٣ ، ترجمة حياة الأمير نجم الدين عمر بن الكنز .

(٢) عبد الرحمن عبد التواب : يوميات حفائر مصلحة الآثار بأسوان ، الموسم الأول – ديسمبر ١٩٦٠ – فبراير ١٩٦١ .

ملحق (٦)

أماكن معادن التبر فى الصحراء الشرقية طريق أسوان [١]

ومن أراد المعادن معادن التبر خرج من أسوان إلى موضع يقال له الضيقة بين جبلين ، ثم البويب ، ثم البيضية ، ثم بيت أبى زياد ، ثم عذيفر ، ثم جبل الأحمر ، ثم جبل البياض ، ثم قبر أبى مسعود ، ثم عفار ، ثم وادى العلاقى . وكل هذه المواضع معادن التبر يقصدها أصحاب المطالب . وبها أسواق وتجارات . وشربهم من آبار تحفر فى وادى العلاقى . وأكثر من بالعلاقى قوم من ربيعة من بنى حنيفه من أهل اليمامة انتقلوا إليها بالعيالات والذرية . ووادى العلاقى وما حواليه معادن للتبر . وكل ما قرب منه يعتمل فيه الناس لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون فى الحفر ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر ، ثم يسبك ، ومن العلاّقى إلى موضع يقال له وادى الجبل مرحلة ، ثم إلى موضع يقال له عست ، ثم إلى موضع يقال له كعار يجتمع الناس به لطلب التبر وبه قوم من أهل اليمامة من ربيعة ، ومن العلاقى إلى معدن يقال له بطن واح مرحلة ، ومن العلاّقى إلى موضع يقال له أعماد مرحلتان ، وإلى معدن يقال له ماء الصخرة مرحلة ، و إلى معدن يقال له الأخشاب مرحلتان ، وإلى معدن يقال له ميزاب تنزله بلّى وجهينة أربع مراحل وإلى معدن يقال له عربة بطحا مرحلتان .

ومن العلاّقى إلى عيذاب أربع مراحل . وعيذاب ساحل البحر المالح يركب الناس منه إلى مكة والحجاز واليمن ويأتيه التجار فيحملون التبر والعاج وغير ذلك فى المراكب . ومن العلاّقى إلى بركان وهى آخر معادن التبر التى يصير إليها المسلمون ثلاثون مرحلة . ومن العلاّقى إلى موضع يقال له دح ينزله قوم من بنى سليم وغيرهم من مضر عشر مراحل . ومن العلاّقى إلى معدن يقال له السنطة وبه قوم من مضر وغيرهم عشر مراحل . ومن العلاّقى إلى معدن يقال له الرفق عشر مراحل . ومن العلاّقى إلى معدن يقال له سختيت عشر مراحل .

فهذه المعادن التى يصل إليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر .

---

(١) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

ملحق (٧)

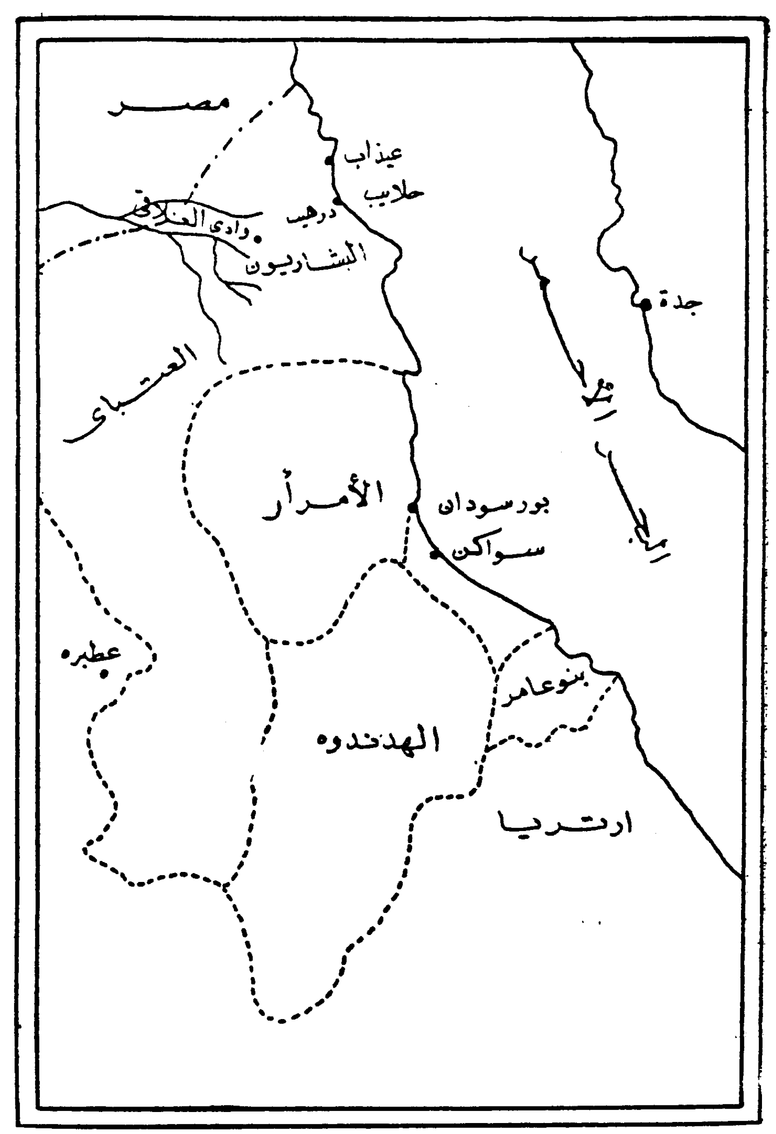
ذكر أماكن الزمرد فى الصحراء الشرقية طريق قفط [١]

من قفط تسلك إلى معادن الزمرد وهو معدن يقال له خربة الملك على ثمان رحلات من مدينة قفط . وفيه جبلان يقال لأحدهما العروس وللآخر الخصوم فيها معادن الزمرد . وفيه موضع يقال له كوم الصابونى ، وكوم مهران ، ومكابر ، وسفسيد . وكل هذه معادن يوجد فيها الجوهر . وتسمى الحفائر التى يخرج منها الجوهر شيم واحدتها شيمة . وكان بها معدن قديم يقال له (بيروميط) وهو معدن كان فى الجاهلية وكذلك معدن مكابر .

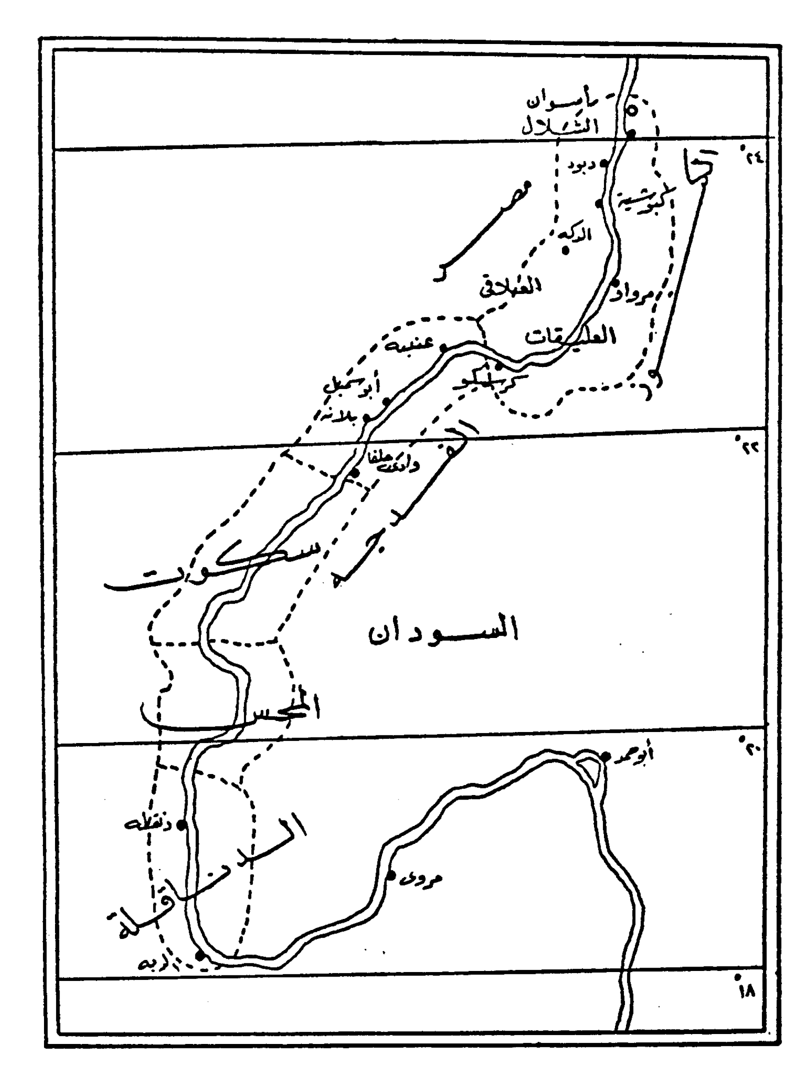
ومن المعدن الذى يقال له خربة الملك إلى جبل صاعد وهو معدن تبر مرحلة . وإلى الموضع الذى يقال له الكلبى وموضع يقال له الشكرى موضع يقال له العجلى ، وموضع يقال له العلاّقى الأدنى ، وموضع يقال له الريفه وهو ساحل بحر خربة الملك . وكل هذه معادن تبر ، ومن الخربة إلى معدن يقال له رحم معدن تبر ثلاث مراحل . وبرحم قوم من بلّى وجهينة وغيرهم من أخلاط الناس يقصدون للتجارات . فهذه معادن الجوهر وما يتصل بها من معادن التبر القريبة .

---

(١) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣٣ .



مجموعات قبائل البجة فى الصحراء الشرقية



توزيع مجموعات النوبيين على جانبي نهر النيل

المصادر والمراجع

المصادر العربية

المصادر الخطية

١ – إبراهيم الحنبلى : (عاش فى القرن السابع الهجرى) :
«شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب»
مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة ،
رقم ٢٤٠٣١

٢ – ابن أبكار الأرمنى : (أبكاريوس بن يعقوب) ت ١٨٨٥ :
«نهاية الأرب فى أخبار العرب»
مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٨٤٩٠ ح.

٣ – ابن أيبك (أبوبكر عبد الله) : من علماء القرن الثامن الهجرى :
«الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب»
مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة ،
رقم ٢٦٠٩١ .

٤ – ابن حجر العسقلانى : (شهاب الدين أحمد بن على) ت ٨٥٢ هـ :
«أنباء الغمر بأبناء العمر»
مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٨٨٤٤ ح.

٥ – ابن الحنبلى (رضى الدين محمد بن إبراهيم) ت ٩٧١ هـ :
«الآثار الرفيعة فى مآثر بنى ربيعة»
مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ،
فهرس المخطوطات المصورة ، الجزء الثانى
(تاريخ) ، القسم الأول ، ميكروفيلم رقم ٢ .

٦ – ابن عبد السلام (أحمد بن محمد بن محمد) ت ٩٣١ هـ :
«الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد» ، مخطوطة
بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٩ جغرافية .

٧ – ابن فضل الله العمرى : (شهاب الدين أحمد بن يحيى) ت ٧٤٩ هـ :
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار »
مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية ،
رقم ٥٥٩ معارف عامة .

٨ – بيبرس الدوادار : (ركن الدولة المنصورى المصرى) ت ٧٢٥ هـ :
« زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » ،
مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة ،
تحت أرقام ٢٤٠٢٦ ، ٢٤٠٢٧ ، ٢٤٠٢٨ .

٩ – التيفاشى : (أبو العباس أحمد بن يوسف) ت ٦٥١ هـ :
« أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » ،
مخطوطة بدار الكتب ، رقم ١٣٦ طبيعيات .

١٠ – ساويرس بن المقفع : (أسقف الأشمونين) توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى .
« سير الآباء البطاركة » المعروف « بسير البيعة المقدسة » ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ،
رقم ٦٤٣٤ ح ، مصورة عن النسخة الأصلية المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس .

١١ – سبط ابن الجوزى : (يوسف بن قيزوغلى) ت ٦٥٤ هـ :
« مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » مخطوطة
بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٢٧٦ ح .

١٢ – العينى (بدر الدين محمود بن أحمد) ت ٨٥٥ هـ :
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان »
مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٨٢٠٣ ح

١٣ – المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥ هـ :
« السلوك لمعرفة دول الملوك » مخطوطة مصورة
بدار الكتب المصرية ، رقم ٤٦٤ تاريخ ،

عن النسخة الخطية بالمكتبة الأهلية بباريس ،
الجزء الثالث ، القسم الأول .

١٤ – النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٣ هـ :
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » مخطوطة
بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩ معارف
عامة ، الأجزاء من ٢٧ – ٣٠ .

١٥ – الوهرانى (ركن الدين محمد بن محمد بن محرز) ت ٥٧٥ هـ :
« مقامات الوهرانى ورسائله ومناماته » مخطوطة
مصورة بمعهد المخطوطات العربية ، رقم ٧٩٦ ،
مصورة عن النسخة الخطية الموجودة بمكتبة
أيا صوفيا برقم ٤٢٩٩ .

• • •

المصادر الأصلية المطبوعة

١ – ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم) ت ٦٣٠ هـ :

« الكامل فى التاريخ » ، طبعة مصر ١٣٠١ هـ

٢ – ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد) ت ٩٣٠ هـ :

« بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، طبعة بولاق ١٣١٢ هـ .

٣ – ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت ٧٧٩ هـ :

« تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، طبعة مصر ١٣٢٢ هـ .

٤ – ابن بعره (منصور الذهبى الكاملى) توفى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى :

« كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية »

تحقيق عبد الرحمن فهمى ، القاهرة ١٩٦٦ م

٥ – ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) ت ٦١٤ :

« تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » ،

تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ م

٦ – ابن حماد (أبو عبد الله محمد بن على) ت ٦٢٨ هـ :

« أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » ، طبعة جول كربونل ، بالجزائر ١٣٤٦ هـ .

٧ – ابن حوقل (أبو القاسم أحمد النصيبى) توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى :

« صورة الأرض » ، نشر كرامرز ، ليدن ١٩٣٨ .

٨ – ابن حوقل : « المسالك والممالك » ، نشر دى جويه ، ليدن ١٨٧٣ .

٩ – ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) ت ٣٠٠ هـ :

١٠ – ابن خرداذبة : « المسالك والممالك » ، نشر دى جويه ، ليدن ١٨٨٩ .

١١ – ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن جابر) ت ٨٠٨ هـ :
« العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ .

١٢ – ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد إبراهيم) ت ٦٨١ هـ :
« وفيات الأعيان » ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ .

١٣ – ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر) ت ٨٠٩ هـ :
« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، طبعة بولاق ١٣١٠ هـ .

١٤ – ابن شداد (القاضى بهاء الدين) ت ٦٣٢ هـ :
« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » طبعة بولاق ١٢٨٧ هـ .

١٥ – ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) ت ٢٥٧ هـ :
« فتوح مصر » ، نشر هنرى ماسيه ، ليدن ١٩٢٠ .

١٦ – ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسى) ت ٣٢٨ هـ :
« العقد الفريد » ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٥٣ .

١٧ – ابن عبد الظاهر (محي الدين) توفى فى أوائل القرن الثامن الهجرى :
« الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية » ، نشر أكسل موبرج ، ليبزج ١٩٠٢ .

١٨ — ابن عبد الظاهر : « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور » ، تحقيق مراد كامل ، طبعة وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٦١ .

١٩ — ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى) ت ٧٤٩ هـ :
« التعريف بالمصطلح الشريف » ، القاهرة ١٣١٢ هـ .

٢٠ — ابن الفقيه الهمدانى (أبو بكر أحمد بن إبراهيم) توفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى :
« البلدان » ، طبعة ليدن ١٨٩١ .

٢١ — ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة) ت ٥٥٥ هـ :
« ذيل تاريخ دمشق » ، طبعة بيروت ١٩٠٨ .

٢٢ — ابن مماتى (أسعد بن المهذب بن أبى مليح) ت ٦٠٦ هـ :
« قوانين الدواوين » ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ .

٢٣ — ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف) ت ٦٧٧ هـ :
« تاريخ مصر » ، نشر هنرى ماسيه ، طبعة المعهد العلمى الفرنسى ، القاهرة ١٩١٩ .

٢٤ — ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم الحموى) ت ٦٩٧ هـ :
« مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، نشر جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ .

٢٥ — ابن الوردى (زين الدين أبو حفص عمر) ت ٧٣٩ هـ :
« خريدة العجائب وفريدة الغرائب » ، طبعة مصر ١٢٨٠ هـ .

٢٦ — أبو شامه (شهاب الدين أبو محمد) ت ٦٦٥ هـ :
« الروضتين فى أخبار الدولتين » ، طبعة بولاق ١٢٨٨ هـ .

٢٧ – أبوصالح الأرمنى – توفى سنة ٦٠٥ هـ :
«كنائس وأديرة مصر» ، الشهير «بتاريخ أبى صالح الأرمنى» ، نشر ايفيتس ، أكسفورد ١٨٩٥ .

٢٨ – أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل) ت ٧٣٢ هـ :
«البداية والنهاية فى التاريخ»، القاهرة ١٩٣٩.

٢٩ – أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) ت ٨٧٤ هـ :
«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٣٣ ، وطبعة وليم بوبر ، كاليفورنيا ، ١٩٣٢ .

٣٠ – الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد العزيز) ت ٥٦٠ هـ :
«نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» ، طبعة ليدن ١٨٦٦ .

٣١ – الأدفوى (كمال الدين جعفر بن ثعلب) ت ٧٤٨ هـ :
«الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد» ، تحقيق سعد محمد حسن ، القاهرة ١٩٦٦ .

٣٢ – الإصطخرى (أبو القاسم إبراهيم بن محمد) توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى : «مسالك الممالك» ، نشر دى جويه ، ليدن ١٩٢٧ .

٣٣ – البكرى (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) ت ٤٨٧ هـ :
«معجم ما استعجم» ، نشر مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥ .

٣٤ – البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) ت ٢٧٩ هـ :
«فتوح البلدان» ، القاهرة ١٩٠١ .

٣٥ – البلوى (عبد الله بن عمير بن محفوظ) توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى :
«سيرة إبن طولون» ، نشر محمد كرد على ، طبعة دمشق ١٣٥٨ هـ .

٣٦ ــ ساويرس بن المقفع (أسقف الأشمونين) توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى :
« تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » ، نشر عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ — ١٩٤٨ ، الجزء الأول والثانى .

٣٧ ــ السخاوى (محمد بن عبد الرحمن بن محمد) ت ٩٠٢ هـ :
« التبر المسبوك فى ذيل السلوك » ، طبعة بولاق ١٨٩٦

٣٨ ــ سليمان التاجر ــ (توفى ٥٩٩ هـ تقريباً) : رحلة سليمان التاجر ــ عن كتاب جامع التواريخ ، نشر سوفاجيه ، باريس ١٨١١ .

٣٩ ــ السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩٠١ هـ :
« حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » ، طبعة بولاق ١٣٢١ هـ .

٤٠ ــ الطبرى (محمد بن جرير) ت ٣١٠ هـ :
« تاريخ الرسل والملوك » ، نشر دى جويه ، ليدن ١٨٧٩ — ١٨٩٣ .

٤١ ــ عبد اللطيف البغدادى (موفق الدين بن يوسف) ت ٦٢٩ هـ :
« الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة » ، طبعة مصر ١٢٨٦ هـ .

٤٢ ــ عماد الدين الأصفهانى (محمد بن محمد بن أبى الرجاء) ت ٥٩٧ هـ :
« خريدة القصر وجريدة أهل العصر » ، قسم شعراء مصر ، نشر أحمد أمين وشوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥١ .

٤٣ ــ القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على) ت ٨٢١ هـ :
« صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩١٥ .

٤٤ ــ القلقشندى « نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب » ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، القاهرة ١٩٥٩ .

٤٥ ـ الكندى (محمد بن يوسف بن يعقوب) ت ٣٥٠ هـ :
« ولاة مصر » ، تحقيق حسين نصار ، بيروت ١٩٥٩ .

٤٦ ـ المسعودى (أبوالحسن على بن الحسين) ت ٣٤٦ هـ :
« التنبيه والإشراف » ، نشردى جويه ، ليدن ١٨٩٧ .

٤٧ ـ المسعودى : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ .

٤٨ ـ المقريزى (تقى الدين أبوالعباس أحمد بن على) ٨٤٥ هـ :
« إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ .

٤٩ ـ المقريزى : « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٧١ .

٥٠ ـ المقريزى : «التاريخ المقفى » ، حقق نماذج منه : خليل عساكر ومصطفى محمد مسعد ، القاهرة ١٩٦٤ .

٥١ ـ المقريزى : « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، نشر محمد مصطفى زيادة ، الجزء الأول والثانى ، طبعة القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٤١ .

٥٢ ـ المقريزى : « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، نشر جاستون فييت ، المعهد العلمى الفرنسى ، القاهرة ١٩٢٢ ، وطبعة بولاق ١٢٧٠ هـ .

٥٣ ـ النابلسى (علاء أبوعمر عثمان بن إبراهيم) ت ٦٦٠ هـ :
« لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية » : تحقيق كلود كاهن ٥٨ ـ ١٩٦٠ .
(Bulletin D'Edudes Orientales, Damas 1958-1960).

٥٤ ـ ناصري خسرو (علوى الفارسي) ت ٤٧٦ هـ :

« سفرنامه » ، تحقيق يحى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ .

٥٥ ـ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢ هـ .

« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، القاهرة ١٩٢٣ .

٥٦ ـ ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الرومى) ت ٦٢٦ هـ :

« معجم البلدان » ، طبعة طهران ١٩٦٥ .

٥٧ ـ اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر) ت ٢٨٤ هـ :

« البلدان » ، طبعة ليدن ١٨٩١ .

٥٨ ـ اليعقوبى : « تاريخ اليعقوبى » ، طبعة بيروت ١٩٦٠ .

• • •

المراجع العربية

١ – إبراهيم على إبراهيم طرخان : « نظام الإقطاع الإسلامى فى العصور الوسطى إلى نهاية عصر الأيوبيين » ، رسالة ماجستير بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ١٠٢ .

٢ – أحمد السيد دراج : « إيضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى » ، نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٦٨ .

٣ – أحمد السيد دراج : « الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية فى مصر المملوكية » ، مقال بالعدد الرابع عشر من مجلة الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ٦٦ – ١٩٦٧ .

٤ – أحمد السيد دراج : « عيذاب » ، مقال بمجملة نهضة افريقية ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٥٨ ، العدد التاسع والعدد العاشر يوليو – أغسطس .

٥ – أحمد السيد دراج : « المماليك والفرنج » ، القاهرة ١٩٦٢ .

٦ – أحمد السيد دراج : « وثائق دير صهيون بالقدس الشريف » ، القاهرة ١٩٦٨ .

٧ – السيد الباز العرينى : « الإقطاع فى الشرق الأوسط » ، فصلة من حوليات كلية الآداب – جامعة القاهرة ، العدد الرابع ، يناير ١٩٥٧ .

٨ – السيد الباز العرينى : « مصر فى عصر الأيوبيين » ، القاهرة ١٩٦٠ .

٩ – حسن إبراهيم حسن : « انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى » ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٠ – حسن الباشا : « الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار » ، القاهرة ١٩٥٧ .

١١ – حسن عبد الوهاب : « تاريخ المساجد الأثرية » ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٤٦ .

١٢ – خير الدين الزركلى : « الأعلام » ، طبعة مصر ١٩٢٧ .

١٣ – راشد البراوى : « حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » ، القاهرة ١٩٥٥ .

١٤ – رونسيهان (ستيفن) : « تاريخ الحروب الصليبية » ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٨ ، الأجزاء الأول والثانى .

١٥ – زكى محمد حسن : « كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ .

١٦ – سيدة إسماعيل كاشف : « مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية » القاهرة ١٩٤٧ .

١٧ – سيدة كاشف : « مصر فى عهد الإخشيديين » ، القاهرة ١٩٥٠ .

١٨ – صلاح الدين الشامى : « دراسات فى النيل » ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٩ – عبد الرحمن عبد التواب : « يوميات حفائر جبانة أسوان » ، حفائر مصلحة الآثار بأسوان ، الموسم الأول ، ديسمبر ١٩٦٠ – فبراير ١٩٦١ .

٢٠ – عبد الله حسين : « السودان القديم والحديث » ، القاهرة ١٩٣٥ .

٢١ – عبد المجيد عابدين : « دراسات فى تاريخ العروبة فى وادى النيل » ، بحث ملحق بكتاب البيان والإعراب للمقريزى ، القاهرة ١٩٦١ .

٢٢ – عبد المنعم أبو بكر : « بلاد النوبة » ، كتاب وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، القاهرة ١٩٦٠ .

٢٣ – عطية مصطفى مشرفة : « نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين » ، القاهرة ١٩٤٨ .

٢٤ – على مبارك (باشا) : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة » ، طبعة بولاق ١٣٠٥ هـ .

٢٥ – عمر رضا كحالة : « معجم قبائل العرب » ، طبعة دمشق ١٩٤٩ .

٢٦ – عمر رضا كحالة : « معجم المؤلفين » ، طبعة دمشق ١٩٥٩ .

٢٧ ـ محمد جمال الدين سرور : « تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق » ، القاهرة ١٩٦٥ .

٢٨ ـ محمد جمال الدين سرور : « الدولة الفاطمية فى مصر » ، القاهرة ١٩٦٦ .

٢٩ ـ محمد جمال الدين سرور : « سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٦٧ .

٣٠ ـ محمد جمال الدين سرور : « دولة الظاهر بيبرس فى مصر » ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣١ ـ محمد جمال الدين سرور : « دولة بنى قلاوون فى مصر » القاهرة ١٩٤٧ .

٣٢ ـ محمد الخضرى : « محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ، القاهرة ١٩٢٢ .

٣٣ ـ محمد رمزى : « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٥٤ » ، القاهرة ١٩٦٣ .

٣٤ ـ محمد عبد الله عنان : « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوى الفاطمية » ، القاهرة ١٩٥٩ .

٣٥ ـ محمد عوض محمد : « السودان الشمالى ، سكانه وقبائله » ، القاهرة ١٩٥١ .

٣٦ ـ محمد كامل حته : « أسوان فى الماضى والحاضر والمستقبل » ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٣٧ ـ محمد كامل حسين : « دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين » ، القاهرة ١٩٥٧ .

٣٨ ـ محمد مصطفى مسعد : « الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى » ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣٩ ـ محمد مصطفى مسعد : « البجة والعرب فى العصور الوسطى » ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ٢١ ـ العدد الثانى ـ ديسمبر ١٩٥٩ .

٤٠ ـ مكى شبيكه : « السودان عبر القرون » ، القاهرة ١٩٦٤ .

٤١ ـ نعوم شقير : « تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته » ، القاهرة ١٩٠٣ .

٤٢ ـ يوسف فضل : « المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان » مقال فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد ١٣ ، القاهرة ١٩٦٧ .

المصادر الأوربية

1 — ARKELL, A. J., : History of Soudan from the earliest times to 1821, London 1961.

2 — ATIYA, A. S., : A History of Eastern Christianity, London 1968.

3 — BECKETT, H. W., : Nubia and the Berberine, Cairo Scientific Journal, August 1911.

4 — BELZONI, G., : Narrative of the Operations and recent discoveries in Egypt and Nubia, London 1922, Vol. II.

5 — BLOCHET, E., : Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire Des Sultans Mamlouks, Patrologia Orientalis, T. XII, Paris 1919.

6 — BRUCE, G. TIGGER : History and settlement in Lower Nubia, Yale University 1965.

7 — BUDGE, E. A. WALLIS : The Egyptian Sudan, Its History and Mounments, London 1907.

8 — . . . . . . : A History of Eithiopia, Nubia and Abyssinia — London 1928.

9— BURKHARDT, JOHN LOUIS : Travels in Nubia.
ترجمة فؤاد أندراوس ، القاهرة ١٩٥٩

10— CASANOVA, P., : Les Derniers Fatimides - Mémoires de La Mission d'Archeologique du Caire, Paris 1890, T. III.

11— CRESWELL (K.A.G.) The Muslim Arehitecture of Egypt, vol. II. Ayyubides and Early Bahrite Mamloukes, Oxford 1959.

12— DARRAG, (AHMED) : L'Egypte sous le régne du Barsbay (825-841) — (éd de L'Institut Français de Damas, Damas, 1961).

13— DE LE RONCIERE (CHARLES) : La Decouverte de L'afrique au Moyen Age, (éd. Societé de Géographie D'Egypte, Le Caire 1925).

14 — DE SLANE (MAC GUCKIN) : Voyage dans le Sudan, par Ibn Batouta, Journal Asiatique, Mars 1843, Quatriéme série, Paris 1843, Tome I.

15 — ELMOND (PAUTY) : Notes sur quelques Mouments Muslmans et Coptes en Haute Egypte, Le Caire 1929.

16 — EHRENKREUTZ, A.S., : Contributions to the knowledge of the Fiscal administration of Egypt in the Middle Ages, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London 1954, Volume XVI.

17 — Evetts, B. T., : The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighbouring Countries, Oxford 1895.

18— GAUDEFROY DE MOMBYNE : Ibn Fadle Allah Al Omari, Masalik elabsar Fi Mamalik al-amsar, L'Afrique, Moins L'Egypt, Paris 1927.

19 — GEORGES SALMON : Notes D'Epigraphie Arabe, II. Les Stéles funeraires D'Assouan, L'Institut Français, Le Caire 1902.

20 — GREENER, LESLIE : High Dam Over Nubia, London 1962.

21 — HAMILTON, J. A. : The Anglo-Egyptian Sudan from withen, London 1935.

22 — HASSAN EL-HAWARY : Trois Minarets Fatimides à la Frontiére Nubienne, (Bulletin de L'Institut Egyptien, 4 Mars 1935, XVII).

23 — KAMMARER, M. ALBERT, : La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabia aux XVIe et XVII Siécles, (S.R.G.E, Le Caire 1937).

24 — MAC DIARMIL : Notes on Nuba — Customs and Language, (S.N.R., Vol. XX, Part I, 1927).

25 — MAC MICHAEL : A History of the Arabs in the Sudan, New York 1967.

26 — . . . . . : The Anglo-Egyptian Sudan, London 1934.

27 — MARCEL JUNGFLISCH : Hassan Suliman, Kashif of Nubia, S.N.R., Vol. XXVII, 1946.

28 — MILEHAM, S. GEOFFREY : Churches in Lower Nubia, Philadelphia 1910.

29 — MURRAY, G. W., : The Abadba, Lecture at the Sudanic Institute of Cairo, March, 8th. 1950. Cairo, 1950.

30 — NEWBOLD, D., : The Crusaders in the Red Sea and the Sudan, S.N.R., XXVI, 1945, Part II.

31 — ORIENTALIA CHRISTIANE ANALECTA : Storia Della Nubia Cristiane, Rome 1938.

32 — PAUL, A., : A History of the Beja Tribes of the Sudan, Cambridge 1954.

33 — . . . . . . : Aidhab: A Medieval Red Sea Port, S.N.R., XXXVI, 1955.

34 — QUATREMERE, E. : Histoire des Sultans Mamlouks de L'Egypte, Paris 1828, T. I, II.

35 — . . . . . . : Mémoires Geographiques et Historique sur L'Egypte, II, Paris 1811.

36 — ROSS, E. DENSON : Prester John and the Empire of Eithiopia, Newton (A.P.) : Travel and Travellers of the Middle Ages, The History of Civilization, Ed. by Ogden, London 1949).

37 — THOMAS, E.S., : The Ancient Mine Plan of Turin Papyrus, Cairo Scientific Journal, 1913.

38 — TRIMMINGHAM, J. S., : Islam in the Sudan, London 1949.

39 — VAN BERCHEM, MAX : Matéraux pour un Corpus Inscriptionurm Arabicarum, I, Egypte (M.I.F.A.O.), Le Caire 1903.

40 — WIET, GASTON : L'Egypte Arabe de la Conquête Arabe (G. Hanotaux), Histoire de la Nation Egyptinne, Paris 1937, Vol. IV.

41— . . . . . . : Nouvelles Inscriptions Fatimides, (Extrait du Bulletin De L'Insitut

D'Egypte, T. XXIV, Session 1941 1942).

42 — WIET, GASTON : Les Relations Egypto-Abyssines sous Les Sultans Mamlouks, (Extrait du Bulletin De la Societé D'Archéologie Copte, T. IV, Le Caire 1938).

43 — . . . . . . : Une Nouvelle inscription Fatimide au Caire, Journal Asiatique, T. CCXLIX, année 1961, Fan. No.I.

44 — ZETEERSTEEN, K. V., : Beitrage zur Geschichte Der Mamlukensultane in Den Jahren 690-741 Der Higra, Leiden 1919.

ABBREVIATIONS

— B. S. O. A. S., : Bulletin of the School of Oriental and African Studies.

— J. R. A. S., : Journal of the Royal Asiatic Society.

— M. I. F. A. O., : Mémoires de L'Institut Français d'Archéologie Oreintale.

— S. N. R., : Sudan Notes and Records.

— S. R. G. E., : Societé Royal De Géographie D'Egypte.

رقم الإيداع		١٩٨١/٢٣٩٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٤٩-٢٧-١	ISBN

٣/٨١/٢٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)